

دار الفلم

محمد عفيفي



DVD4ARAB

الثقافة والجمجمة

النفاحة والجمجمة

محمد عفيفي

النفاحة والجمجمة

الفصل الأول



أن الوقت قد حان لكي أدون قصتي ، قصة الأحداث المضحكة والمفاجعة التي وقعت لي في تلك الجزيرة الغدقة ، وإن كنت أشك في إمكان وصولها - قصتي - إلى أي إنسان . لأنني بعد أن أكتبها لن أقدمها إلى الناشر كما يفعل سائر كتاب القصص ، بل سوف أضع الأوراق في كيس من النايلون ، ثم أضع الكيس في جرة بدائية تشبه القلة ، ثم أسد تلك القلة سدا محكما ، وذلك توطئة لإلقاء القلة نفسها في البحر العريض لتحملها أمواجه إلى حيث يشاء القدر . هذا بالطبع إذا أتيحت لي أن أتم كتابة القصة نفسها قبل أن يفنى القلم الرصاص الذي أكتبها به ، وقبل أن ينفد الورق الذي أدونها عليه ، فهل تصدق أنني أكتبها على الظهور البيضاء لعدد

من الشيكات القديمة ؟ وبعد أن تمتلئ الظهور سوف أواصل الكتابة على الوجوه بين السطور المطبوعة التي تقول : ادفعوا الحامله مبلغاً وقدره ! وبعد ذلك سوف أكتب على كموب الشيكات ثم على غلاف الدفتر ، تلك العملية التي تلزمني أن أوجز في بعض الأحيان أشد الإيجاز ، وهو ما سأفعله من فوري بصدد غرق السفينة التي كنت فوقها .

في جوف الليل والناس نيام ، انفجار رهيب زلزل أركان السفينة ، ثم هرج ومرج وصراخ وعواء ، وعشرات من الناس يقفزون إلى البحر بالبيجامات والجلاليب وبعضهم نصف عرايا . لكنني لم أكن قط من الناس الذين يفقدون عقولهم ساعة الخطر . كنت وقتها — بسبب الحر — نائماً وحدي بالملابس الداخلية ، فأسرت بارتداء بنطلون البيجامة . إذا كان لابد أن أغادر السفينة — قلت لنفسى — فخير بي أن أغادرها بكرامتى . سواء كنت سأموت وأقابل الله أو أعيش وأقابل الناس فلماذا لا أكون في الملابس اللائقة ؟ بالبنطلون والفانلة ذات الحمالات خرجت إلى سطح السفينة التي مالت على جنبها وأوشكت أن تغرق ، فوقفت لحظة أنظر إلى البحر الذي امتلأ بناس بعضهم يسبح وبعضهم يصرخ وبعضهم يغطس ويقب . لكنني لم ألق بنفسى بينهم ، طول صمري أحب الوحدة حتى عندما أغرق . لذلك قصدت إلى ناحية بعيدة عن الناس

واعتليت سور السفينة ، وناظرا إلى السماء حيث يسطع القمر أخذت شهيقاً عميقاً ثم ألقيت بنفسى في الماء . وهناك فقط تذكرت أمراً كان يجب أن أتذكره من قبل ، وهو أنني لأعرف السباحة .

لحظة من الفرع الأسود حين تذكرت هذه الحقيقة وأنا أرتطم بالماء ، ثم وأنا أغطس تحته توطئة لأن أقب ، وأغطس مرة ثانية وأقب ، طالما أنه ماهى إلا عدة غطسات مماثلة ثم أغطس لكيلا أقب أبداً .

الماء سوف يتسلل إلى صدرى ويخنقنى ، ثم يهبط بي إلى القاع الغامض الرهيب ، وسط آلاف من الأسماك والكابوريات التي تصفق فرحاً بهذه الوليمة الفاخرة .

خيالات مزعجة قطعاً ولكنها لم تنجح هي الأخرى في أن تفقدنى صفاء ذهنى . من ناحية تذكرت الاسم العلمى لهذه الميتة وهو الاسفكسيا ، ومن ناحية أخرى تذكرت المثل الذى يتحدث عن تعلق الفريق بالقشة فبدأت أضرب بذراعى هنا وهناك باحثاً عن القشة المذكورة .

عدة ضربات طائشة ثم وقعت يدي اليمنى على جسم غريب سرطان ما تشبث به تشبث الشعراة — إذا سمحت لى بهذا التشبيه — بجدار الحصان . ما هو هذا الجسم لم أعرف للوهلة الأولى ، لكننى عرفت

في الوهلة الثانية أنه نوع من القماش . وهو قماش ملتصق بجسم
بشرى ، وبناء عليه فهو ثوب يرتديه صاحب ذلك الجسم . وهو
فيما يبدو واسع مبجح ، إذن فهو إما جلالية على جسم رجل
وإما فستان على جسم سيده . وبما أنه ناعم كالحرير فأغلب الظن
أنه فستان .

فبينما أنا أتخبط بين تلك الأفكار إذ أحسست يدا تمسك يدي
وتحاول أن تنزعها عن الثوب ، لكن هي مين ؟ فلما يئست اليد
من انتزاع يدي أحسست بها تهجم على رأسي ، تمسك شعري بقوة
وتجذبني منه إلى أعلى . فبرزت على سطح الماء وأنا ألث وأسعل ،
وصوت أنثى قرع أذني وهي تصرخ قائلة :

— امسك الخشبة ! امسك الخشبة !

خشبة كبيرة طافية بادرت إلى التعلق بها ، بجانب الأنثى التي
كانت تتعلق بها قبلي ، والتي لا أدري من أين حصلت عليها .

— هايز تفرقني معاك ؟ صرخت في غاضبة .

فأجبتها بموجة من السعال الذي به أطرده ما تسلل إلى صدري
من الماء .

— أصلي ، قلت وسط شهقاتي ، معرفش أعوم .

— يا فرحتي !

واصطدمت قدمي بقدمها تحت الماء فأسرعت بإبعادها تحسباً
منى ، إذ كنت دائماً جنتلمان . ورأيتهما ترفع يدها إلى شعرها الذي
ألصقه الماء بعينيهما وكان شعرا ذهبياً ، أزاحته عن عينين واسعتين
لمعتا في ضوء القمر بنور بين أزرق وأخضر . حسناء رائعة الحسن
وأكد أقسم أنني أعرفها . نعم أعرفها ، رأيتها في السفينة كثيراً
بصحبة شاب طويل وسيم أسمر — آه ! عرفتُها . هي الممثلة السينمائية
عزيزة فهمي الشهيرة زازا .

— حضرتك ، سألتها مستوثقاً ، زازا ؟

— أيوه ياسيدي ، أجابتنى بنبرة ساخرة ، وسيادتك ؟

— أحمد عبد الغفار ، مهندس سفن .

— تشرفنا ، أجابت ساخرة ، لازم انت اللي بأني السفينة دي !

فقهقمت ، طالما قرأت في الصحف عن ذكاء زازا وحبها للترقية .
كذلك قرأت عن كثرة عشاقها من كل صنف ولون ، وحسدتهم
وتمنيت — طالما أنني أتمنى المستحيل — أن أجدني واحدا منهم .
وهاهو ذا الغرق لم يمنعها من شقاوة الكلام ، فترى هل لا يمنعها
أيضاً من سائر ضروب الشقاوة ؟ ؟

— أنا نسيت أقول لك متشكر .

— ياسيدي العفو . ده واجب علينا !

واعتمدت بذراعيها على الخشبة وأشرأبت إلى أعلى لتأخذ نفساً عميقاً ، وكانت ذراعها العاريتان بلون اللبن الحليب . إذن لم أتشبث — حين تشبثت — بفستان وإعنا بقميص نوم .

— الحمد لله أن الدنيا صيف ، قالت زازا .

— والقمر طالع كان ، نهتها .

قرص مستدير فضي ينظر إلينا بلا اكتراث ، أناس يفرقون في البحر — يقول لنفسه — مالي أنا ؟

— عارفه إحنا حاملين زى إيه فلم تجب سألها .

فلم تجب .

فأجبت نفسي .

— زى نملتين بيفرقوا في كباية مية .

— دى مفروض أنها نكتة ؟

— لا ، دى فلسفة .

— طب خلى فلسفتك لروحك ، واضرب برجليك علشان الخشبة تمشى .

— انتى عندك فكرة الخشبة دى رايحه على فين ؟

— بايخة !

فقهقتها ثانياً وأحسست أننى سعيد .

— أنا مبسوط منك جداً ، أخطرتها ، لأنك موش خايفه .

— انت خايف ؟

— أبداً ، أنا حاسس إني السندباد البحرى رايح مغامرة عجيبة .

وعلى فكرة أنا سعيد جداً بأننى غرقت معاكى انتى .

فلم تجب . وسمعت صوت اصطكاك أسنانها ، مسكينة بدأت تبرد .

— تسمعى لى ؟ قلت لها وأنا أحيط كتفها بذراعى .

حاولت أن تتخلص لكننى تشبثت بها .

— ده إجراء طبي محض ، شرحت لها مطمئناً .

وتوخيت فعلاً أن تكون ضمتى لها ضمة طبية ، حضن رسمى لا يرمى إلى شىء سوى توزيع الحرارة بيننا بما يكفل لها الدفء وفقاً للقانون الثانى للديناميكا الحرارية . لم أسمح لها بأن تشعر بالثورة التى بدأت تزجر فى أوصافى وقد أحاط ذراعى بذلك الكيان الرائع . شفتاى قريبتان من خدها لكننى لن أحاول تقبيلها ، جنتلمان مثلى يستغل أنثى غارقة ؟

ومن عنقها القاتن كان ينبعث عطر مسكر لم تفلح مياه البحر فى إزالته .

— شانىلى ؟ سألها .

— أربيع ، أجايتنى .

وسرني أنها تبسم ، وناظر إلى بروفيلها الفاخر أدركت أنني واقع في حبها لا محالة — إن لم أكن قد وقعت فعلا . لحظات من السعادة الغامرة وأنا أنهل من عطرها وأنظر إلى القمر القضى الذى بدأ ينحدر بسرعة نحو الأفق ، في حين بدأ يشيع في السماء نور آخر هو نور الفجر المقرب .

— دفيت ، قالت وهي تتخلص من ذراعى .

— بسرعة كده ؟ سألتها لأنما

فلم تجب ، ولا أدري لماذا اتجه ذهني إلى الشاب الأسير الذى كان يصاحبها في السفينة .

— مين الجدع اللى كان معاكى فى المركب ده ؟

— وده يهملك فى إيه ؟ سألتنى فى برود .

— مجرد فضول ، هو سر ؟

— ح يكون مين ؟ واحد .

— مالوش اسم ؟

— اسمه توتو ! قالت ضاحكة .

— توتو ؟ !

— سامع ؟ ! هتفت فجأة .

— سامع إيه ؟

— سمعت صوت طائر !

فأنصت وفعلا سمعت صرخت طائر رفرف بالقرب منا .

— نبتى قريبين م الأرض ، هتفت فرحة ، دائما أشوف كده فى الأفلام !

ورحت أتلفت حولي باحثا عن الأرض ، لكننى لم أر شيئا في ضوء الفجر الذى مازال شاحبا . كل شيء صامت حولنا ، أصمت بحر عاينته في حياتي . وكان القمر قد انحدر إلى الأفق وخلص نصفه في الماء ، شاحبا يغرق في البحر مثلنا .

— يارب ! قالت زازا في ابتهاج ، يارب !

دقائق من اللهفة اللاهثة ثم بدأ النور ينتشر في السماء ويكسوها بلون أبيض جليل ، فالتفتنا خلفنا جهة الشرق ننتظر شروق الشمس . قوس صغير أحمر بلون الدم برز عند الأفق ، مثل شفة مخضبة بالروج لا مرآة أسطورية . ثم صار القوس نصف كرة أحمر ، ثم كرة كبيرة حمراء ، بالون خرافي رائع ، بطيخة هائلة نزع عنها قشرها . لا عجب أن القدماء عبدوها ، الشمس الخالدة التى تهيم النور والدفء . وعدنا نتلفت حولنا فسرعان ما هتفنا معا في فرح وحشى : أرض ! أرض قريبة لا يفصلنا عنها إلا دقائق من السباحة

السريعة ، فما أسرع ما كُنّا نضرب الماء بأرجلنا المغمومة . دقائق
من الكفاح ومن اللهفة المجنونة ثم ملس الأرض تحت أقدامنا
العارية ، أجل ملس في الدنيا لو كنت تدري ما هو الفرق . عليها
توائبنا وسط المياه الضحلة كأننا نرقص ، فلما صار الماء بارتفاع
الركبة بدأنا نتمتع فيه ونترنح توطئة لأن نرتمي على الأرض
ونحن نلث ونلث . أصابعي العشرة غرستها في الرمال
الرطبة الناعمة ، كبستها وعصرتها في شوق أليم . الأرض العزيزة ،
أُمنّا الأرض .

وزازاً أراحت خدها على الرمال وهي تلث ، شيئاً فشيئاً
أخذت أنفاسها تهدياً . عيناها التقت بعيني في نظرة طويلة صامتة ،
نظرة التفاهم العميق بين اثنين ذاقا سويا طعم الموت والحياة . ودفع
جميل نحسه في جسمينا تحت أشعة الشمس التي تتسلق السماء من
خلفنا . إذا كانت الأرض أُنمّا فالشمس أبونا ، بأشعتها فوق البنفسجية
غرست بذرتنا في أُنمّا الأرض .

— موش غريبة ، سألت صاحبتى ، إن الشمس مؤنثة
في اللغة العربية ؟

فتقلصت زاوية فمها اليسرى ، راحت تمحّدق في حيننا ثم تصعبت ،
مجنون يحدّثها في هذا الظرف عن فقه اللغة ؟

ثم رأيت تباشير النوم في عينيها ، ذبلت أجفانها وتقاربت ، وإلى
هذه اللحظة لم أعرف هل هما — عيناها — زرقاوان أم خضراوان .
فمددت يدي برفق وجذبت بها يدها المودعة على الرمال ، أدبتيها
من شفتي وقبلتها في حنان وامتنان . وأجفاني أنا الآخر ثقلت
وانطبقت ، ما هي إلا لحظة حتى راح كلانا في سبات عميق .



وردى اللون ، قيص زازا الذى لا يد أنها نشرته هناك لكى يجف ،
فأين هى بدونه ؟

— زازا ، ناديت مستظلمًا .

— خليك عندك ! أأتانى صوتها من وراء جذع الشجرة مخذرا ،
إروع تيجى هنا ! أنا بالشف هدرى .

لحدثتني النفس الشقية — مع ضربة قلب جامحة — بأن أنهض
لأفاجئها لى كنتى قلت لنفسى عيب ياواد .

— كويس انك صحيت ، قال لى صوتها ، غشان تمسك لى المראה !
ومن فوق جذع الشجرة برز رأس زازا دون سائر جسمها ،
وكان فى يدها مشط تسرح به شعرها الذى كان بلون الذهب .

— مانيجى !

فنهضت وقصدت إلى جذع الشجرة ، نظرت عبره إلى عينيها
فاكتشفت أنهما لا خضراوان ولا زرقاوان . مزيج نادر من اللونين ،
كأننى أنظر فى بحيرة عميقة صافية . وأنف سوى مدبب كأنما
نحت من العاج ، وشفقتان ورديتان دسمتان طوبى لمن التقت
بهما شفتاه .

ومن وراء الجذع مدت بالمرآة الصغيرة ذراعا بيضاء عارية ،
فتناولتها وثبتها على الجذع أمام عينيها . وهنا تنبّهت إلى أن هناك
شيئا غريبا .

الفصل الثانى



ولا أدري كم من الزمن نمت ، ساعتين بالراحة بدليل
الشمس التى ارتفعت فى السماء ، شمس الضحى الشابة
الساطعة . شمس ساخنة لكنها لذيذة ، ونسمة لطيفة تهب من البحر
الصامت . . أين زازا ؟

تلقت يمينًا وشمالًا فرأيت شاطئًا رمليًا يمتد قليلا ثم ينمطف
ويستدير كأننى جالس على رأس جزيرة . ثم نظرت ورائى فرأيت
جذعا هائلا لشجرة مقطوعة وراقدة على الأرض ، كتلة ضخمة
من الخشب نزع عنها كافة العصون والأوراق ، وبجانب الجذع على
الرمال أداة صخرية مسننة تشبه المنشار ، وفوقه طرفه قيص حريمى

— جيتى المراية دى منين ؟ ! سألتها فى دهشة .

— مرايتى ! قالت ببساطة .

— والمشط ؟

— مشطى !

— جايبام معاكى م المركب ؟

— طبعاً ! أنا مجنونة انط فى البحر من غير مراية ومشط ؟ !

وتركت المشط لى ترشق فى شعرها بنسة ، وابتسمت فارتسمت

على خدها غمازتان رائعتان .

— وبنس كان ؟ ! سألتها .

— وقلم روج !

— وازاى مافرقوش ؟

— جايبام فى كيس نايلون !

— والله عال ، ما كنتى تجيبى التسريحة نفسها !

— ماتهز المراية !

وانتهت من تسريح شعرها فأنخفضت وراء الشجرة واختفت ،

ثم ارتفعت وفى يدها قلم الروج الذى راحت تطل به شفيتها .

— تصور أن الجزيرة دى كلها ماتجيش فدان ؟ قالت زازا .

— جزيرة ؟ ! إحنا فى جزيرة ؟

فلم تجب من فورها ، مشغولة بلحس شفيتها السفلى .

— آه ، قالت أخيراً ، مافياش مخلوق غيرنا .

— ياخبر اسود !

— اسود ليه ؟

— قصدى أبيض ، غلظت فى اللون . وحدنا خالص ؟

— إحنا وشوية ميتين !

— ميتين ؟ !

— آه ، ميتين من زمان قوى . مافيش غير عضيم ويظهر

كان فيهم واحدة ست .

— وعرفتى منين انها ست ؟

— لقيت غويشتها ، حتى آهه !

ولوحت لى بساعدها الأيسر الذى تحيط به غويشة بيضاء

من العاج .

— تلبسى غويشة واحدة ميتة ؟ !

— بأقول لك ميتة من زمان قوى ، وماتهز المراية كده !

فتصعبت ولم أدر ماذا أقول لهذه الأنثى اللامعقولة . وسرح

بصرى عنها إلى الجزيرة حولنا ، كانت فعلاً لا يمكن أن تزيد عن

فدان . رقعة أرض مستديرة يحيط بها البحر من كل الجهات ،

لا أثر للحياة فيها إلا شجرة بعيدة وكوخ من الخشب .

— رحتى العشه دى ؟

— آه ، فاضية .

وكانت قد أنمت زينتها فسحبت قميصها واختفت به وراء جذع الشجرة ، ذراعاها ارتفعتا وهى تدخلهما فى القميص . ثم نهضت ودارت حول جذع الشجرة ، برزت أمامى فى القميص الوردى الشفاف ، باسمة تسير على مهل وقد عقدت يديها وراء ظهرها ، منظر كان محتوما أن يبدو أثره على وجهى .

— ما لك فاتح بقلك كده ؟ سألتنى بنجبت .

فأقفلت المذكور وأنا أبتلع ريقى .

— ممكن أعرف ، سألتها ، كنتى خايفه أشوفك من غير القميص ده ليه ؟

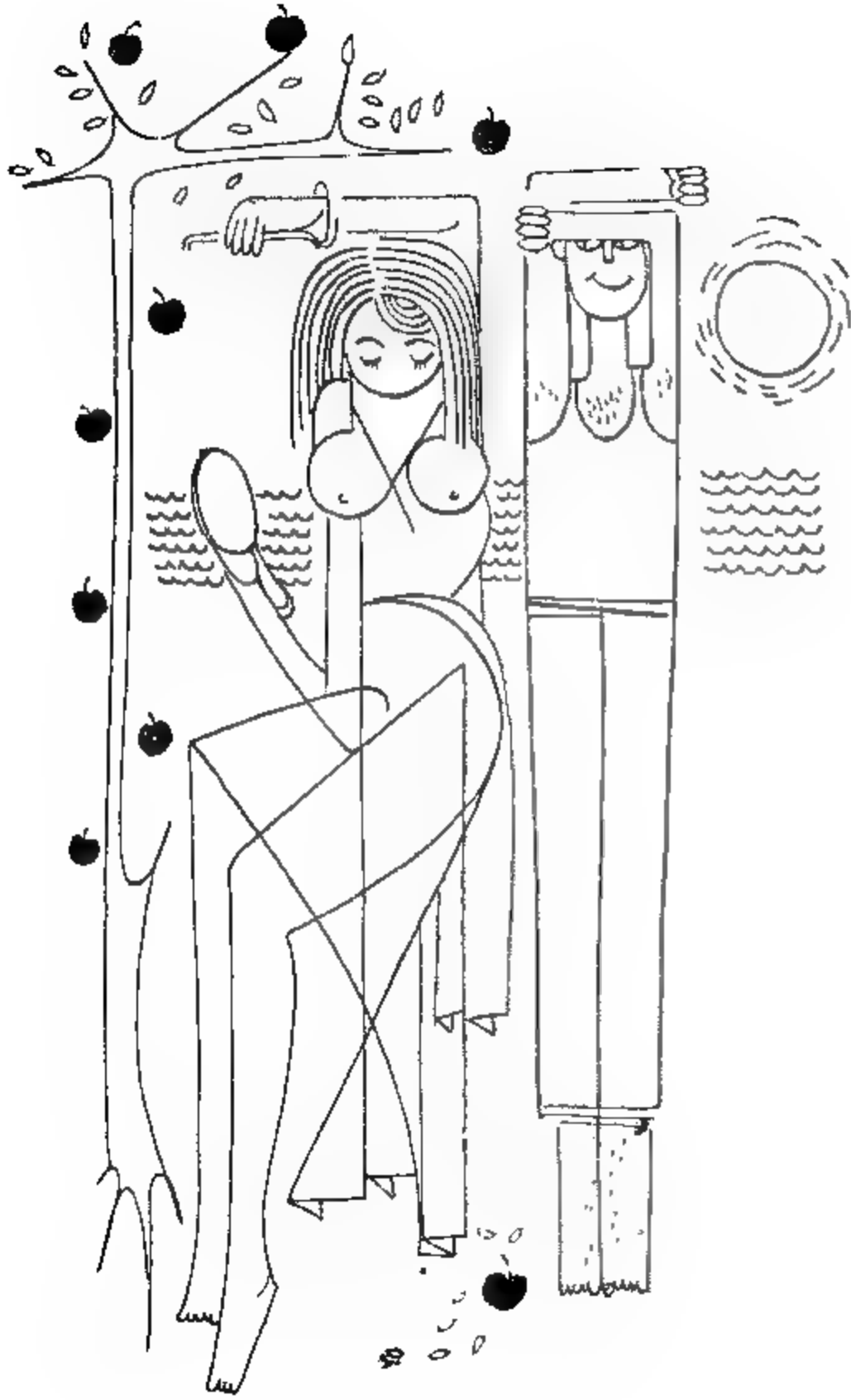
فضحكت وسوت بيدها شعرها ، ومن يدها الأخرى تدلى كيس البايون الذى يحتوى على أدوات الزينة .

— تعالى بقى اما افرجك على الميتين ا قالت بمرح .

وسارت فسرت وراءها متعثرا فى نبضات قلبى ، أمامى فيما يبدو مستقبل رائع إلى درجة أنه رهيب .

— ألد تفاح عمرى دفته ، قالت وهى تشير إلى الشجرة .

كنته رائحة من الخضرة المزينة ببقع التفاح الأحمر ، كأنها شجرة الكريسماس . والشجرة بجانب الكوخ الخشبي الذى كان



بابه مفتوحا ، من خلاله رأيت ما يشبه سريرا واطئا من الخشب ،
وبعض الأوعية المنحوتة من الخشب . وبالقرب من الكوخ عين
مياه ، وبجوارها تلك الجرة التي حدثتك عنها من قبل .

— دى مية حلوة ؟ سألتها .

— زى العسل !

— غريبة ان جزيرة صغيرة كده فيها مية حلوة .

— ليه ؟

— وغريبه كان ان التفاح يطرح فى الصيف .

— إنت كل حاجة عندك غريبة ؟ يمكن تفاح صينى !

ودرنا حول الكوخ ورأيت العظام التى تحدثت عنها زازا ،
وأبرز ما فيها جمجمة كبيرة مقلوبة على وجهها . وحوطها تنتشر
تشكيلة غريبة من العظام ، عظمة ساق طويلة وأخرى قصيرة، وجزء
من قفص صدرى ، وعظمتان قد تكونان من الذراع ، وعدد من
الأصابع . عسير على الإنسان أن يحاول تركيبها فى شخص واحد ،
فلا بد أنه كان يوجد فى هذه الجزيرة أكثر من شخص ماتوا
وتبعثرت على مر الزمان عظامهم .

— نفسى أعدل الجمجمة المقلوبة دى ! قالت زازا فى إشفاق .

— ليه بقى ؟

— موش عجباى مناخيرها الى فى الرمل !

— هى الجمجمة ح تنفس ؟

وانحنى زازا ومدت الى الجمجمة يداً مترددة ، ثم قلبتها بسرعة
لكى تواجهنا بابتسامة الموت الرهيبة ، ومكان العينين فجوتان
تنبعث منهما رائحة الفناء .

— يا ساتر يا رب ! أعوذ بالله ! قلت أنا .

— والنبي دمها خفيف ! قالت زازا ، ياترى كان راجل ولا ست ؟

— وإيه أهميتها بعد الموت ؟ هو الموت فيه ذكر وتاية ؟

— غالباً كان راجل ، جمجمة كبيرة قوى .

— طيب يا الله بينا من هنا ، أنا بدنى قشمر !

وابتعدنا وهى تضحك من فزعى ، وقصدت زازا إلى شجرة

التفاح فشبت على قدميها وقطفت تفاحتين .

— اشقط ! قالت وقذفت إلى بواحدة .

— عمرى ماشفت شجرة تفاح واطية كده ، قلت لها

وأنا آكل .

وكانت تفاحة كالشهد ، أكلتها وأنا أتلفت حولى إلى البحر

العريض الصامت الذى يحاصر الجزيرة من كل جهة . لا أثر للأرض

فى أى مكان ، أفق واحد مستدير يحيط بنا إحاطة السوار

بمعصم زازا .

— إياك تفوت مركب وتشوفنا ، قلت راجيا .

— إيه ، السندباد زهق قوام ؟ داحنا ما بقالناش ساعتين .

فتذكرت ساعتى ونظرت إليها لفحق قلبى . شىء غريب يجرى

فى ساعتى ، شىء غريب جداً . عقرب الثوانى يجرى على الميناء بسرعة

فذة كأنه مكوك لا عقرب ، وعقرب الدقائق يلاحقه بالسرعة التى كان

يجب أن يسير بها عقرب الثوانى ، وعقرب الساعات قفز تحت بصرى

خجأة من الساعة الرابعة إلى الخامسة ! فلما رفعته إلى أذنى سمعتها

تنزأ أكثر منها تدق .

— زازا ! هتفت فى ذهول ، ساعتى اتجنت !

ووضعت الساعة أمام عينيها ، تفحصتها لحظة ، ثم هزت كتفها .

— لازم للية خسرتها ، قالت باستخفاف .

— وما وقفتش ليه ؟

فقلبت شفتها السفلى وهزت كتفها من جديد .

— معقول تكون الساعة خسة ؟ سألتها .

— يا أخى خسرت ، أجابت فى ملل .

— معاكى ساعة ؟

— أعمل بها ايه ؟ تسمح تناولنى تفاحة ؟

فنهضت ومددت يدي إلى تفاحة كبيرة حمراء تتدلى من الغصن

نفسه مع تفاحة صغيرة خضراء .

— بقى لك أد إيه ماحلقتش دقنك ؟ سألتنى زازا وهى تمضغ .
— دقنى ؟

— آه ، طويلة قوى .

فرفعت يدى لأتمسح لحيتى ، ولشد ما كانت دهشتى عندما
لمست تلك الغابة الكثيفة من الشعر .

— موش معقول ! دنا لسه حالقها امبارح !

— امبارح ؟ دى بتاعة جمعة على الأقل . شوف ؟

وناولتنى المرأة التى نظرت فيها فهالنى مارأيت ، اللحية النامية
والشعر الطويل المنكوش والمنظر الذى يسم البدن .

— الحقينى بالمشط !

فناولتنى إياه ورحت أصممه فى شعرى وأنا أعجب كيف طال بهذه
السرعة المذهلة .

— وضوافرك كمان حايزة تتقص ، قالت زازا ، إنت مهمل
فى روحك قوى .

فنظرت إلى أطافرى ، وهالنى أن أجدها هى الأخرى
أشبه بالمخالب .

— والله لسه قاصصها من يومين ! هتفت فى ارتباك .

— طب ناولنى كمان تفاحة .

فنهضت لأقطف التفاحة لكننى لم أقطفها ، ووقفت أنظر
إلى الشجرة فى ذهول .

— الشجرة دى رخره مجنونه !

— بتخرف تقول إيه ؟

— تصورى ان التفاحة اللى كانت صغيرة وخضرة بقت
كبيرة وحمره ؟ !

وحكيت لها الحكاية فهزت كتفها .

— لازم شفت تفاحة تانية .

— أبدا والله ، هى بعينها .

— طب بلاش دوشة وناولها لى .

فناولتها إياها ، راحت تأكل منها وهى ترمقنى فى استنكار .

— إنت دايماً كده ؟

— دايماً إيه ؟

— دايماً تاغب نفسك ؟ تشوف حاجات غريبة وتقول كلام

غريب ؟ حتى فى البحر تقول لى ان الشمس أبصر إيه مؤنثة ؟ انت إيه !

وابتسمت أجمل ابتسامة بين أجمل غمازتين ، فأدركت فجأة

أننى مجنون حقاً حتى أضيع الوقت فى الكلام الفارغ . وتناولت زازا

الجرة الشبيهة بالقلعة ، رفعتها لتشرب منها وخیوط الماء تسيل على

عنقها الأبيض وتسلسل إلى صدرها . منذ حين — حيث نمنا على

الرمال — تناولت يدها وقبلتها فلم تعترض ، يجب فعلاً أن أكف
عن ملاحظاتي وأفكاري الغريبة .

— عارفة إحنا عاملين زى إيه ؟ سألتها .

— إيه ؟

— زى اثنين فى صورة كاريكاتير .. المركب اللي غرقت ،
والجزيرة الصغيرة فى وسط البحر ، وولد وبنت وخدم ..

فابتسمت زازا ورفعت يدها لتمسح الماء عن عنقها ، ثم أسندت
ظهرها إلى جذع الشجرة وراحت تنظر إلى طويلا ، مازالت تبتسم .
متكئة براحتيها على الرمال ، رأسها مال على كتفها وهي تنظر
إلى وتبتسم ، عيناها بحيرتان صافيتان فيهما نظرة نداء .

فركت بجانبها خافق القلب ، أدنيت وجهي من وجهها وملأت
صدرى من غيرها .

— قلتي شائيل ؟ سألتها هامسا .

— قلت اربيع ، أجابتنى باسمه .

فطبعت قبلة صغيرة على شعرها لم تعترض . فددت يداً مرتعدة
ألمس بها كتفها العاجية ، ويداً ثانية إلى الكتف الأخرى ، هممت
بأن أضمها إلى صدرى . لكننى لم أفعل . كيف أفعل وقد وقع
بصرى فجأة على ذلك المنظر الغريب ، منظر الرأس البشرية التي
أطلت في حذر من وراء الكوخ القريب متلصصة علينا ؟

الفصل الثالث



الفرع للوهلة الأولى أنه عفريت يسكن الجزيرة ،
أو أنه صاحب الجمجمة وقد دبّت فيه الحياة فجأة ، ثم
اتضح لي أنه لا هذا ولا ذاك . إذ برز من وراء الكوخ فعرفت
فيه الشاب الأسمر الذي كان مصاحباً لزازا على السفينة ، توتو إذا
ارتضينا هذا الاسم ، الشاب طويل عريض برنزي اللون ، مفتول
العضل فى رشاقة تؤهله لبطولة كمال الأجسام . وجهه وسيم وشعره
أسود فاحم ، والماء يقطر من جسمه بما يدل على أنه قد خرج لتوه
من البحر . لباسه الوحيد مايوه عادى أسود ، فهل كان ينام بالمايوه
ساعة غرق السفينة ، أم تراه قد ارتداه لزوم سباحة المسافات الطويلة
ليجمع بين الغرق والرياضة ؟ لاشك أنه وغد إذ اختار هذه اللحظة

ليطلع لي من البحر ، أنا الذي كنت على وشك أن أطبع قبلي الأولى
على خد زازا . فلعلك تعذرني إذا أحسست بالبغض الشديد له ،
وأسفت من أعماقي على أنني لا أملاك مسدسا أقتله به

لكن شعور زازا كان مختلفاً عن شعوري ، ما كادت تلتفت
وتراه حتى نهضت كالجنونة تجري نحوه .

— توتو ! هتفت في فرح ، توتو ! توتو !

وألقت ذراعيها حول عنقه وتعلقت به تقبله .

— أنا افكرتك غرقت يا توتو ، سلامتك يا حبيبي !

فراح يطبطب على ظهرها مطمئناً إياها على سلامته ، ومن فوق
كتفها انغمر فيه عن ابتسامة عريضة لمعت خلالها أسنان قوية بيضاء .

— تازا ! تازا ! تازا !

هذا كل ما علق به على ترحيبها به ، بصوت تينور عميق يوحى

بالثقة بالنفس .

— إنت لسه طالع م البحر دلوقت ؟ سألته .

— تازا ! أجابها .

— لازم تعبنا قوى يا مسكين .

— تازا !

— ماتقعد تراح ؟

— تازا !

أهذه هي الكلمة الوحيدة التي يعرفها ذلك الوغد ؟

— تعال أما اعرفكو ببعض ، قالت له زازا .

وجذبتة نحوي وأقبل يصاخني ، دقيقة كاملة وهو يعصر يدي

يكاد يفمصها ، ويهز ذراعي يكاد يخلعها ، ويبتسم طبعاً .

— هو ما بيعرفش يتكلم ؟ سألت زازا .

— بيعرف طبعاً ، بس لغة معرفهاش .

— هو جنسيته إيه ؟

— ما قاليش ، وأنا يهمني إيه من جنسيته ؟

وطبطبت على صدره فقال تازا ، كأنه عروسة من عرائس

الأطفال التي تضغط عليها فتقول ماما .

— جربني تكلميه انجليزى ؟ سألتها .

— وفرئساوي ، مافيش فائدة .

— إمال عرفتي منين أن اسمه توتو ؟

— أنا اللي سمعته كده !

— يعني مابتتكلموش خالص ؟

— وتكلم لي ؟

— بتحبيه كتيبي ؟

— لو تعرفه زبي كنت تلاقى مفيش لزوم للكلام ! أجيب
لك تفاحه ياتوتو ؟

ومدت يدها إلى الشجرة فقطفت له تفاحة لم تأخذ منه -والله-
سوى قضمة واحدة . وفي دقيقة لاغير كان قد ألهم سبع تفاحات
دون أن يبصق منها بذرة . ثم رأى الجرة فرفعها إلى فمه وراح يجرع
لم يتركها إلا خالية . ثم تكرع ومد يده ليقطف التفاحة الثامنة .

— يا عيني ، قالت زازا ، ده جمان بشكل !

— بالسم إن شاء الله ! قلت أنا .

وبينما هو يرفع يده نحو التفاحة التاسعة لاحظت للمرة الأولى
أن في معصمه ساعة فسرعان ما كنت أقرب منه .

— قولى له يوريني ساعته ، قلت زازا .

— هات إيدك ياتوتو .

— زازا !

وناولتني معصمه لكي أنظر في ساعته ، ويبدو أنها كانت
هي الأخرى ووتر بروف ولذلك لم تتوقف ، لكنها كانت تدور
بنفس سرعة ساعتي . عقرب الثواني يجرى بسرعة كالمكوك ،
وعقرب الدقائق يلهث وراءه لكي يلاحقه .

— شايعة ساعته ؟ هي كان اتجنت !

فنظرت إليها ولم تزد على أن هزت كتفها كما فعلت من قبل .

— خسرت زى ساعتك ، قالت في استخفاف .

— وفيه حاجة تانية غريبة ، ساعته مضبوطة على ساعتي ،

الاثنين ستة ونص وخمسة . بص كده ياسى توتو ؟

وأدريت الساعة من عينيه فراح يحملق إليها حيناً في بلاهة

ثم ابتسم .

— زازا ! قال توتو .

— موش شاييف فيها حاجة غريبة ؟ سألته في غيظ .

فنظر إلى زازا احثراً .

— مافاخدش بالك منه ، قالت له زازا ، أصله تعبان شوية .

تيجبى أفرجك على الجزيرة ؟

وجذبتة من ذراعه فلم ينجذب ، بل جلس على الأرض ودعاها

إلى الجلوس بجانبه فجلست ، ذراعه امتدت وأحاطت بكتفها فلم

تعرض ، بل مدت بوزها — السافلة — إلى خده الأصغر وقبلته .

— إيه قلة الحياء دي ؟ ! صرخت فيها نائراً .

— شيء بارد ! أجابتني وهي تنظر إلى من فوق لتحت ،

إنت مالك ؟

— يعنى إيه أنا مالى ؟

— انت جوزى ؟ ألويا ؟ لك حقوق على ؟

— لا ، أجبتهانى كبرياء ، بس من شوية كنت أنا اللي بابوسك !

فلم تجبني ، وابتسمت له وقبلته ثانياً . فملك تعذرني إذا بدأت أغلى من جديد ، كل خلية في جسمي تهيب بي أن أجهم عليه وألقى به إلى البحر الذي طلع منه ، لكنني كنت دائماً حكيماً . نظرت إلى طوله وعرضه وعضلاته وأدركت أن الهجوم على نور كهذا لا يخرج عن كونه عملية انتحارية محضة .

ويبدو أن الوغد قرأ خواطري ، إذ فتح جيباً في المايوه وأخرج منه خنجرًا لامعاً من النحاس الأصفر ، بسط راحة يده وراح يسنه عليها وهو يرمقني بابتسامة صفراء . خنجر جميل مزين بالنقوش ، حلية تصلح للمتاحف لكنها تصلح للقتل أيضاً . فاكتمت — أنا الحكيم — بأن نظرت إليه في ازدراء ثم أوليته ظهري وواجهت البحر .

— قوم أفرجك ع الجزيرة قوم ، أتاني صوت زازا .

يبدو أنها قد خشيت وقوع الصدام بيننا فأثرت أن تسحبه من هنا ، ترى هل خافت على ؟ والتفت لأراها ينهضان ويتعدان وهي تتأبط ذراعه ، تابعتها بنظرة تقطر مرارة وحسداً . ضاعت

منى زازا ، اللقمة الطرية اللذيذة خطفها الوغد من فمي خطفًا .

حزيناً جريماً جلست تحت شجرة التفاح ، لكن الحزن — مثل الخوف والغضب — لم يكن من شأنه قط أن يفقدني صفاء ذهني . رفعت بصري إلى الشجرة وقلت لنفسى يجب أن اكتشف سرها . سوف أثبت عيني على هذه التفاحة الصغيرة الخضراء ، ولا أرفعها عنها حتى أستوثق من أنها لن تتحول — كما خيل إلى من قبل — إلى تفاحة كبيرة حمراء .

فاستلقيت على ظهري عافداً يدي تحت رأسي ، ورحت أرقب التفاحة . هي مازالت صغيرة خضراء لم يطرأ عليها تغيير ، لكن شيئاً طرأ على أنا . وجددتني أتناوب وقد حل بي تعب مفاجيء ، وجفوني ثقلت وبدأ من أمري أنني سأنام . أليس غريباً أن يدهمني النوم وأنا الذي صموت من ساعتين على الأكثر ؟ بصعوبة شديدة نزع يدي من تحت رأسي ومدتها إلى التفاحة ، بظفري أحدث بها شقاً صغيراً أعلمها به ، ثم تشاءبت واستسلمت للنوم .



— البركة ف توتو ! قالت في فخر .

— تراتزا ! قال للذكور .

— هو اللي اصطاده ؟

— وهو اللي ولع النار ربنا يخليه !

وشرحت لي كيف وقف في البحر ساعة يصيد بخنجره هذا السمك ، ثم انتزع قطعة من جذع الشجرة المقطوع وراح يحكها بالخنجر حتى اشتعلت ، ثم جلس ليعد هذه الوليمة الفاخرة .

— كل ده وحضرتك نايم تشخر ! اختتمت كلامها ساخرة .

فزغرت لها ولم أجب ، في حين جلست هي رافعة مראتها الصغيرة أمام وجهها .

— ده كل اللي عمله وأنا نايم ؟ سألتها في ريبة .

— اللاه ! هتفت متجاهلة ، ريحة السمك حلوة بشكل !

وكانت رائحته شبيهة حقاً ، ترى هل يجود العين على بسمكة ؟

— باقول لك الراجل ده كله فوايد ، قالت زازا ، مش كده ياتوتو ؟

— تراتزا ! أجابها باسمها .

— نا كل ممك ونحلي بتفاح ، أضافت ، فيه حاجة ألد من كده ؟

وذكرت التفاحة التي علمتها فرفعت بصري إليها ، وما توقعت

أن أراه رأيته . التفاحة الصغيرة الخضراء قد تحولت خلال نومي

الفصل الرابع



وفي أنفي رائحة نار ودخان وشيء يشوي ، ومن خلال عين نعسانة رأيت كومة من الأخشاب المشتعلة وفوقها عدد من الأسماك التي يقلبها توتو بسن خنجره اللامع . فلما أحس بنظراتي إليه بادلني إياها وهو — عليه اللعنة — يبتسم . جلست أتلفت حولي وأنظر إلى الشمس التي مالت إلى الأفق الغربي ، نمت إذن قرابة ساعتين . وبالنظر إلى ساعة يدي وجدتها ما برحت تدور كالجنونة ، وقفز عقرب الساعات فجأة ليسجل الساعة الثانية عشرة ! جذبني صوت زازا وهي مقبلة من ناحية البئر بالجرة التي ملأتها ، تهتز في يدها وهي تسير فتساقط قطرات الماء على الرمال .

— السمك ده منين ؟ سألتها مستفسراً .

إلى تفاعهة كبرفة حمراء ، وعلى قشرتها نفس الشق الذى أحدثته
بظفرى . وبالتداعى نظرت إلى أظافرى فتأكدت أنها طالت
بدرجة مذهلة .

— تسمى لى بالمراية ؟

فناولتنى إياها ورفعتها أمام وجهى فكدت أصعق . لحيتى
غابة كثيفة ، وشعرى مهطل كأننى لم أحلقه منذ شهور ، وفيه نسبة
من الشيب لا أذكر أنها كانت هناك من قبل ، أكاد أقسم وأنا أتأمل
وجهى أننى قد كبرت سنتين .

— خدى ! قلت لها وأنا أعطيها للآراء ، إوعى تخلينى ابص

فيها تانى !

ونظرت إلى توتو فلاحظت أمراً قاتنى ، لحيته هو الآخر قد نمت
مع أنه لم يكن فيها حين برز من البحر شعرة واحدة . كانت
الساعتان كافيتين لى تطول لحيته ، كما وقع لى فى أول ساعتين
لى فى الجزيرة .

— زازا ، قلت لها يائساً ، الجزيرة دى مسحورة !

— والله ؟ سألتنى فى سخرية .

— والله مسحورة ! بصى لدقنى وشعرى وضوافرى ، وبصى

لدقنه وشعره وضوافره .

فقلبت النظر بيننا حيناً ثم هزت كتفها .

— كل الدقون وكل الشعور وكل الضوافر دائماً تطول .

— بالسرعة دى ؟

فقلبت شفتها فى غير احتفال .

— طب والتفاعهة دى ؟

وحكيت لها حكاية التفاعهة التى علمتها فلم تثرها بدورها .

— لازم علمت تفاعهة كبيرة وانت مش واخذ بالك .

فبئست من إقناعها ، ونظرت إلى ساعى لى أرى عقرب

الساعات وهو يقفز من الثانية عشرة إلى الواحدة .

— يا حلاوة ! هتفت زازا ، السمك استوى .

وتركت للآراء وخفت إلى السمك الذى بدأ توتو يفرس فيه سن

الخنجر ليرفعه من على النار ، ويودعه على فرشة من ورق الشجر

كان قد أعدها لذلك . فددت زازا يدها إلى السمك ثم جذبتها سريعاً

وهى تطرق أصابعها متأوهة ، فى حين أطبق الوغد على أكبر

الأمماك وراح يمزقها بسهولة كأنها خارجة من الثلجة .

— ماتيجى تاكل ، قالت زازا ، مستنى عزومة ؟

فهزرت رأسى ناظراً إليها فى كبرياء .

— موش أنا اتلى أبيع كرامتى بأكلة سمك ؛

— إنت حر ، توفر .

لكن توتو لم يفهم المسألة على أنها كرامة ، إذ رأيت ينتقى سمكة كبيرة ويضعها وحدها في ناحية ، مشيراً إليها وإلى بما معناه إنها سمكتى آكلها حين أجوع ، فأصارحك القول بأنها كانت لفظة جعلتني أبدأ في مراجعة مشاعري نحوه . هو عمل واجتهد وتعب وأنا نائم ، فإذا يجبره الآن على أن يختصني بهذه السمكة الكبيرة ؟ فرحت أرقبه وهو يلتهم السمك وخيل إلى أننى لم أعد أبغضه ، بل خيل إلى مدى لحظة أننى قد بدأت أميل إليه . ماذنبه إذا كان قد عرف زازا قبل أن أعرفها أنا ؟

— أما سمك ! هتفت زازا وهى تمضغ .

لكننى لن آكل سمكتى الآن ، سأنتظر حتى أنفرد ثم آكلها . دقائق قليلة وكان توتو قد أتى على السمكة الثانية فنهض وقصد البحر لينسل يديه ، ثم قصد إلى شجرة التفاح وبدأ يقطف وينهش . عسى أن تكون هذه الشجرة مطابقة لفكرتى عنها في سرعة النماء وإلا فما هو . لا يوم آخر ونجد أنفسنا بلا تفاح ، ويصبح اعتمادنا كاملاً على السمك الذى يصطاده هو . فلما رآنى أراقبه تبسم ثم نجشاً ، ثم جلس على الأرض مسنداً ظهره إلى جذع الشجرة . ثم انفرد فيه كالكهف وهو يتشاءب ، ورأيت عينيه حمراوين خلال جفونه التى

بدأت تثقل ، فى حين مال رأسه على صدره مرتين . ثم مال هو نفسه على جنبه واستلقى على الأرض ، ورأيت يده إلى جيبه ليتحسس الخنجر ، توطئة لأن ينقلب على الجانب الآخر لجعل الخنجر محصوراً بينه وبين الأرض ، مازال الخبيث يشك فى نواياى . وما هى إلا لحظة حتى رددت شخيرته أرجاء الجزيرة ، فلن يكون عجيباً لو أنه لفت إلينا أسمع سفينته عابرة .

— انت ح ناكل سمكتك ولا أكلها أنا ؟ سألتنى زازا منذرة .

— لا يا شيخخة ! والنبي ؟

وهجمت على السمكة أنهشها لحماً وجلداً وتقريباً شوكة .

— إمال كرامتك راحت فين ؟ سألتنى ساخرة .

— السمك ما يتعارضش مع الكرامة لما يكون مشوى ! قلت لها وأنا أنهش .

فضحكت زازا وأسعدتنى ضحكتها .

وبينما أمضغ وأبلع رأيتها تنظر إلى طويلاً وهى تبسم .

— انت منعاظ قوى من توتو ؟ سألتنى بعد حين باسمية .

— ده وقت يطلع لى فيه ابن الكلب ؟ سألتها وأنا أخرج شوكة من أسناني .

— معلش ، قالت زازا بمكر ، أنا أصالحكم على بعض .

ثم تشاءبت ورفعت ذراعيها تتمطى .

— آح ! الأكل خلى النوم يكبس على .

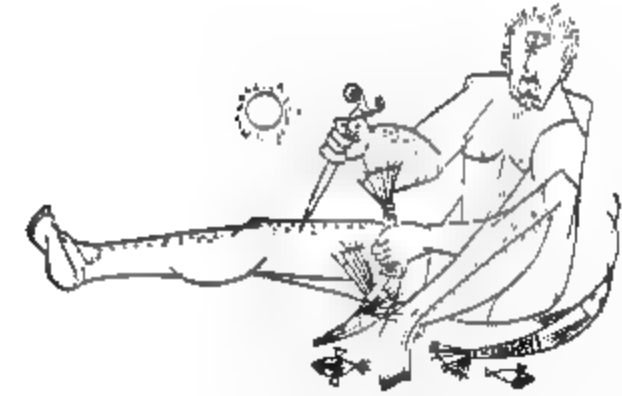
وتشاءبت ثانية وانطرحت على جنبها ، ضمت ركبتيها إلى بطنها
وعقدت ذراعيها على صدرها ، تكورت كقطعة صغيرة ناعمة .
فما هي إلا دقيقة حتى انتظمت أنفاسها وانفخر فيها في بلاهة النوم .
فلا كل سمكتي ، آه لو كان معها رغيف وحبّة ملح وصحن طرشي !

الفصل الخامس



من السمكة فاتجهت عيني إلى زازا النائمة وراحت تنفّس
هناك ، الكيان الرائع الذي كان يمكن أن أحوزه لولا
ذلك الوغد النائم تحت الشجرة . زازا تنفّس فيرتفع القميص الوردي
على صدرها ثم يهبط في إيقاع فاتن ، وشعرها المبعثر على الرمال خيوط
من ذهب . والشمس وراءها قد انحدرت نحو الأفق البعيد وصبغته
بحمرة الشفق ، التقى الشفق بقميص زازا في مزيج من الحمرة الخالدة .

المرأة ملقاة بجانبها الكنى لن أقربها ، صورتي التي رأيته فيها
شيء لا يطاق . لماذا تطراً تلك التغيرات على أنا وتوتو ، في حين
تظل زازا كعهدا ؟ لماذا لم يطل شعرها أو أظافرها مثلنا ؟ أنى



أريد أن أرتب أفكاري ، وهى لن ترتب طالما أنا أنظر إلى زازا
الناثمة ، فلا أقم من هنا .

قت أتمشى فى الجزيرة وأفكر . أتكون هذه الجزيرة
- تساءلت - مسحورة حقاً كما قلت لزازا ؟ فتى كانت توجد الجزر
المسحورة خارج حواديت ألف ليلة ؟ ومع ذلك فالساعات فيها
تجربى بسرعة فذة كأنها تسابق الزمن ، والاعشى والشعر والأظافر
تنمو بمجنون ، والتفاحة الصغيرة الخضراء تصبح فى ساعتين كبيرة
حمراء . كل شىء يجربى بسرعة مذهلة ، فهل يمكن أن يكون لهذه
الجزيرة - لسبب ما - زمنها الخاص بها وحدها ؟ أشياء كهذه قرأت
عن احتمال حدوثها فى كوكب آخر غير كوكبنا ؟ فهل يمكن أن
يختلف زمن جزيرة واحدة عن زمن سائر الجزر فى كوكب واحد ؟

وصلت فى تجوالى إلى جذع الشجرة الراقدة على الأرض وبجانبه
المنشار الصخرى . أناس عاشوا هنا وقطعوا هذه الشجرة ، فلماذا
قطعوها ؟ وعلى السطح العلوى للجذع آثار لأدوات بدائية عملت
فيه بالحفر والنحت ، فإذا كان أولئك الناس يقصدون أهل كانوا -
مثلاً - يحاولون تفريغ جذع الشجرة وتحويله إلى زورق كبير ؟
إذا كان هذا هدفهم فلماذا بدأت عمليات النحت ثم توقفت ؟

واتجه ذهنى إلى المظام وراء الكوخ فسرمان ما كنت أقصد

نحوها ، شىء ما فى قبعتها الرهيب يجذبنى إليها . وهناك واجهتنى
الجمجمة وقد انفجر فيها بابتسامة الموت المفزعة . ترى من كان
صاحب تلك الجمجمة ، وهل هو الذى وقف يوماً يعمل تلك الأدوات
الصخرية فى جذع الشجرة ؟ وما هذا الشق فى أعلى الجمجمة ؟ هل تلقى
الرجل قبل أن يموت ضربة قاتلة ؟

رعدة سرت فى بدنى فابتعدت عن المكان ، قصدت إلى موضعى
الأول ورحت أرقب الرجل والمرأة النائمين . هنا لحم ودم وحياة ،
خاصة تحت هذا القميص الوردى . أمعقول أن الغويشة التى أخذتها
زازا كانت لأنثى مليئة بالحياة مثلها ، رفعت بالغويشة يدها لى
تسوى شعرها وفى عينيها نظرة نداء ؟ ألا ما أتعس تلك الأنثى لو أنها
لم تستمتع بكل لحظة من حياتها .

نزعت عيني عن زازا وصوبتها إلى اللعين توتو حيث ينام تحت
الشجرة وسط زوبعة من الشخير ، ترى ماجنسيته ومن أى بلد جاء ؟
بسهولة جداً يمكن أن يكون هندياً من آسيا ، وبسهولة جداً
يمكن أن يكون هندياً من أمريكا ، وربما كان مغولياً أو سلافياً
أو حتى آرياً مولداً ، من الممكن أن يكون أى شىء . ومهما كان
من أمره فنحن رجلان ومعنا أنثى واحدة . أنا الآن لا أكرهه
ولكنه لا يثق بى . الرجل للرجل إما صديق محبوب وإما منافس
مرهوب ، والله لأقول هذه الحكمة لزازا . لجدير بى أن أجعله

يجبى أو يرهبنى ، أو على الأقل يحترمنى . يجب أن أحوز صداقته
ولو عن طريق المغامرة .

كان قد انقلب على الجنب الآخر الذى يكشف عن جيب المايوه
حيث يوجد الخنجر ، فه مفتوح فى بلاهة وهو يغط ، فماذا
لو قصدت إليه فانتزعت الخنجر من جيبه ؟ هى مغامرة خطيرة
بلا شك ، لو انتبه إلى لكان فى ذلك نهايتى . سيظن أننى أريد
أن أقتله ، ويكون معذوراً إذا هو سبق إلى قتلى . مغامرة رهيبة ،
معركتى مع هذا العملاق الأسمر ، لكنها ضرورية .

على أطراف أصابعى تسلك نحوه ، أكاد أسمع بأذنى دقات
قلبي . وفى الطريق توقفت على صوت سمعته لكنه لم يكن إلا صوت
زازا وهى تحلم . خطوتين أخيرتين وأشرفت على الرجل النائم ،
ما أعجز الرجل حين ينام . جثوت فى حذر بجانبه ، ومددت إلى جيب
المايوه يداً ترتعد . جسمى كله يرتعد من إحساس المغامرة ، للهندس
للسكين الذى لم يعرف للمغامرة إلا على الورق . ثم دسست إصبعين
متوترتين فى جيب المايوه ، وعرق بارد تصبب على وجهى . بالإصبعين
قبضت على سن الخنجر وسحبته برفق ، كاد قلبي يتوقف عندما رأيت
الرجل يتحرك . تفرز فجأة وزجر ، ورأيت الموت فى عينيه المقلتين .
كان فيما يبدو يحلم ، ترى أى أحلام عجيبة تدور فى تلك الدماغ
الغامضة ؟ تفرز ثانياً ثم سكن ، وعادت أصابعى إلى سن الخنجر ،

جذبتة برفق حتى أخرجته من جيب المايوه ، ووقفت به وأنا
ألثت . بالخنجر أقف بجانب الرجل النائم ، سيد الموقف ومالك
زمام الأمور . بضربة واحدة أستطيع أن أقتله وتصيح زازا
والجزيرة كلها لى . ضربة واحدة ويتحول هذا الجسم النابض
إلى جثة هامدة ، وعدة أيام أخرى ويصبح فى الجزيرة هيكل جديد .
أفكار ألوكها وأنا أعرف أنها مضحكة ، لست أنا الذى يقتل
الرجل نائماً كان أو صاحياً . لم أستطع أن أبغضه فهل أستطيع
أن أقتله ؟ لكننى سعيد بنجاحى فى المغامرة ، فرحة صبيانية ترقص
فى صدرى . لماذا لا أقص أظافرى طالماً أن الخنجر فى يدي ؟
قصصتها ثم خطر لى أن أحلق لحيتى وعند ذلك عرفت قائدة الصابون .
أمكننى أن أشذبها لحسب ، أما حلقها فستحيل . ولماذا أحلقها
وسوف يصبح لمنافسى بعد حين لحية مثلها ؟ إنى لأنظر إليه فيخيل
إلى أنها تنمو تحت بصرى ، مثل التفاحة المتدلّية من الشجرة فوق
رأسه . فرشقت الخنجر فى الأرض على مقربة من الرجل النائم ،
وعدت لأجلس فى موضعى الأول أمام زازا . هى تنقلب على جنبها ،
عينها تفتحتا ونظرتا إلى الرمال ، ثم حادت ببصرها إلى . ثم استوت
جالسة تستوعب الدنيا ، وبسطت ذراعها لتمطى .

— أنا نمت كثير ؟ سألتنى متثابرة .

— موش قوى .

— وانت قاعد هنا من كثير ؟

— برضه مش قوى .

— طب هات لى اشرب .

فقصدت إلى الجرة وفي طريقى مررت بالخنجر المرشوق
في الأرض . ثم عدت فوجدت عينيها مصوبتين إلى الخنجر ، تنقل
النظر بينى وبينه فى دهشة .

— إيه اللى طلع الخنجر ده ؟ سألتنى .

— أنا ، أجبته فى بساطة .

— ليه ؟

فابتسمت فى غموض وناولتها الجرة ، لكنها لم تشرب .

— ليه ؟ سألت ملحة .

— علشان اقص ضوافرى ، قلت باستخفاف وأنا أجلس بجانبها .

فراحت تنفّس فى حيناً ، تنقل النظر بينى وبين الخنجر وصاحبه

النائم ، تقلب فى ذهنها مختلف الاحتمالات .

— إانت شخص غريب ، قالت لى حين فهمت .

فعربدت الفرحة فى صدرى أكثر من قبل ، رأيت فى عيني
زازا نظرة احترام . عرفتني على حقيقتي أو على الأقل كما يجب أن
أكون . لست ذكياً وشجاعاً فحسب ، وإنما نبيل أيضاً . أسلب

غريمى سلاحه ثم أردده إليه ، جنتلمان فى البر والبحر وكل مكان .

— كلت السمكة ؟ سألتنى وهى تتلفت حولها .

— آه .

— اخص عليك ، قالت فى دلح ، موش كنت تخلى لى حنة ؟

— حقك على ، قلت لها ، كنت جعان قوى .

ورفعت الجرة وشربت ، خيوط الماء سالت من جديد على

عنقها وتسالت إلى صدرها .

فلما أنزلت الجرة مددت إصبعها إلى عنقها العاجى أمسح الماء ،

نظرت فى استسلام وابتسمت .

— انت حلقت دقنك كان ؟

ومدت يدها تتحسس وجهى ، فجذبت يدها إلى شفتى وقبلتها .

ونظرة حنان سبغت فى بحيرة عينيها ، فأدابت شفتى من وجنتها

وطبعت قبلة مرتعدة . أحبك يا زازا ، قلت لها ، أحبك ، وهممت

بأن أطلع قبلة ثانية فابتعدت .

— توتو صحى !

فتابعت نظرتها لأراه جالساً يدهك عينيهِ من النوم ويتشاهب ،

ثم امتدت يده بحركة لا شعورية إلى جيب المايوه . لم يكن الخنجر

هناك طبعاً ، وهو ما يفسر نظرة الفزع التى ارتسمت فى عينيهِ .

ثم وقع بصره على الخنجر المرشوق فى الأرض ، حملق إليه فى ذهول

ثم نقل بصره إلى أنا، ثم إلى الخنجر ثم إلى كأنه لا يصدق عينيه .
وبسرعة خطفه من الأرض وراح يتأمله محاولاً أن يستوعب الموقف .
فما نظر إلى في المرة التالية تبسمت له ، فظل يرمقني مدى حين
في دهشة ثم ابتسم . ثم وقف وهم بأن يضع الخنجر في جيبه لكنه
عدل ، ألقى الخنجر ورشقه في الأرض كما كان .
— تزاوا ! قال بلا مناسبة وهو يبتسم .



وانظرت إلى زازا فوجدتها هي الأخرى تبسم ، ثم تحولت
ابتسامتها إلى ضحكة فرح ، موجة سعادة غمرتنا كلنا فجأة . وقصد
توتو إلى البحر ليغرف الماء براحتيه ويفسل به وجهه ، ثم قصد
إلى شجرة التفاح فقطف ثلاث تفاحات ، اثنتان منهما قذف بهما
إلينا وهو يتبسم . ثم أولانا ظهره وابتعد ، عملاق برنزي جميل

مرسوم على الأفق الأحمر . إلى جذع الشجرة المقطوع ذهب ،
دار حوله واختفى . ثم ارتفع صوته بأغنية غريبة ، بصوت تينور
عميق مطرب .

فالتفت إلى زازا وابتسمت . ضوء الشفق الأحمر يصنع وجهها
بسحر عجيب ، فضمتها إلى وقبلتها ثلاث قبلات . فإني لأهم بالقبلة
الرابعة إذ انقطعت أغنية توتو فجأة وصدرت منه صرخة نشاز ،
فنظرت لكي أراه واقفاً يلوح بذراعيه إلى البحر ويصرخ .
وفي البحر كان شيء يتحرك ، نعم شيء يتحرك في البحر . فوثبت
زازا لترى ماذا هناك ، في حين أقعدتني عن الوقوف خيبة
أمل قاتلة .

— يا عالم ! يا هو ! هو أنا كل ماجى ابوسك يطلع لي
م البحر غريق ؟
فضحكت زازا ونكشت بيدها شعري ، ثم انطلقت تجري
إلى البحر .



الفصل السادس



منظراً غريباً حقاً، ذلك الذي رأيناه يقترب منا في ضوء الشمس الغاربة . رجل جالس — متربع — على ما يشبه خشبة كبيرة طافية ، والخشبة تنزلق على الماء وحدها بدون أن يبذل الرجل أى مجهود . فلما اقتربت منا أدركنا ما الذى يجرها ، عندما سمعنا صوت يد تضرب الماء ووقع بصيرنا على الرجل الذى يسبح خلف الخشبة ويدفعها إلى الأمام . فلما اقتربت أكثر سمعنا صوته وهو يلهث وينهج ويعتل كشيال يصعد السلم بحمل ثقيل .

— شد حيلك يا كرشة ! قال الرجل الجالس مستحثاً ، خلاص

فاضل خطوتين .

فلما صار الركب قبيل الشاطئ ، بخطوة أدلى الرجل الجالس ساقيه من فوق الخشبة ونزل فى الماء ، شامراً إلى أعلى ذيل جلبابه الأبيض القمضا ، ثم خرج إلى الشاطئ فترك الجلباب يتدلى ورفع يديه إلى السماء .

— الحمد لله رب العالمين ! الحمد لله رب العالمين ! ألف حمد وألف شكر لك يارب ، ألف حمد وألف شكر . الحمد لله رب العالمين !

رجل طويل عريض أبيض يناهز الأربعين ، فى وجهه مسحة من المهابة رغم زراية منظره العام فى الجلباب نصف المبتل . وبينما وقف يردد أدعيته كان الرجل الآخر قد خرج من الماء وتهالك على الأرض وهو يلهث ، وكان هو الآخر يلبس جلباباً من قماش رخيص مخطط . أصغر اللون قصير ، إلا أنه عريض الكتفين سميك الرقبة كأنها رقبة ثور . جبهته ضيقة مائلة إلى الوراء ، وصدغان عريضان وشفتان غليظتان ، وبلاهة عامة فى وجهه الأصغر الجلف . ثم كف الرجل الآخر عن الأدعية وصوب عينيه إلينا ، راح ينقل بيننا نظرات مستريية مع اختصاص لازا بنظرة أطول نوعاً .

— سلامو عليكم ، قال لنا بصوت غليظ تشوبه بحمة .

فرددنا السلام .

— حضراتكو من أهل البلد دى ؟

فشرحت له ما لا يعرف من أمر البلد ، كيف أنها جزيرة لا بلد ،
وكيف أننا كنا مثله في الباخرة التي غرقت . ثم عرفته بنفسى وعرفنى
بنفسه ، الحاج طلبة حسنين من ذوى الأملاك .

— وسيادته ؟ سألتى الحاج طلبة مشيراً إلى توتو .

— ده واحد غرقان زى حالاتنا ، أجبتة ، ما بيعرفش عربى
واسمه توتو .

— طوطو ؟ ! هتف المدعو كرشة ، إلا طوطو دى !

وكان صوته غليظاً قبيحاً ككل شئ فيه .

— يبنى ماهوش مسلم ؟ سألتى الحاج مواصلاً اهتمامه بتوتو .

— والله معرفش ، لغاية دلوقت ماشفتوش بيصلى !

فابتسمت زازا وسرنى أننى تسببت فى ابتسامتها .

— والهانم جماعتك ؟ سألتى الحاج .

سؤال مخرج كما ترى ولذلك تظاهرت بأننى لم أسمع .

— أفندم ؟ تساءلت .

— بأقول الهانم جماعتك ؟

— أ . . . أيوه ، أجبتة بعد لحظة تردد .

ونظرت إلى زازا فخيل إلى أننى رأيت فى عينيها نظرة اعتراض ،

والحقيقة أننى لا أدري لماذا قلت أيوه . ربما كان ذلك لأننى أردت
أن أعطيها مركزاً اجتماعياً يحميها من تطفل الأغراب ، وربما لأننى
وجدتها فرصة صالحة لاكتساب حق رسمى فى التبسط معها عندنا .
— طيب ياأخى موش تلبسها حاجة تسترها ؟ سألتى الحاج طلبة
فى لهجة لوم يشوبه ازدراء .

— والله كنت أحب ألبسها ، أجبتة ساخرا ، بس أصلنا نسينا
نجيب معانا دولاب الهدوم !

فزغر لى الحاج ثم وقف حيناً يفكر .

— كرشة ! قال أخيراً ، إقلم جلايبتك !

فالتفت الآخر إليه فى دهشة حيث جلس على الأرض .

— هه ؟ ؟ تساءل فى بلاهة .

— بأقول إقلم جلايبتك .

— جلايبتى ؟

— آه ، عشان الست تلبسها .

فتردد كرشة لحظة ثم نهض ليخلع الجلباب ، كشف عن صدر
طار غزير الشعر كصدر الغوريلا ، وعن كتل غليظة من العضلات
المكدسة على ذراعيه وكتفيه كانه ممن يشيلون الحديد . والحمد لله
أنه كان يلبس تحت الجلباب سروالاً طويلاً أسود ذكرنى بسر اويل
أهل الإسكندرية .

— أما الجلابية تنشف خلى الست تلبسها ، قال لى بلهجة الأمر وهو يناولنى الجلباب .

— أنا ألبس الجلابية دى ؟ ! صرخت زازا فى استنكار .

فلم يجبها الحاج إلا بنظرة قاسية أسكتتها .

— أيوه يا زازا ، قلت لها أنا بلهجة حزم زوجية ، موش احسن مانتي هريانة كده ؟

فزغرت لى ولم تقل شيئاً .

— مافيش هنا حاجة تتاكل ؟ تساءل كرشة لجأة .

فأشرت إلى شجرة التفاح ، قصد إليها بسرعة وهو يدب على الأرض وقد تدلت ذراعاه كالغوريلا .

أما الحاج طلبة فتربع على الأرض وشرع يخرج محتويات جيوبه . أخرج أول ما أخرج سبحة من الكهرمان وضعها بجانبه على الرمال ، فقلت فى نفسى هذا والله رجل ورع يستحق الاحترام . ثم أخرج شيئاً تبينت أنه دفتر صغير من نوع ما .

— كل حاجة اتبلت ، قال الحاج طلبة متأفقاً ، حتى دفتر الشيكات .

دفتر شيكات ؟ إنه إذن يستحق الاحترام جدا . ثم أخرج الشئ الثالث الذى عرفت منه أننى لن أستطيع أبدا أن أفيه حقه

الكامل من الاحترام . أخرج مسدساً كبيراً أسود فتحة وسحب منه مشط الرصاص ليفحصه ، ثم رد المشط إلى المسدس ورفع فوهته إلى أعلى . طراخ ارددت الجزيرة دوى الرصاصة التى أطلقها ، فشقت زازا فى ذعر وتوترت عضلات توتو الذى وقف يرقب المشهد فى صمت .

— الحمد لله ما خسرش م المية ، قال الحاج طلبة .

— إنت ديمًا شاييل مسدس فى جيبك يا حاج ؟ سألته بسخرية مستترة .

— شغلنا طيز كده ، أجباني باقتضاب ، ما تعرفش القبلة فين ؟ فأشرت إلى الشمس التى غاصت فى الماء عند الأفق ، وبمراجعة الجهات الأصلية عرفنا أين توجد القبلة . فانتظر الحاج حتى اختفى قرص الشمس ثم رد السبحة والدفتر والمسدس إلى جيبه ووقف ينوى الصلاة . طويل عريض مهيب فى جلبابه الأبيض ، فخور فى صلاته أكثر منه خاشعاً . أشرت إلى زازا وانتحينا جانباً ، وتبعنا توتو معتبراً نفسه من نفس الشلة .

— أنا قلت انك مراتى لأنى ...

— لأنك ساقل ! قاطعتنى بسرعة .

فشرحت لها فائدة الأمر فى حمايتها من هؤلاء الأغراب ، لكنها لم تقتنع .

— حد قال لك انى محتاجة لحماية ؟ وإذا كان ضرورى حماية ، ليه
ماقلتش إنى مرات توتو ؟ أنت أعنى ولا هو ؟
— هو أعنى لكن أنا لى لسان .
فسكتت منفعمة .

— والله لما يعمل إيه مانا لابسة الجلابية دى ! قالت بعد حين
فى عناد .

لكنها كانت تعرف أنها سوف تلبسها ، الحاج طلبه كما شعرت
زازا وشعرت معها قد قرر أن يفرض نفسه زعيما على جماعتنا
الصغيرة ، لسبب ما يشعر الرجل أن عنده من المسوغات ما يرشحه
بالبداهة لتلك الوظيفة .

— ما فيش حبة مية ؟ أنا نا صوت الحاج وقد انتهى من الصلاة .
فانتقلنا إلى حيث توجد عين المياه ، رفع الحاج الجرة إلى فمه
وراح يجمع منها ويمصص الماء بصوت غلب على ضجة كرشه الذى
ما برح يقرش التفاح .

— ناولنى تفاحة يا كرشه ، قال الحاج بعد أن شرب .
فأحضر له كرشه ثلاث تفاحات .

— أما طماح يا حاج ! لوظ والله ، لوظ !
وبينما الحاج يأكل نظر إلى الكوخ وبدأ أنه يفكر .
— العشة دى تساعنا كلنا ؟ سألتى بأمل .



— ياريت يا حاج ، أجبته بأسف ، دى يادوب سايمانى أنلو مرأتى .
فسكت الحاج منمحا .

— على كل حال الدنيا دقا ، قلت له مهونا .
فلم يجب .

— وبرضه تقدر تتبادلها ، أضفت ، احنا ليلة وانتو ليلة .
فلم يجب .

— الا طبعا اذا كنت تحب تاخذها لوحدك ! أضفت
ساخرا .

— ودى تيجى يا أستاذ ؟ أجابنى مستنكرا ، الست تنام برة
ونا ياراجل انام جوه ؟

فوجهت إلى زازا نظرة ذات معنى .

— الحاج يعرف انجليزى ؟ سأله فهز رأسه بالنفى .

— هرفتى فايدة الجواز ؟ قلت لزازا بالانجليزية .

فلم تعلق ورأيت كرشة يزغرى .

— النبى عربى يا أسطاز ! شخبط فى من بعيد .

فنظرت إليه بازدرء ولم أعلق . وأخرج الحاج سبحته وراح

يداعب حباتها متمتما ، وكرشة واصل التهام التفاح حتى بدأت أخاف

على المحصول . لكننى لم أقل له شيئا . ثور كهذا ليس من الحكمة

أن تقال له الأشياء .

— تزارزا ١ قال توتو لزارزا باصمًا .

— تظاظا ١٢ قلده كرشه مستهزئًا ، نكطة قوى الراجل ده !

وخيمت على الجزيرة عتمة المساء ، لم يخفف منها إلا قرص القمر الشاحب الذي برز عند الأفق الشرقي ، والذي ما برح شحوبه أن تحول إلى لون فضي جميل يرتعش على ماء البحر . فأدركت أن الساعة قد حانت ونهضت متثائبًا كمن كبس عليه النوم .

— يا لله بينا يزارزا ، قلت بالبساطة الزوجية للناسبة .

وسحبته من ذراعها فتددت لحظة ثم انقادت . جذبتها وقصدنا إلى الكوخ على مهل ، زوج وزوجته يتجهان إلى بيتهما ، ما الغرابة في ذلك ؟ لكن قلبي كان يدق كالطبل بين ضلوعي ، على إيقاعه المجنون ترقص في صدري فرحة وحشية معرودة . أرايت في حياتك رجالا يقتنص لنفسه هذه العروس الرائعة بتلك السهولة للمعجزة ؟



الفصل السابع



أنفرد بزارزا في الكوخ حتى أخليت سبيل الضحكة المكتومة في صدري ، رحت أضحك وأضرب بكفي على فخذي من شدة الطرب ، بصوت منخفض بالطبع كيلا يصل إلى مسمع الآخرين في الخارج .

— والله العظيم انك سافل ! قالت زازا بغیظ ، أسفل راجل صمري شفته !

لكن صوتها كان يدل على أنني لست سافلا إلى هذا الحد ، وعلى أن غضبها ليس أصيلا . ورأيتها تجلس على السرير الخشبي الواطيء ، وشعاع من القمر تسيل من كوة في أعلى العشة وألار وجهها . فذهبت وجلست بجانبها .

— إبعد عني ! قالت لي بيقية من الغیظ .

فابتعدت قائلاً لنفسی علی مهلك ، أمامنا الليلة كلها .

— والله لما يموت مانا لابسة الجلاية دى !
فشرحت لها مالا تعرف عن أهل الورع والتقوى ، كيف أنهم
لا يتذوقون الجمال بنفس الطريقة التى تتذوقه بها نحن . شعاع النور
الذى ينبعث من قيصها الوردى ويسحرنى ، لا يمكن لرجل مثل
الحاج طلبة أن يرى فيه سوى شعلة من نار جهنم ترتعدنى يد إبليس .
— انت عاوزة الراجل كل ما يبص لك يتنقض وضوءه ؟ !

فلم تحب زازا مباشرة ، كانت تفكر .
— دمه ثقيل ! قالت أخيراً فى تقزز .
وتفكرت لحظة أخرى ثم ابتسمت .
— ومع ذلك تعرف ان فيه حاجة جذابة كده ؟ !
— لا يا شيخه ! فقلت لها بغيظ ، ماتقولى لى بالمرّة ان كرشه راحر
فيه حاجة جذابة .
— طب وانت يعنى بتقول فيها ؟ قالت ضاحكة ، كل راجل
وفيه حاجة !

فتصعبت وهبت هى واقفة تتأفف .
— يا بابى ! السرير ده ناشف بشكل ادى الأرض أريج .
وكان هذا صحيحاً ، ولحسن الحظ كان الكوخ بلا أرضية
من خشب أو غيره ، مجرد جدران أقيمت حول مساحة من رمال
الجزيرة الناعمة .

— مافيش شك ان الأرض أريج ، قالت زازا وهى تجلس
على الأرض فى شعاع القمر .
فجلست بجانبها باسماً .

— تسمح تدير وشك للحبيطة وتنام ؟
— أدير وشى للحبيطة ليه يا أبلا ، أنا صلت حاجة ؟
فابتسمت زازا ، وعندما تبتسم زازا أحس كأن الشمس قد طلعت
بعد يوم مطير . أجل ابتسامة على أجل شفيتين بين أهل غمازتين ،
ونور الجنة يرقص فى عينيها .

— أحبك يا زازا ، قلت لها بصدق .
— حبك برص ! أجابت فى غضب مصطنع .
وتناولت يدها فلم تعترض ، رفعها إلى شفتى وقبلتها وقلت لها
أحبك من جديد . فى عينيها تراءت نظرة حنان ضمرتئى بسعادة
رهيبة ، فأدريت شفتى من وجهها ثم توقفت .

— خايف ابوسك يطلع لما البحر غريق تانى !
فضحكت زازا وقرصت خدى .
— ساعات يبقى دمك خفيف .
— ستات كثير قالوا لى كده ، أجبتها وهممت بالقبلة فأوقفتنى
طرقة مفاجئة على الباب .

— يا أستاذ أحمد ! أتأني صوت الحاج طلبه من الخارج ، افتح
يا أستاذ أحمد !

— الله يخرب بيتك ! قلت وأنا أغلى ، ده وقته يابن الكلب ؟
ووراء الباب وجدت الحاج طلبه وبجانبه كرشة .
— أي خدمة ؟ سألته ببرود .

— لا مؤاخذه يا أستاذ بس أصلى آه .. هاه .. هاتشي !
أبعدت وجهي عن طريق العطسة في اللحظة المناسبة .
— أصلى يظهر خدت برد من مية البحر ، قال الحاج .
— طب وانا اصمل إيه ؟ سألته بنفوس البرود .

— طعمل ايه يعني إيه ؟ بوا في كرشة ، تبيطه معاك في الضفا !
— أبيت مرأتى مع راجل غريب ؟ أجبته بغلظة .

فمطس الحاج ثانيا وثالثا ، وبين عطساته يعتذر لى عن هذا
الاقتحام الذى لم يكن يجب أن يبدر منه لولا الظروف اللعينة .
هو ضعيف الصدر — شرح لى — بسبب إصابته منذ شهور بالتهاب
رئوى حاد ، فلو لم يعتكف بهذا الزكام الطارىء لتعرض للموت بردا .
— إن شاء الله اللى يكرهك يارب ! قال كرشة وهو يحملق إلى
بمعينين جاحظتين .

وأشار الحاج إلى السرير الخشبي الواطىء قائلا إنه من الممكن

وضعه على جنبه ليقسم العشة إلى قسمين ، كما أنه من الممكن تعليق
جلباب كرشة فوقه ليكون بمثابة ستار بيننا .

— وعلى كل حال الأمر أمرك ، قل الحاج فى النهاية .
— الأمر أمره يعنى إيه ، جأر كرشة ، هو بيت أبوه ؟ بانيه
ولا شاريه ؟

— من فضلك بلاش قلة أدب ! قلت له بحدة .
— لا يا شيخ ! زأر كرشة وهو يقتحم الكوخ .
جبينه وضعه على جبيني وأنفه على أنفى وراح ينفخ بتهديداته
فى فى .

— انت فاهم نفسك إيه يا أستاذ ؟ ده الحاج طلبه اللى بيكلمك !
ده لولا ظلوقة كان رماك بره ونام مطر حاك . أما طجرمة صحيج !
— سيبه يا كرشة ، قال له الحاج طلبه .

— والله العظيم الواحد يوضبه ! قال كرشة وهو يبتعد عنى .
— زازا ، قلت لها بحزم ، يالله بينا من هنا .

وجذبتها وغادرنا العشة فجذبني الحاج طلبه من حمالة فانلتى .
— على فين يا أستاذ ؟

— نبات بره ، قلت له ببرود ، مالاش حته هنا .
— ودى تيجى يا أستاذ ؟ بقى معقول اطرده راجل ومراته
من بيتهم ؟ والله ما يمكن أبدا .

— أما تخف ان شاء الله نبقى بيتنا .

— والله ما يمكن أبدا ، يا سلام ؟ أنا اللي ابات بره وزى ما تيجي .

— لا ، احنا اللي حنابات بره ، يا الله يا زازا .

هو يجذبني وأنا أجذبه في مباراة في الكرم والمروءة ، وأخيراً
نفخ الحاج طلبة في استسلام .

— يا سلام يا أستاذ احمد ، لو كنتش عنيد كده !

وعطس من جديد ثم أخرج من جيبه دفتر الشيكات .

— مادام ح تباتوا بره ، قال لي وهو يفتح الدفتر ، أنا ح
أخذ العشة بالإيجار .

فظننت أنه يمزح لكنه كان جادا ، إذ فتش في جيبه حتى عثر
على قلم من الرصاص ، ثم تهيا لكتابة الشيك .

— عشرين جنيه في الشهر كويس ؟ سألتني .

— خليم ثلاثين ، أجبته متهمكاً .

— ثلاثين ازجبر في غيظ ، لا هو أنا بأجر فيللا مفروشة ؟
دي عشة فاضية كحيانة !

— ما تزعلش ، قلت ضاحكا ، هات اللي تجيبه .

فهم بالسكتابة ثم بدا عليه التردد .

— ومع ذلك موش ح ازعلك ، خليم ثلاثين ! أجرة

ما شحططتك م البيت .

وشرع يكتب الشيك .

— هو على بنك إيه ؟ سألته .

— الأهل .

فالتفت إلى زازا .

— هو البنك الأهلي فاتح فرع هنا يا زازا ؟

فضحكت زازا لكن الحاج لم يضحك .

— هو احنا ح نقعد هنا على طول يا أستاذ ؟ قال لي في غيظ ،

ضروري ح تفوت مرا كب وناخدنا .

وناولني الشيك .

— ويمكن تيجي مركب بعد يوم ولا اتنين ، أضاف بلهجة

مازحة ، تبقى خدت إيجار شهر على يومين . حلال عليك يا عم ،
تصبحوا على خير .

ودخل فأغلق الباب عليه .

— آل يبيطوا الحاج بره ! برطم كرشة وهو يحرقني بنظراته .

فسحبت زازا وابتمدنا ، قصدنا إلى جذع الشجرة وجلسنا

وراءه ننظر إلى البحر الذي يلمع في ضوء القمر . لكنني لم أجد

في نفسي أية ذرة من الشاعرية ، كرهت كلا من البحر والقمر .

ونجأة سمعت زازا تضحك .

— فيه إيه يضحك ؟ سألتها في غيظ .

— إنت ! أجابتنى وسط ضحكها ، لو كان كرشة مسكك كان

فعضك فعض !

فسكت في غيظ بينما أنهت هي ضحكها
— وريى الشيك كده ؟
فناولتها إياه .

— ده ع البنك الأهلئ صحيح .
— هه ! نفخت ساخرا ، وايش عرفنا ان له رصيد ؟
— إنت وبخنتك بقى .

وطوت اشيك ودسته في صدر قانلى ، وأنا أواصل صمعى
الكثيب .

— يا أخى فرفش بقى ! قالت زازا بعد حين ، ولا اقوم ادور
على توتو ؟

فرايت أن أفرفش ، ماذا تجدى الكآبة وما حدث قد حدث ؟
فابتسمت لأستدرج الفرفشة ، ومددت ذراعا أحطت به كتف زازا
وطبعت قبلة على خدها . فإنى لموشك على أن أطبع الثانية إذ أتانى
صوت كرشة الغليظ .

— عيب كده يا اسطاز ! قال كرشة الذى برز فجأة من وراء
الجذع ، انت موش لوحدهك .

وأماى وقف نافشا عضلاته الغليظة وسط غابة من شعر الغوريلا .
— إنت قدامك رجالة يا اسطاز !

في تحد سافر راح يحملق في وجهى ، ويتمنى أن أرد على تحرشه
فتكون فرصته للفتك بى . مكتوب على ألا ألتقى في هذه الجزيرة
اللعينة إلا بالعمالقة والفتوات .

— إنت جاى تقف جنبنا وتقول لى عيب ؟ سألته بلهجة أردتها
أن تكون لهجة غضب فطلعت لهجة عتاب .
— أنا حر اقعد مطرح ما يعجبني .

وكنت أعرف أنه حر حقاً ، عضلات الحرية تصرخ في كل سننى
من جسمه .

— قولى بينا يازازا ، قلت لها وأنا أنهض .
نهضنا وقصدنا إلى شجرة التفاح فجلسنا تحتها ، ماهى إلا لحظة
حتى رأينا كرشة يأتى ويجلس بالقرب منا . في حقد بالغ نظرت
إليه ، وفي استخفاف مبهين رد نظرتى بعينين تهذلت عليهما جفونه
الغليظة المنفرة .

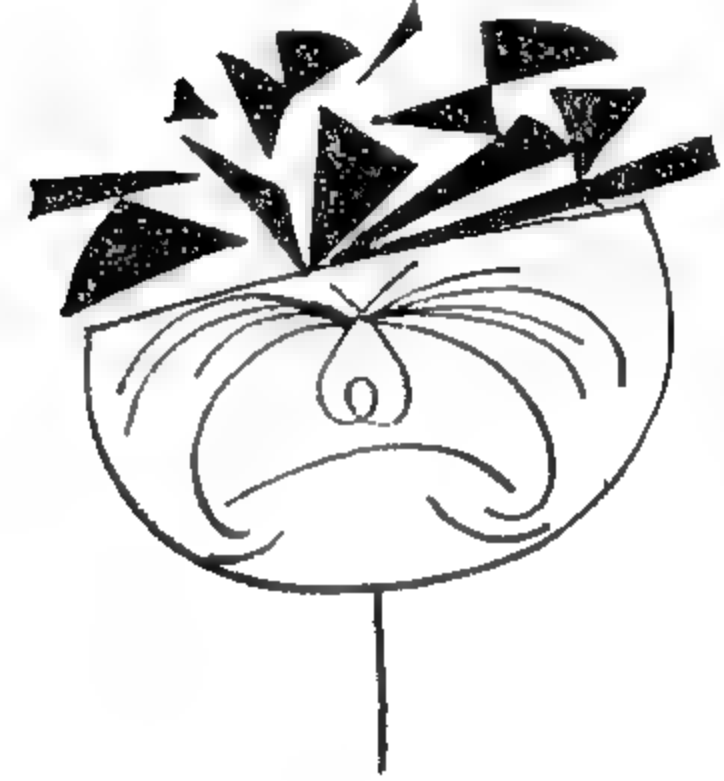
— أما والله ! قالت زازا وهى تفلت ضحكة .
وفي تلك اللحظة ظهر توتو ، أقبل فجلس أمامنا صامتا .
كرشة نظر إليه فى كراهية ولم يقل شيئاً ، أحد منا لم يقل شيئاً .
ثم تنخم كرشة وبصق واستلقى على جنبه متهيئاً للنوم ، ماهى إلا دقيقة
حتى رددت شخير القبيح أرجاء الجزيرة .

— تزانزا قالت توتو وهو يتسم .

فأجابته زازا بابتسامة ، ورحت أنا أثقل بصرى بين الاثنين

لحظة ثم نهضت في صمت .

— على فين ؟ سألتني زازا بنبرة استهزاء .



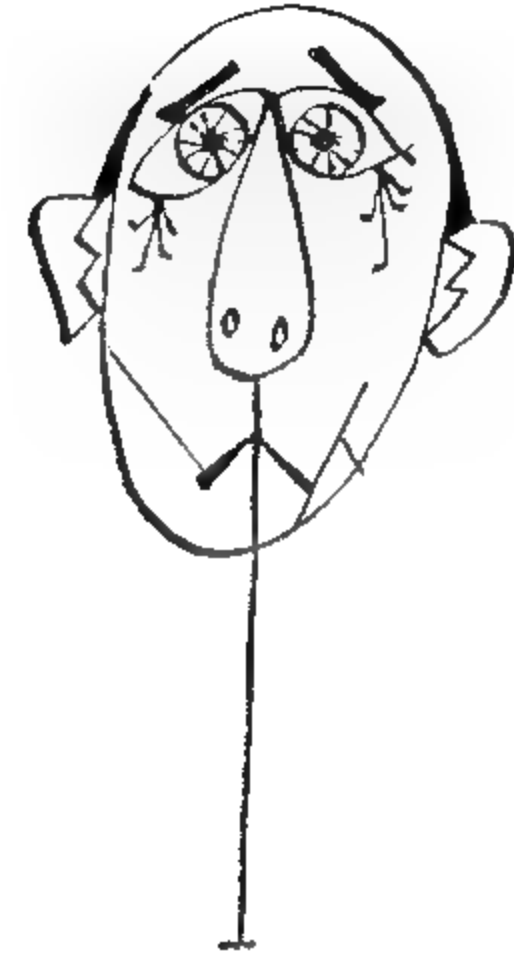
فلم أجبها . كنت أشعر بالمهانة وأريد أن أخلو لنفسي . قصدت إلى ما وراء الكوخ حيث توجد العظام ، جلست بالقرب منها ألوك أحزاني . أماى ترقد الجمجمة صامتة صابرة خالدة ، في ضوء القمر تصوب إلى ابتسامة لا أدري لماذا خيل إلى أنها ساخرة .

الفصل الثامن



شدة همى وغمى لم أحاول عندما كبس النوم على أن أبتعد عن العظام بل نمت بينها ، وصحوت بعد حين فوجدتني أضع يدي على الجمجمة في حنان ، كأني مرسوم في صورة سيرالية . لكن لماذا صحوت بهذه السرعة ؟ يخيل إلى أن هناك ضجة غريبة أيقظتني . نعم هناك ضجة بالقرب مني ، صوت أنفاس مضطربة وزججرة وحشية وتلاطم أجسام عارية فيما يشبه المعركة . فنهضت على عجل ودرت حول الكوخ لكي أكتشف أنها معركة فعلا ، بين توتو والثور الآخر كرشة . كان الأخير حين وصلت مطوقا خصر توتو بذراعى أخطبوط كأنه يريد أن يعصره ، في حين كان توتو مطبقاً بيديه على عنق كرشة لكي يخنقه . فلما أدرك كرشة أنه سيخنق ترك

خصر توتو ورفع يده إلى وجهه لكي يدخل إصبعاً في كل من
عينيه . فأخلى توتو سبيل عنق كرشه وأمسك بشعره ليشده منه
إلى الوراء ، وفي الوقت نفسه صوب إلى بطنه لكمة عنيفة لوأصابت



جبلًا لهدته ، فأنثى كرشه نصفين من الألم . لكنه لم يسقط ،
بل هجم برأسه على توتو فنطحه في بطنه نطحة جعلته هوينثي
نصفين ، ثم طارت قبضة كرشه إلى وجه توتو بلسكة سفلية علوية
ألقت به على الأرض . فإنه ليهم بالانقضاء عليه إذ طارت ساق
توتو إلى وجه كرشه برفصة ولا رفصة البغل ألقتة هو الآخر

على الأرض . وهناك التحم الاثنان وراحا يتمرغان على الرمال ،
فم كل منهما ملتصق بكتف الآخر بما فهمت منه أنه يعضه .
لم أكن قد انتبهت إلى أن هناك متفرجا آخر على المباراة هو
زازا ، إذ وقفت عن قرب وهي تعض إصبعها وترتعد . فقصدت
إليها لأطمئنها .

- يظهر أنهم بيتخانقوا ، قلت لها باسمًا .
- بيتخانقوا ؟ صاحت زازا في فزع ، دول ح يموتوا بعضا
- محتمل ، وافقتها ، وأرجو أن القليل يكون كرشه .
- وانت واقف كده ليه ؟ موش تروح تفض الخناقة ؟
- أنا ؟ هتنت في ذمرك .
- إمال أنا ؟
- يابنتي صلى ع النبي ، دنا خايف اتعورم الفرجة !
- طيب روح ساعد توتو .
- موش شايف انه محتاج لأي مساعدة .
- بقي بدمتك انت راجل ؟
- أنا طول عمري عندي مبدأ ، أخبرتها ، إني أحتفظ
برجولتي لحاجات أنفع من الخناق !
- فسكتت وهي ترمقني في ازدراء ، وعدنا نتفرج على المباراة .

كان الرجلان قد وقفا من جديد وعادا إلى الوضع الأول ، كل منهما
يمسك برقبة الآخر محاولاً أن يخنقه . وفي تلك اللحظة سمعت صرير
باب الكوخ ، وبرز الحاج وهو يدعك عينيه من أثر النوم . راح
يبرش حيناً نحو المتعاركين ، فلما اكتشف حقيقة الموقف أخرج
المسدس من جيبه وقصد إليهما بسرعة . دار بالمسدس حتى صار
وراء توتو ثم رفعه وأهوى به على رأسه بضربة شديدة ، فسرطان
مارأيت توتو يترنح ويسقط على الأرض . فلم يرجعه كرشة ،
بل انقض عليه وركب فوقه مطبقاً يديه على رقبتة لكي يكبل عليه .
— سيبيه يا كرشة ! صرخ الحاج .

لكنه لم يتركه ، فأسرع الحاج إليه وشده من شعره .

— إنت مجنون ؟ عاوز تعمل لنا جناية ؟

فنهض كرشة وراح يتفحص الأرض حوله وهو يلهث كالثور
المجنون ، ثم انحنى والتقط شيئاً تبين أن خنجر توتو الذي لا بد
أنه حاول استعماله في بداية المعركة وفشل .

— وديني أفتح كرشه ! زار كرشة وهو يلوح بالخنجر فوق
بطن توتو .

— هات الخنجر ده ! أمره الحاج ، هات باقول لك .

فناوله كرشة الخنجر ، وكانت عينه واردة من أثر رفعة توتو،

ووجهه كله — مثل وجه توتو — قد أصبح شوارع .

— إيه الحكاية ؟ سأله الحاج مستفسراً .

— كله م المقطف ده ! قال كرشة وهو يشير ناحيتي .

نظرت خلفي أتلس شخصاً آخر يقف هناك لكنني لم أجد
أحدًا ، ليس في هذه الجهة أى مقطف آخر . وشرع كرشة يحكي
الحكاية ، كيف أنه صحا من النوم ليأكل تفاحة ويشرب ماء ،
فإنه ليسير إذ لمح أبشع منظر يمكن أن يراه إنسان ، منظر توتو
وهو يضم زازا إلى صدره ويقبلها في ضوء القمر .

— وصيادته نايم زى البرش ! أضاف مشيراً إلى من جديد .

هو نايم والثاني ناظر فيها بوضوح !

فراح الحاج طلبة ينقل النظر بين زازا وبينى .

— صحيح الكلام ده يا هانم ؟ سأها أخيراً .

فتنمرت زازا .

— صحيح ولا موش صحيح انت مالك ؟ صرخت في وجهه .

— بنى كده ؟

— آه كده .

— وإيه رأى سيادتكم ؟ قال ملتفتاً إلى .

عند ذلك أدركت أنني يجب أن أصحح الوضع وأرد الأمور

إلى نصابها . الكرامة .

— بقى صلى ع النبي يا حاج ، قلت له ، أنا كذبت عليك لما
قلت إن زازا مرأتى . أنا لا جوزها ولا هى مرأتى ، آه .

فانفغر فم الحاج وجحظت عيناه .

— لا انت جوزها ولا هى مراتك ؟ سألتنى بدهشة بالغة .
— آه .

— وواخذها جوه تبات معاها ليه ؟ سألتنى فى ذهول .

— ما تدقش ، أجبتة ببساطة .

فواصل الحاج حملته إلى .

— تبنى ندل ! قال لى لجأه .

— لا يا حاج ، ما تطولش لسانك .

— لا يا شيخ ! تستغفلنى وتستكردننى وتقول لى ما تطولش

لسانك ؟ إنت فاكرنا إيه يا أستاذ ... قوادين ولا إيه ؟

فلم أجب .

— أنا طارف انها كانت باردة منى ، قلت معترفاً ، إنما الحكاية

انتهت . من هنا ورايح زازا حرة فى نفسها ، تتصرف على كيفها .

فسكت الحاج مفكراً .

— إنتى يابت ! صرخ فى زازا لجأه .

— بت فى عينك ! صرخت هى فيه .

فراح بمحلق إليها بعين تطلق شرراً ، ولجأه رفع يده وأهوى على
وجهها بقلم شديد .

— لمى لسانك يا ... ! جأر الحاج فى وجهها .

واضعة يدها مكان الصفعة رأيت الدموع تترقرق فى عينيها ،
ذقتها ترتعد كطفل صغير يبكى .

— أما ممتاجة صحیح اهتمت أنا فى حنق ، تمد إيدك على واحدة
ست ؟ هى مراتك ؟ تقرب لك إيه عشان ...

ولم أكل كلامى بسبب أتى وجدتنى لجأه جالسا على الأرض ،
على أثر لبكة شديدة فى صدرى من قبضة كرشه .

— مانطولش لسانك على الحاج يالوح !

ورفع قدمه يهدد برفصى فسكت وأبصرت زازا تجرى
نحو الكوخ وهى تبكى ، دخلت وشفقت الباب وراها . وواصل
الحاج الفاضب صياحه بصوته الذى زاد الغضب من بحته .

— ودينى وأيمانى إن شفت واحد منكوهوب عليها مافى
غير دهه !

ولوح بالمسدس أمام وجهى ، ومشيأ به إلى توتوالذى مازال نائماً .

— ودينى لأرييكو يا ولاد الكلب ! أضاف الحاج وهو يولبنى
ظهره ويبتعد .

لكنه توقف وقد ذكر شيئاً .

— هات منه الشيك ! صاح الحاج يكلم كرشة .

وقبل أن يصل كرشة كنت قد أخرجت للذكور من مبي .

— هاط جطك البلا ! قال كرشة وهو ينتش الشيك من يدي .

وقصد به إلى الحاج الذي مزقه وثره على الأرض ، ثم ابتعد ووراه كلبه كرشة . والتفت لأرى توتو وقد بدأ ينتبه ، استوى جالسا وراح يهز رأسه ليفيق ، ثم رفع يده يتحسس ما في وجهه من جراح .

— كان ضروري م البوس الليلة دي ياسى زفت ؟ اقلت له بغيظ .

فلم يتسهم توتو ، لأول مرة واجهني بوجه عابس . ثم نهض في صمت واتجه إلى البحر ، انحنى ليغرف الماء براحتيه ويغسل به وجهه . قبيل الغروب رأيته يفعل ذلك ، قبل أن يجلس لينشد أغنيته الغامضة الجميلة . راحت عليك ياتوتو ، يا أيها التمثال البرونزي الجميل . ويبدو أنها راحت هلي أنا الآخر وعلى زازا .

فنهضت وجلست وراء الكوخ بين العظام ، تبادلنا نظرة طويلة مع الجمجمة التي تأكدت أن ابتسامتها كانت ساخرة .

الفصل التاسع



في الصباح جائعاً فقصدت إلى شجرة التفاح ، وجدت الحاج متربعاً تحتها والسبعة في يده ، دفتر الشيكات منشور بجانبه في الشمس لكي يجف . باب الكوخ مقفل على زازا التي يبدو أنها خاضعتنا ، وكرشة يتسكع في آخر الجزيرة عند البحر ، وتوتو غير ظاهر ، لا بد أنه في مكانه المختار وراء جذع الشجرة . مررت بالحاج متجاهلاً إياه ، ومددت يدي إلى الشجرة لأقطف التفاحة . بالرغم من كل ما التهمه كرشة من التفاح مازالت الشجرة محملة بتفاح جديد بين أحمر وأخضر .
— صباح الخير ، قال لي الحاج فجأة .
فتظاهرت بأنني لم أسمع .

- والسماك وجه منين ؟
- م البحر .
- ما أنا فاهم انه م البحر ، قال محاولا كتمان غيظه ، لكن مين اللى اصطاده ؟
- قوتو .
- فسكت الحاج لحظة مفكرا .
- اصطاده باويه ؟
- بالخنجر بتاعه .



- فتفكر الحاج لحظة أخرى .
- كرشة ! صاح مناديا ، كرشة !

- صباح الخير يا أستاذ ! قال ملحا .
- صباح الفل ياسيدى ، أجبتة بتريقة .
- وهممت بأن أبتعد بالتفاحة فنادانى .
- يا أستاذ ! تسمح بكلمة ؟
- أفندم ؟؟ سألته ببرود .
- فابتسم الحاج .
- أنا طارف انك زعلان منى لكن حقك على ياسيدى .
- فلم أجب ، اكتفيت بأن نظرت إليه فى كبرياء .
- إنت غلطت ف حتى ، أضاف ، وأنا غلطت ف حقك والمساح كريم .
- وشرح لى كيف أنه كان مضطرب الأعصاب بسبب حادث الفرق ، وكيف أنه لا يصدق حتى هذه اللحظة أنه قد كتبت له النجاة ، بالإضافة إلى أنني قد ضاعفت من اضطراب أعصابه بالفصل الذى صملته فيه أنا وزازا ، إلى آخر هذا النوع من الكلام .
- خلاص ياسيدى ، قلت له لأريحه ، اللى فات مات .
- وهممت بأن أبتعد فاستوقفتنى .
- إلا بحق يا أستاذ ، هو شوك السمك ده جه منين ؟
- فابتسمت فى سخرية .
- من السمك اللى كلناه امبارح .

فالتفت كرشة نحونا ورأى إشارة الحاج فأقبل مسرعاً ، غوريا
شنيعة المنظر تدب على الرمال نحونا .

— ما تنزل يا كرشة تصطاد لنا سمكتين ؟

— سمكتين ؟ واصطادهم بإيه ؟

— بالخنجر ده .

وأخرج الخنجر من جيبه .

— خنجر ؟ هو الخنجر يصطاد سمك ؟

— آه . الراجل ده بيصطاد بيه ، إنت اقل منه ؟

— عمرى ما سمعت إن الصمك ينصاذ بخنجر !

— روح جرب .

— أروح ، قال وهو يهز كتفيه فى غباء .

وتناول كرشة الخنجر واتجه إلى البحر . وصير باب الكوخ
وبرزت زازا بقميصها الوردى ، وقع بصرها علينا فانقلب وجهها ،
وراح الحاج طلبة يتفحصها بنظرة غاضبة .

— ما لبستيش الجلاية ليه ؟ سأها الحاج بمحدة .

فلم تجبه زازا ، نظرت إليه فى ازدراء من فوق لتحت .

— ما تردى على !

فأصرت على الصمت والازدراء .

— أنا لسه متوضى ! صرخ الحاج ، مايزه تدنك عريانة خليكى
جوه العشة .

فراحت تزغر له حيناً ثم بصقت ودخلت صافقة الباب خلفها .
وأسرعت أصابع الحاج التى تداعب حبات السبحة ، واشتغلت
شفتاه بالدمدمة . كانت لحيته قد تضاعف طولها ، فرفعت يدي
إلى لحيتي التى حدث لها الشيء نفسه .

— ما حسستش على دقنك النهارده يا حاج ؟ قلت له .

فرفع يده إلى لحيته وسرعان ما بدت عليه دهشة يمازجها الخوف .

— وبصيت لضوافرك ؟

فرفع أظافره يتأملها بعين تضاعف ما فيها من الحيرة والخوف ،
فسرني المنظر حتى ضحككت .

— بتضحك ليه ؟ سألنى .

— لا ولا حاجة .

— ليه صحيح ؟ سألنى بضعف ، انت مخي على حاجة ؟

— لا ، بس حبيت أديلك فكرة عن الجزيرة دى !

وخطر لى أن أحكى له عن التفاح لكننى أمسكت ، حسبته اليوم
هذه الجرعة من المعلومات . وكان الخوف مازال مرتسماً فى عينيه
اللتين راح يحيلهما حوله وهو يتشمم الهواء .

— يمكن الجو هنا فيه حاجة بظالة ؟ سألتني في ارتباك .

— الله أعلم .

فصمت وزادت سرعة كل من أصابعه وشفتيه ، يستعيد بالخالق من شر ما خلق .

— مافيش فايضة ، قال كرشة وقد وصل فجأة ، ولا صمكة راضية تنصاد .

فصوب الحاج إليه نظرة ازدراء .

— ما انت طول عمرك حمار ! قال بغیظ .

— يا حاج طلبه هو إيه .. حد صمغ إن الصمك ينصاد بخنجر ؟

— واشمغني هو صاده ؟

— اكمنه ابن .. ! قال كرشة شارحاً .

فسكت الحاج على مضض ، ودقيقة من التفكير ثم التفت إلى بابتسامة سخيفة .

— ماتحلي أخينا ده يصطاد لنا سمكتين ؟ قال برقة غير لائقة عليه .

— حلوة دي ! أجبتة ساخرا ، امبارح ترفعوه حلقة والنهارده طازينه يصطاد لكو سمك ؟

فالتفت في عينه نظرة غيظ لكنه كبجها .

— كله يمكن يرضى ، قال مغرباً ، نراضيه بقرشين .

— إنت معاك فلوس يا حاج ؟

— أكتب له شيك .

— والله معرفش إذا كان توتو يفهم في الشيكات ولا لا .

— وشيك عشان إيه ؟ جأر كرشة معترضاً ، هو موش

ح يطفح معانا ؟

— أيوه لكن ح يشتغل ، قال الحاج بلهجة إباء ، وما دام

ح يشتغل لازم ياخذ أجرته .

ثم التفت إلى بطرف زائد .

— قوم كلمه والذبي يامى أحمد !

سى أحمد ! وبالأمس - قبل أن يجوع الوغد - كنت ندلا

وابن كلب ! وتناول الحاج دفتر الشيكات وبدأ يكتب .

— عشرة جنيه كويسين ؟ سألتني .

— عشرة جنيه ! قال كرشة محتجاً ، دول يجيبو طرناطة صمك .

فتفكر الحاج لحظة .

— طب والله لادى له عشرة ، قال بلهجة سخاء .

وكتب الشيك وناول له لي فنهضت قاصداً به إلى توتو ، أنا الآخر

جمت واشتهيت السمك .

— تاخده و تصطاد لنا سمكتين ؟

فرفع إلى نظرة بلهاء من حيث جلس مستنداً إلى جذع الشجرة ،
وأحسست أنا الآخر أن سؤالى بالغ السخافة .

— ماوزين ناكل يابنى ، قلت له مناشداً ، جمعنا .

وأشرت إلى البحر وإلى ثنى وإلى بطنى الخاوية ، فلم يزد الوغد
عن أن هز رأسه وابتسم . أدركت بعد حين أننى أنفخ في قربة مقطوعة .

— أما ابن كلب صحيح ! قال الحاج فى غيظ حين عرف
نتيجة مسعاه .

ثم التفت إلى بنظرة يمزج فيها الرجاء بالخجل .

— ماتكم اسمها إيه ، قال مشيراً برأسه نحو الكوخ .
— زازا ؟

— آه ، يمكن تقدر تقنعه !

فواجهته بابتسامة صفراء ، صفراء إلى الدرجة التى جعلته
يغض النظر .

— بقى بعد ماضيتها امبارح ، قلت له ساخراً ، هايزها النهارده
تتوسط لك ؟

— وهى موش ح تاكل معانا ؟ سألتى فى غيظ ، وهو انا
ح اشغلها ببلاش ؟ هى رخره ح ادفع لها قرشين .

فأدركت أنها فرصة لكى أرى مشهداً لطيفاً .

— زازا ! صحت منادياً ، زازا !

فلم يفتح باب الكوخ .

— زازا ! أعدت النداء ، تعالى هايزينك فى كلمة .

فانفتح الباب عن زازا ، واضعة يدها على خصرها تنظر إلينا
متحدية .

— ممكن تيجى لحظة ؟ صحت أكلها ، الحاج هايز منك حاجة .

فوقفت حيناً ترمقنا فى ازدراء ، ثم بدأت تتقدم منا متقصعة

ويدها ما برحت على خصرها . ثمرة متحفزة تقترب منا ، روح

التحدى تقناثر من كل هزة فى كل جزء من جسمها تحت القميص

الوردى . الحاج ثبت بصره عليها لحظة ثم أشاح عنها بوجه مكفهر .

— أفندم ؟ سألتنا فى برود حين وصلت .

— الحكاية وما فيها ، أخطرتها باقتضاب ، إنا جمعنا وهايزين

توتو يصطاد ممك .

— طب وانا مالى ؟ قالت أخيراً ، شأنى إيه أنا ؟

— أصلى كلت توتو فى حكاية الصيد مارضيش ، شرحت لها ،

والحاج طلبة شايف يعنى ان لكى دالة عليه ، فيقول يعنى لو أمكن

يعنى تروحي له اتنى وتحاولي تقنعيه .

— بقى كده ؟ نطقت آخر الأمر بلهجة تقطر سماً ، مى الحاج
 جاع وعازنى ا كلم له توتو ؟
 وسكتت لحظة ثم استرسلت .
 — واشمعى انا اللى اروح اقنعه ؟ ماتعرفش تقنعه انت
 ياسى الحاج ؟
 فاحمر وجه المذكور حيث جلس يتشاغل بالتسبيح .
 — هو انتى ح تقنعيه ببلاش ؟ صرخ فيها فجأة ، ح اكتب
 لك شيك ! انتى شيك وهو شيك ، الله !
 — خلى شيكاتك لروحك يادلمدى ، أجابته وهى تخلم أمامه
 رقبة السخرية ، مابنا كلش م الكلام ده ياسى الحاج !
 وبمنظرة ازدراء أخيرة أولتنا ظهرها وعادت إلى الكوخ ،
 وقفت عند الباب ترمينا بنظراتها .
 — آل اقنعه آل ، ههىء !
 ضحكة خليعة ثم دخلت وصفت الباب .
 — أما بنط ... صحيح ! قال كرشة وهو يضرب كفاً بكف .
 أما الحاج فلم يقل شيئاً ، وكلام كثير كان يمكن أن أوجه
 إليه على سبيل الشتمة لكننى أمسكت .
 — تسمح لى بالخنجر لحظة يا حاج ؟ سألت المذكور .

فتردد لحظة ثم ناوله لى .
 — إيه ؟ تساءل كرشة بفرح ، ح تصطاد لنا سمك ؟
 — لا ، أجبته ، ح احلق دقنى .
 وأعملت الخنجر فى الحيتى بالتهذيب ثم فى أظافرى بالتشذيب ،
 ح يبقى لا أكل ولا عياقه ؟
 — يا سلام يا صيدى ، الشياكة واخدة حدما قوى ! قال كرشة
 وبصق على الأرض .
 وقبل أن أرد الخنجر إلى الحاج طلبت رصمت على جذع شجرة
 التفاح علامتين ، بعدد اليومين اللذين مرا علينا فى هذه الجزيرة
 اللعينة . إذا كنت سابقى هنا حينما لجدير بى أن أعرف كم من
 الزمن بقيت .
 وارتفعت الشمس فى السماء وبدأ الجوع يقرصنا ، هل يستطيع
 أحد أن يعيش على التفاح وحده ؟
 زازا معتكفة فى العشة ، وتوتو مخنثىء وراء جذع الشجرة ،
 والحاج طلبت يصى الظهر . وكرشة نزل ثانية يحاول صيد السمك
 وعاد خائباً .
 — بس لو تصيبنى عليه يا حاج ! قال كرشة للحاج بعد أن صلى ،
 والله مافى غير قلمين اطينين وينزل يصطاد زى الكلب !

فلم يجب الحاج ، وصري باب الكوخ الذى خرجت منه زازا
جأة . على عجل مرت بنا دون أن تكلمنا ، مسحتنا وهى تمر بنظرة
ازدراء شاملة . فراقبناها وهى تبتعد نحو جذع الشجرة ، دارت
وراء واختفت .

— إياك تكون جاعت وراحت تقنعه ، قلت للحاج طلبة .

ومرت دقيقة قبل أن تبرز زازا من وراء جذع الشجرة .

— يظهر انه موش راضى يقتنع ، قلت معلقاً .

— ياما نفصى اشوفها بتقنعه ازاي ا قال كرشة .

لكن الحاج لم يتكلم ، منشغلاً بالتسبيح يزغر لجذع الشجرة .

ثم برزت زازا وهى تجذب توتو من يده .

— لا والله ، قلت بفرح ، يظهر عرفت تقنعه ا

لكن توتو لم ينجذب لزازا بل حدث العكس ، هو الذى

جذبها فاختفيا حيث كانا وراء جذع الشجرة . ثم رنت من زازا

ضحكة عالية ، وبرزت وهى تجري وتوتو وراءها . فلما حصلها

طوق بذراعه خصرها وراح يجذبها — وهى تقاومه ضاحكة —

حتى اختفيا وراء الجذع من جديد .

الحاج طلبة راقب المنظر — أعنى تخيله — بعينين جاحظتين وفم

مفتوح جدت التسبيح عليه . ومن وراء الجذع وصلتنا من زازا

صرخة ضاحكة نفرت لها عروق الحاج واحمرت عيناه .

— كرشة ا قال فجأة بصوت مختنق ، قوم له ا

فما كاد كرشة يسمع كلمته حتى وثب يجرى ككلب الصيد ،

وفى طريقه أخرج الخنجر من حزام سرواله .

— ده ح يقتله يا حاج ا قلت فى لهفة وأنا أنهض .

فلم يجب الحاج ونهض هو الآخر ، بتؤدة راح يسير نحو جذع

الشجرة فى حين انطلقت أنا أجرى . الحمد لله ، وجدت أن الجريمة

لم تقع — لم تقع بعد على الأقل . كان ذراع كرشة مرفوعاً إلى أعلى

وقد قبض توتو على معصم يده للمسكة بالخنجر . صراع العضلات

الرهيب بين الرجلين ، بين ذراع كرشة الذى يريد أن يهبط بالخنجر

إلى جسم توتو ، وقبضة توتو التى تحاول إبقاء الخنجر بعيداً .

لكن عضلات كرشة كانت أقوى ، أخذت يده للمسكة بالخنجر

تهبط شيئاً فشيئاً ، وذراع توتو يرتعد محاولاً إيقافها بلا فائدة .

— يا حاج حوشه ا هتفت فى فزع ، ده ح يقتله ا

— حوشه يا حاج ابوس إيدك ا صرخت زازا .

فلم يجب الحاج ، ا كتنى بأن أخرج المسدس من جيبه ووقف

يقرب المشهد ، وكان الخنجر قد لامس عنق توتو .

— يا حاج حوشه انا ف عرضك ا صرخت يائساً .

لكن الحاج لم يحرك ساكناً ، فأدركت أنني يجب أن أتصرف

بسرعة لإنقاذ توتو .

رفعت قبضتي وأهويت بها على يد الحاج بكل قوتي فإذا
بالمسدس يسقط منها على الأرض . فأنحنيت بسرعة البرق وخطفته ،
وثبت به نحو كرشة .

— سيب الخنجر ده ! صرخت فيه مهدداً ، ارميه حالا !

رأى كرشة للمسدس في يدي فبدت في عينيه دهشة يمازجها
بعض الخوف . فلما رآني أصوب المسدس إلى وجهه وأبدأ في الضغط
على الزناد صار خوفه رعباً واضحاً وترك الخنجر يهوى إلى الأرض ،
فالتقطته وأصبحت أنا سيد الموقف . فرح وحشي جرفني ، وإحساس
مخيف بالقوة والسلطان .

— ما حدث يقرب مني ! صرخت فيهم جميعاً ، ابعادوا عني !

يدى اليمنى تصوب المسدس واليسرى تشهر الخنجر ، تراجعت
خطوتين لكي أكون على مسافة مأمونة منهم .

— جرى إليه ياسى أحمد ؟ سألتى الحاج بلهجة عتاب ، هو
المسدس ده بتاعك ؟

— دلوقت بقى بتاعى ! صرخت فيه وأنا أتراجع خطوة أخرى .

— ياراجل ما تقولش كده ، قال بابتسامة صفراء ، ناولنى
المسدس ناول !

وبسط يده واقترب مني خطوة .

— خليك عندك ! . صرخت وأنا أبتعد خطوة .

لكنه ما برح يقترب مني .

— ياراجل اعقل ، قال لى بنفس الابتسامة ، بلاش صغرنة !

وتقدم خطوة أخرى شجعت كرشة فبدأ هو الآخر يتقدم .
الحاج طلبه باسط يده يبتسم وكرشة جاحظ العينين متدلى الفك ،
كلاهما يقتربان مني ببطء كأنهما لا يبصران السلاحين اللذين في يدي ،
أو كأنهما يعرفان أنني لن أستخدمهما .

— ابعادوا عني لا ضرب ! صرخت بصوت مبعوح .

لكن صوتي لم يعجبني ، وعرق بارد تصبب على جبيني ،
فيبدو أنني لن أستخدم أسلحتي فعلاً . رصاصة واحدة يمكنها
أن تودى واحداً منهما وترهب الآخر لكنني فيما يبدو لن أطلقها .
لم أطلق رصاصة واحدة في حياتي ، لم أقتل ذبابة فكيف أقتل الآن
إنساناً ؟ المسدس والخنجر في يدي وأنا الذى أتقهقر أمامهما ،
أمام الحاج الباسم والغوريلا اللاهثة . وكما يحدث لكثير من الناس
الذين يسرون إلى الوراء تعثرت قدمي في شيء ما على الأرض
فإذا بي أترنح وأسقط على ظهري . وفي غمضة عين شعرت بشيء
ثقيل يرغمي فوقى ، لم يكن صعباً أن أميز فيه جثة كرشة . بيده
اليسرى سحب المسدس من يدي ، وبيده اليمنى سحب الخنجر ،

ثم استوى جالساً على بطنى وهو يزغر لى صامتاً . لم أعرف سر صمته إلا بعد لحظة ، عندما غمرت وجهى البصقة التى كان يحوشها فى فيه .

— أفتح كرشة يا حاج ١٢ قال المذكور حيث جلس فوقى .

— لا سيبه ، قال الحاج باسماء ، ده راجل طيب !

فبدأ الأسف على وجه كرشة .

— والله نفصى أوضبه ، قال وهو ينهض غنى .

المسدس عاد إلى يد الحاج طالبة والخنجر عاد إلى يد كرشة ،

كلاهما بدأ يزحفان نحو توتو .

— انزل اصطاد يا بن الكلب ! قال الحاج لتوتو وهو يشير

إلى البحر ، ارمى له الخنجر ع الأرض يا كرشه !

فتردد كرشة لحظة ثم ألقى بالخنجر بالقرب من توتو .

— قولى له ينزل يصطاد ، قال الحاج لازا ، ودينى ان ما نزل

لا سيح دمه !

تناولت زازا الخنجر بسرعة وقدمته إلى توتو .

— انزل والنبي ياتوتو ، قالت له راجية وهى تطبطب على ظهره ،

عشان خاطرى ياتوتو !

فتناول توتو الخنجر ، تقبضت يده عليه كما تقبضت كافة

عضلاته ، فرفع الحاج المسدس وبدأ يضغط على الزناد .

— انزل ياتوتو ! صرخت زازا فى يأس ، أبوس إيدك انزل !
فظل توتو يحملق لحظة إلى فوهة المسدس وقد بدا عليه الخوف ،
وما لبث أن أولانا ظهره واتجه إلى البحر فى صمت .

— اقف اتفرج عليه عشان تتعلم منه ، قال طالبة لكرشة .

وانتهت أنا إلى أتى ما زلت جالساً على الأرض فنهضت وأنا أمسح
عن وجهى بصقة كرشة .

والثقت الحاج إلى ، رمانى بنظرة قاسية وهم بأن يقول
شيئاً ثم عدل . والمسدس وضعه فى جيبه وقصد إلى جذع الشجرة
فجلس بجانبه ليرقب الصيد .

أنا نظرت إلى زازا التى راحت تنقل بين الجميع نظرات حائرة .

— متأسف يا زازا ، قلت لها بالإنجليزية ، يظهر أنى مقدرش
اقتل أبداً .

فراحت ترمقنى بما خيل إلى أنه نظرة احتقار .

— على كل حال كتر خيرك انك أنقذت حياته ، قالت أخيراً .

— النبي عربى يا حضرات ! أخبرنا كرشة .

فسكتنا .

فى أقل من ساعة كان توتو قد صاد — بعددنا — خمس سمكات ،

ثم أعدد الوقود وأشعل النار وجلس يشويها حتى نضجت .

— شيل السمك ده يا كرشة ! قال الحاج ، وديه لى هناك
تحت الشجرة .

فحمل كرشة السمك وسط نظراتنا للندھشة واتجه به إلى شجرة
التفاح ، أما الحاج طلبة فأخرج دفتر الشيكات والقلم وكتب شيكا .

— السمك ده يادوبك على أدغدايا ، قال زازا ، ماوزين تا كلو
خلوه يصطاد تانى . وآدى شيك بخمسة جنيه اديه لى زفت ! آه ،
أنا احب آكل بفلوسى .

لم تمد زازا يدها نحو الشيك ، وقفت تحرق الحاج بنظرة
ازدراء . فألقى الحاج بالشيك على الأرض وانقلب نحو شجرة التفاح .

— شوف ابن الكلب ا قالت لى زازا ، شوف السافل !
فوجدتنى فجأة أضحك وأضرب كفا على كف ، ثم وجدت
أنه لا مناسبة للضحك فكففت .

— مكسوفة اقول لتوتو يصطاد تانى ، قالت زازا .

— والله لى حق ، أجبتها باستسلام .

— تزازا ! قال توتو فجأة وهو يتسم .

وبسرعة راح يجرى بالخنجر نحو البحر ، عاود الصيد من جديد .

الفصل العاشر



توتو ثلاث سمكات تشار كنافيه هو وزازا وأنا ، أكلت
سمكتى من فرط الجوع حتى ذيلها . والحاج طلبة كما فهمت
أكل فى الغداء سمكتين وأعطى كرشة واحدة ، واحتفظ باثنتين
للعشاء . زازا أكلت واعتكفت فى العشة ، وتوتو لاذ بمحله المختار
وراء جذع الشجرة ، أما أنا فذهبت لأنام حيث تنام الجمجمة . نمت
ومحوت عدة مرات ، فى كل صباح أضيف علامة جديدة على جذع
الشجرة ، صارت العلامات كلها سبع علامات . وبالخنجر أهدب
لحيتى أيضاً ، وأقص أظافرى التى تصر على أن تتحول فى اليوم
الواحد إلى مخالب . ثم ينتقل الخنجر إلى توتو الذى صار كل يوم
ينزل للصيد من نفسه ، جانب من السمك يأخذه الحاج وكرشة

في مقابل شيك ، والباقي أشارك فيه مع توتو وزازا . فإذا جلسنا مع زازا فعين الحاج طلبية دائماً علينا ، أو كرشة يحوم حولنا من بعيد ، لكي يستوثقنا من أنه لا يوجد في جزيرتنا حب . ونسيت أن أخبرك أن زازا قد اضطرت إلى ارتداء جلباب كرشة ، وذلك بعد مشاجرة بينها وبين الحاج كادت تنتهي كالمشاجرة السابقة بالضرب . قصرت ذيل الجلباب لكي يناسبها وحولت الكم الطويل إلى كم قصير ، والجزء الذي قصته من الذيل صنعت منه حزاماً ربطته حول خصرها . بالرغم من فكاهة منظرها لم تزل شبيهة فاتنة .

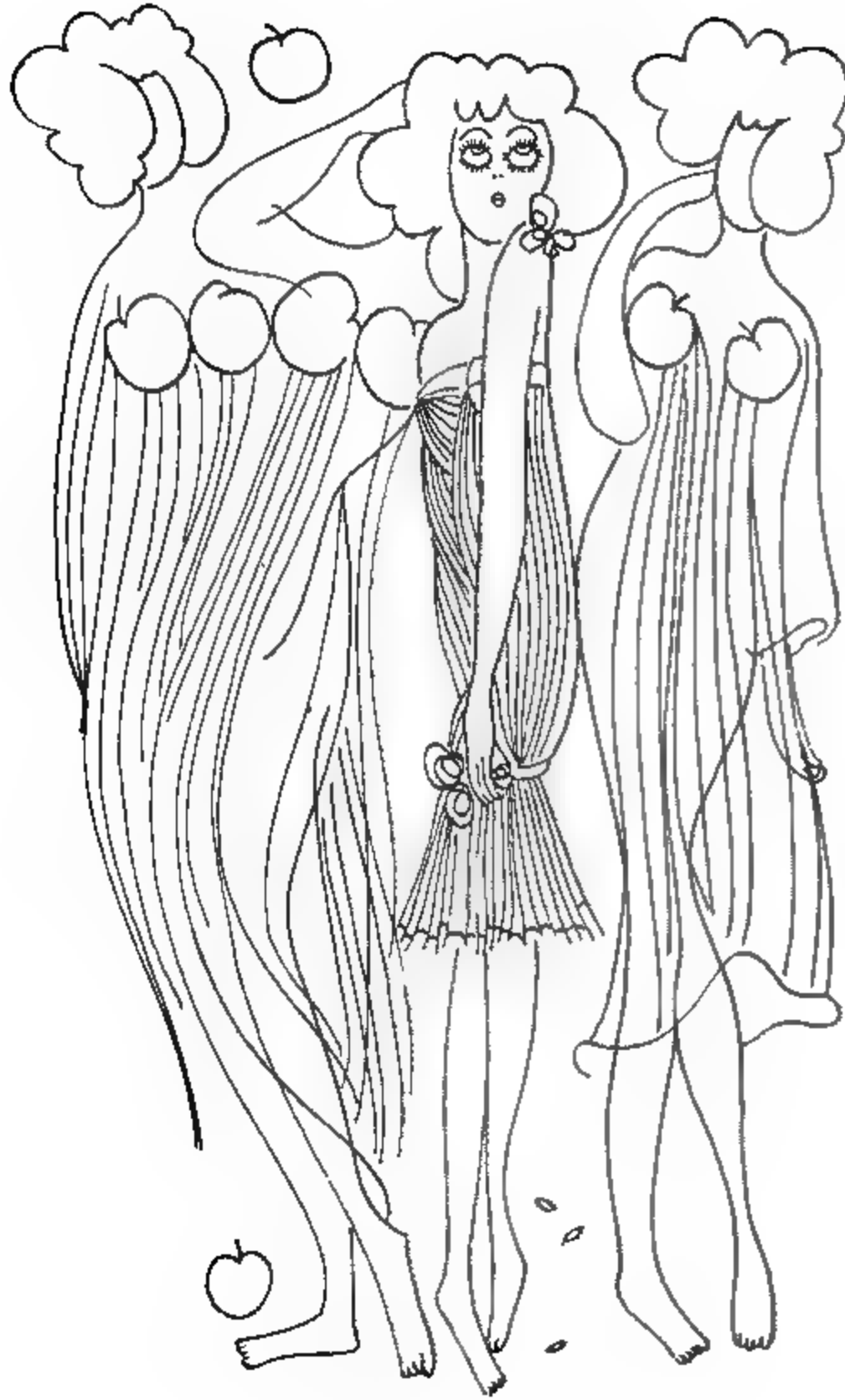
— والله عال يا كرشة ، قال المذكور متصعباً ، عشط وشفط جلابيطك فسطان !

ورفعت زازا ذراعها لكي تهersh تحت إبطها .

— والنبي الجلابية دي مامى خالصة ، قالت وهي تهersh بشدة ، ياريتنى جبت معايا دي دي تى !

وظللت مدة على خصام مع الحاج طلبية ، أتحاشاه ويتحاشانى ولا نتبادل حتى تحية الصباح . ثم بدأ هو بإعادة العلاقات .

— اللى مافى مركب واحدة فانت ، قال لى فى غيظ ، ولاجنس مركب توحد الله !



ورفع يده يتحسس لحيته المتدلّية ، إذ كان لا يهذبها كثيراً .
صرح بصره في أرجاء البحر يبحث عن سفينة ، البحر العريض
الصامت صمت القبور ، والأفق المستدير الذي يحاصرنا من كل
ناحية كطوق من حديد .

- إنك موش بتقول انك مهندس مراكب ؟ سألتني فجأة .
— أظن قلت حاجة زى كده ، أجبتة بجفاء .
فتجاهل جنائى وسكت لحظة يفكر .
— طب ماتبنى لنا مركب ؟ قال بتردد كأنه هو نفسه
يستسخر الاقتراح .
— بس كده ؟ أجبتة بتهمك ، بكره الصبح تكون المركب
جاهزة !
— أنا موش باهزر ، قال وهو يحاول كتمان غيظه ، أنا
باتكلم جد .
— طيب ممكن ولا مؤاخذه تدينى فكرة أبنيها بإيه ؟
فأشار إلى جذع الشجرة المقطوع .
— شوية هندسة ويبقى مركب ، أخبرنى .
رجل غويط - قلت فى نفسى - خطرت له نفس الفكرة التي
خطرت لى مرة وأنا أهذب لحيتى ، لكن أين الأدوات التي تحول
الجذع إلى مركب ؟

— فين عدة الشغل ؟ سألته .

— الخنجر والمنشار وشوية صبر !

تماماً كما خطر لي مرة وأنا أقص أغافري ، وغد ما كر .

— شوية صبر يا حاج ؟ سألته لائماً .

— طولة البال تهد الجبال ، واحنا اربع رجالة طول وعرض !

ثم ضيق عينيه ورمقني بنظرة خبيثة .

— تاخذ كام وتبنيها ؟ سألتني بلهجة كريهة .

فرايت أن أفكر قبل أن أجيب . هي فكرة لا تخلو من
الوجاهة لمن يريد أن يغادر الجزيرة ، ومن منا لا يريد مغادرتها —
على الأقل بعد وصول سيادة الحاج وكلبه كرشة ؟ فإذا تم تحويل
الجذع إلى زورق ونجحنا في الخروج به إلى البحر العريض ، أليس
من المحتمل أن نصل إلى أرض أهلة بالسكان ؟ وإذا نجحنا في ذلك
فلماذا لا أكون قد خرجت من هذه المحنة بمبلغ دسم ينفعني
في مستقبل حياتي ؟ إنني في جميع الحالات لن أفسر شيئاً .
فتنحنحت قبل أن أتكلم .

— ألف كويس يا حاج ؟ سألته ببساطة .

— ألف ! هنتف الحاج ، ألف إيه ؟

— ألف جنيه طبعاً ، قلت بهدوء .

— ألف جنيه ! زحجر الحاج ، هي نهية يا أستاذ ؟

فرشقت إيهامي في جمالة الفائلة .

— موش عاجبك شوف لك مهندس غيري ، أنا تسعيرتي كده ،

أجبتة بكبرياء وأنا أنصرف عنه .

وعلامة ثامنة وتاسعة رسمتها على جذع شجرة التفاح ، صارت

هناك عشر علامات . وزازا أقبلت لتقطف تفاحة ، ثم جلست

على الأرض تأكلها وقد شرد بصرها إلى البحر .

— احنا لازم نشوف لنا حل ، قالت أخيراً ، شوف لازم

يعني إيه ؟

— حل لإيه ؟ سألتها باسمها .

— للميشة الهباب دي !

— عندك فكرة ؟

— للصيبة ان ما عنديش ، إنت اللي عامل لي فيلسوف .

— تنفع بإيه الفلسفة قدام مسدس وخنجر وغوريلا ؟

— أنا عارفة ليه ما غرقوش ؟ كانت ساعة نحس يوم ماطلعوا !

أي والله ، كانت شفتاي على شفتيها ، وكان توتو ينشد أغنية

جميلة في ضوء الشفق الأحمر .

— جينا سيرة القط ! قالت زازا .

إذ أقبل الحاج طلبة علينا وراح ينقل بيننا نظرة فاحصة ليتأكد
من أننا لآنحب بعضنا ، ثم مد لي يده بورقة تبينت أنها شيك .

— خد ياسيدي ولا تزعل ، قال بسخاء ، أدى شيك بخمسيت
جنيه .

فنفخت ساخرا .

— يا حاج طلبة أنا موش بتاع فصال ، أفهمته ، أنا عمري ماخدت
مقاوله باقل من ألف جنيه .

فرمقني بغیظ يحاول أن يداريه بابتسامة صفراء .

— ياراجل ماتبقاش طماع ا هوات موش ح تركب معانا فيها؟
فرفعت يدي لأقلل الموضوع .

— أرجوك يا حاج ، ما تضيعش وقتك ووقتي .

وأوليته ظهري فجذبني من حمالة القائلة .

— طب خليه سبعمية ، قال مساوما .

— ألف يعنى ألف .

— طب تمنية .

— ٩٩٩ لا ، أجبتة بحزم .

فلأ صدره بالهواء ونفخ ، ثم مزق الشيك الذي في يده
وشرع يكتب شيكا آخر .

— ياساتر ، دنت صعب بشكل ! قال وهو يناولني الشيك
الجديد بالآلف .

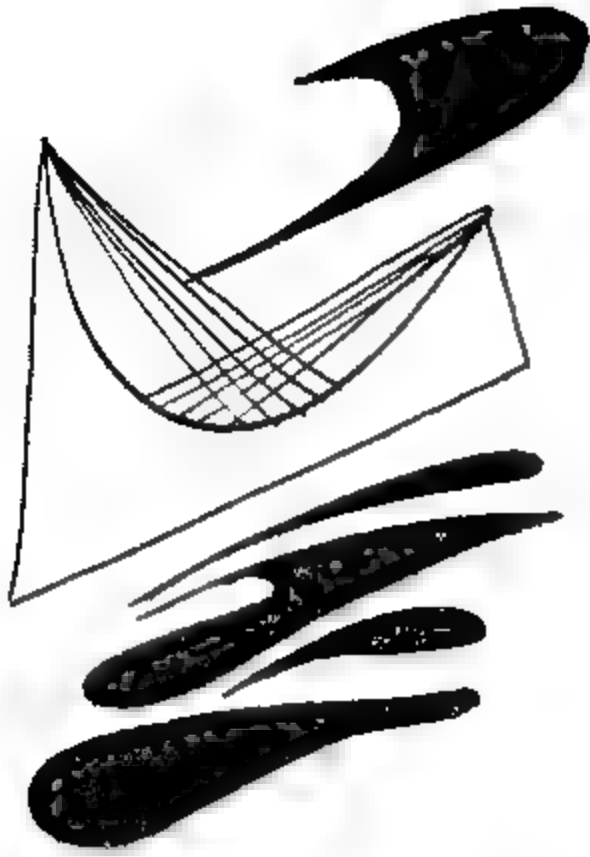
تناولته ببساطة لكي لا يكتشف فرحتي بهذا المبلغ الذي لم أقبضه
قط في حياتي ، طويته ودسسته في عبي . وكانت زازا تتابع حديثنا
بعينين واسعتين .

— ألف جنيه بتوع إيه ؟؟ تساءلت في دهشة ، إنت ح تعمل إيه؟
فرشقت إبهامي من جديد في حمالة القائلة .

— ح ابني مركب ، قلت لها ببساطة وأنا أتجه نحو جذع الشجرة
في خيلاء .

لكنني كنت أشعر أن فرحتي بالصفقة ليست خالصة ، وخزة
من الشك تفسدها على . فن أدراني — كما تساءلت مرة قبل ذلك —
أن شيكات الحاج طلبة لها صيد هناك ؟





الفصل الحادى عشر



يكن إغراء توتو بالعمل صعباً ، كان توتو دائماً يحب العمل . وكان سريع الفهم لما أكلفه به ، بعكس كرشة الذى كان لا يفهم الشئ إلا بعد أن يعاد عليه مرات . وأنا على أى حال لم أكلفهما بالكثير ، لاشئ غير الحك في ظهر الجذع بالخنجر والأداة الصخرية الأخرى ، تلك العملية التى نرجو أن تؤدي على مر الزمن إلى تفريغ الجذع من الداخل وتحويته إلى زورق .

— موش ترسم لهم علامات على الخشب ؟ سألتنى الحاج .
— لسه بدري ، أجبتة بإيجاز على .

لم أكن مجنوناً حتى أرسم لهم خطوط العملية الكاملة واكشف عن أوراق كلها مرة واحدة . أنا الآن مهم لأننى مسئول عن بناء المركب ، ولكى أحتفظ بهذه الأهمية يجب أن أقدم تعليماتى بالقطارة .

— اشمعنى سى طوطو يشتغل بالخنجر وأنا بالهبابة دى ؟ تساءل كرشة .

فجعلتهما يتناوبان استخدام الخنجر .

— وانتو ان شاء الله ح تقعدوا تنفرجوا عليهم ؟ تساءلت زازا ساخرة منى ومن الحاج طلبية .

— إزاي بقى ؟ قال الحاج معترضاً ، لازم كلنا نشتغل .

وتناول الخنجر من كرشة وراح يعمل في الخشب نحو ربع ساعة ، لم يتوقف إلا عندما تذكر فجأة أنه يجب أن يتوضأ ويصلي الظهر .

— خد يا باشمهندس ، قال وهو يناولنى الخنجر .

فرحت أشتغل بدورى نحو ربع ساعة ، لم أتوقف أنا الآخر إلا عندما خطرت لى فكرة هندسية تحتاج منى إلى ساعة من الحسابات على الورق .

— والنبي تابعين نفسك مع القاضي ! قالت زازا وهى ترقب العمل .

— والله انا برضك باقول كده ، وافقها كرشة .

وكانت عملية خرافية حقاً ، محاولة تفريغ الشجرة بخنجر وقطعة صخر . والشمس قطعت رحلتها عبر السماء ومالت للغروب ولم يحدث فى الجذع أكثر من بعض الخدوش الشبيهة بما كان فيه من البداية .

— الصبر يا جماعة ، الصبر ! قال الحاج طلبة حيث جلس يسبح بعد صلاة المغرب .

وتعشنا مثلاً تغدينا بالتفاح فقط ، لم يوافق الحاج على تضييع وقت توتو فى صيد السمك وشيه .

— آهه يوم ممك ويوم تفاح ، قال الحاج بعد أن صلى العشاء . وبحلول الظلام كان ضرورياً أن يتوقف العمل ، الليلة ليست مقمرة والنار التى أشعلناها لم تكن كافية . خستنا جلسنا حول النار فى صمت ، وهيج النار يلقى على وجوهنا ظلالاً متراقصة .

— مطهياً لى الدنيا برضت شوية ، قال كرشة وهو يدعك بيده صدر الغوريلا .

وكان الجو قد تغير فعلاً عن ذى قبل ، لم يعد جو الصيف الذى يستحب فيه نوم الخلاء . عشر علامات رسمتها على الشجرة ، أيمكن أن تكون كافية لانهاء الصيف الذى لم يبدأ إلا منذ شهر واحد ؟

— تفكر الشغلانة دى تاخذ لها أد إيه يا باشمهندس ؟ سألتى الحاج طلبة .

— شهرين .. ثلاثة .. أربعة ..

— قول خمسة سطة صبعة ! قال كرشة .

— قول ثمانية تسعة عشرة ! قالت زازا ضاحكة .

ثم نهضت متهبئة للانصراف .

— تصبحوا على خير يا حضرات ! قالت وهى تبتعد .

تبتعد وهى تترنم بأغنية انجليزية ، تلك الأغنية التى تبينت بعد

قليل أنها ليست أغنية ، وإنما هي كلمات مادية لحنها زازا موجهة
إياها إلى شخص يعرف الإنجليزية .

— ألا يمكنك ، ترنمت ، بعد أن يناموا ، ترنمت ، أن تأتي
إلى الكوخ قليلاً ؟

فكاد قلبي — وقد فهمت — يقفز من حلقى ، فمن غيرى
يعرف الإنجليزية حتى توجه إليه هذا النداء ؟ وابتعدت زازا وهي
تترنم على إيقاع من دقات قلبي ، ستة عيون غيرى راقبتها وهي
تراقص نحو الكوخ في جلاباب كرشة .

— طوزين ننام علشان نصحي للشغل بدرى ، قال الحاج طلبة
حين أقفل باب الكوخ على زازا .

— آه ده عز العقل ! أجبتة وأنا أنطرح على الأرض .

وانطرح الحاج هو الآخر غير ناس أن يحكم ثنى جلابابه على
جيبه ، وكرشة نام على ظهره كالقتيل . أما توتو فتركنا ومضى
إلى ماوراء جذع الشجرة . فأغلقت عيني متظاهراً بأننى سأنام ،
كأن رجلاً يستطيع أن ينام وفي صدره هذا القلب المجنون .
عمدت يدي تحت رأسى ورحت أحاول ترتيب أفكارى المحمومة .
هل ألبى النداء وأذهب إلى زازا ؟ إنى أعرف أننى سألبيه حتماً ،
كيف بالله عليك لا أفعل ؟ لكن أليس جديراً بى أن أفكر
في العواقب ؟ رصاصة تستقر في صدرى أو خنجر يفوس في بطنى ،

أو على الأقل علقه حامية تحطم ضلوعى ؟ لكنهم من ناحية أخرى
لا يستطيعون اليوم إيدأنى بشدة ، أنا المهندس الذى فى يده
خلاصهم . لا أظن أن أحداً سيقتلنى أو حتى يضربنى ، سيكتفون
فى أغلب الظن بتهزئى ، فمن الذى لا يغامر بالتهزىء تلبية لأغنية
زازا ؟ من لا يفعل ذلك فلا شك أنه مهزأ من الأصل .

ارتفع غطيظ كرشة فازداد خفقان قلبي ، وازداد أكثر عندما
أجابه شيخير الحاج طلبة . لكننى لم أنهض من فورى ، انتظرت
حتى يغرقا فى النوم . نعم أنا للمهندس الذى سيخرجهم من هنا ،
جدير بى أن أستمتع ببعض الامتيازات . بأى حق يتحكم فى
الحاج طلبة ويعلمنى مبادئ السلوك ؟ الشيك الذى أعطاه لى هو
أجبرى عن العمل ، أما حريرتى فلا أذكر أننى بعثتها لأحد .

غرق الرجلان فى النوم فنهضت بحذر شديد ، جثوت على يدي
وركبتى ورحت أزحف نحو الكوخ . فى الظلام أسمى نحو الكوخ
كالحيوان ، أليس غريباً أن يسمى الرجل إلى الحب وهو يسير
على أربع — خاصة وهو رجل مهندس ؟

فلما بلغت باب الكوخ لم أطرقة وإنما نقرت عليه بأظافرى ،
سرمطان ما انفتح بصريخ خافت .

— أنت فين ؟ أتاني صوت زازا .

— أنا ايه ! أجبتها هامسا من حيث جثوت .

— ومالك ماشى كده ؟ سألتني في دهشة حين رأتنى .

— هس ! قلت لها محذراً .

ودفعت الباب برأسى ودخلت ، مصراً لمبب لا أدريه على مواصلة السير على أربع . فلما أقفلت زازا الباب نهضت كالحموم أتلمسها في الظلام .

— أنت . .

— هس ! قاطعتها من جديد ، بلاش كلام ليسمعونا !

وألقيت ذراعى حولها وضممتها إلى صدرى ، بقوة نهلت من عطرها في شراة رجل عطشان ظمآن صديان وقعت يده — بعد أن كاد ييأس — على شوب بيرة مثلجة . وسمعت من تلاحق أنفاس زازا ما دلنى على أنها لا تختلف عني كثيراً . لحظة من النشوة ما كان أمتعها ، وما كان للأسف أقصرها . إذ شعرت بشيء يرتطم بظهرى حيث وقعت ، باب الكوخ الذى انفتح فجأة بعنف مع صوت الحاج طلبة .

— والله حال ياباشمهندس ! والله حال قوى ، عال قوى قوى !

فالتفت لأواجهه هو وكرشة ، كرهتهما كما لم أكره أحدا

من قبل . وكان كرهى مشوبا بثورة مدمرة ، قررت فجأة أن أطالب بحريتى .

— هو إيه الى والله عال ؟ ! صرخت في وجهه ، أنت مالك ومالى ؟ ! بأى حق تدخل علينا ؟ حاشر نفسك بيننا ليه . .

— لا يا شيخ ! جأر الحاج طلبة ، ولك عين تتكلم كمان ؟ أنت فاكرنا إيه يا أستاذ ؟ فاكرنا قوادين والالاه ؟

ومن صوته عرفت أنه لن يقبل ثورتى ، فرأيت أن أحاول حل المشكلة بالمنطق البارد — إذا كان للمنطق البارد يمكن أن يحل شيئاً .

فنفخت كل الهواء الذى فى صدرى وخرجت من الكوخ . — بقى صلى ع النبي يا حاج ، قلت له بأهدأ صوت عندي ، أنا باحب زازا وعايير أنجوزها ، عندك مانع ؟

فسكت لحظة يستوعب كلامى .

— تتجوزها ؟ سألتنى بعد حين ، تتجوزها ازاي بقى ؟

— زى كل الناس ما بتتجوز ؟

— وفين للأذن الى يجوزها لك ؟

— هى الدنيا طول عمرها فيها مأذون ؟ الجواز ورقة نكتبها

وانت وكرشة اتنين شهود !

فأخم الحاج لحظة ، لكنه لم ييأس .

— واحنا نعرف منين انه جواز بحق وحقيق ؟ ما يمكن
الحكاية كلها نصب .

— با قول لك نكتب عقد .

فسكت الحاج طلبة ، ثم رفع يده ليهرش رأسه وهو يفكر .

— إن جيت للحق ، قال أخيراً بلهجة جديدة ، البت دى عايزه

حد يلها !

— بس ما تقولش بت ! قالت زازا .

— لكن تفكر انك تقدر تلها يا باشمهندس ؟ سألتى الحاج

بابتسامة كريهة .

— مقدرش ليه ، صغير ؟

— افرض ان الطور الى هناك ده ، قال مشيراً إلى جذع الشجرة

حيث يوجد توتو ، جه اتهمج عليها تانى ، ح تقدر سيادتك تحوشه ؟

— ياسيدى ابقى حوشه انت !

— حاجة لطيفة قوى ! سيادتك تتجوز وانا اشتغل لك غفير ؟

— على كل حال ماتحملش هم ، أما يتهمج عليها ابقى اتصرف انا .

— وافرض انه قتلك ؟

— فى ستين داهية !

— والمركب يا أستاذ ؟ مين بينى المركب يا باشمهندس ؟ إفت

فاكر ان حيائك ملكك انت بس ؟

فأدركت أننا نتجادل فى الهواء .

— ماهو شوف بقى يا حاج ، قلت بحزم ، إما إنى أنجوزها

وإما إنى موش عامل لكو المركب . قلت إيه بقى ؟

— لا ياشيخ ! زعجر الحاج ، والشيك الى ف جيبك يا أستاذ ؟

— اتفضل ، قلت وأنا أخرج الشيك من عبي ، بله واشرب ميتة !

فما كدت أقولها حتى وجدت نفسى جالساً على الأرض ،

على أثر زغد فى صدرى من يد كرشة . يبدو أننى سأقضى نصف

وقتى فى هذه الجزيرة مبروشا على الأرض .

— ما تطولش لصانك على الحاج !

— سيبيه يا كرشة ، قال الحاج ، قوم يا باشمهندس .

ومد يده يساعدنى على النهوض وبدأ يتكلم بهدوء .

— شوف ياسى أحمد ، قال الحاج طلبة ، احنا متفقين على إن

البت دى لازم تتلم ، موش كده برضه ؟

— وباقول لك المها موش راضى .

— أما تضحكش على نفسك ، موش انت الى تقدر تلها !

فبدأت أفهم .

— ما تحطها على بلاطة وتريحنا يا حاج ، قلت له ساخرا .

— يعنى إيه ؟ سألتى .

— يعنى قول انك انت عاوز تتجوزها ، أجبتة .

فسكت حيناً يتفكر ، ثم تفشت في وجهه بسمة حياء أبلة .

— وحد يتأوصل لست زازا ؟ ا قال وهو يفيض البصر .

فرلت من زازا ضحكة صغيرة .

— ثم انت ح تتجوزك على إيه ؟ استرسل الحاج طلبة ،

ماهيتك كام في الشهر ؟ عشرين ثلاثين جنيه ؟ الست زازا عايزه

راجل مقتدر . راجل ملو هدومه ، يلبسها وينغنها ويميشها عيشة

ملوك ، ولا انا غلطان يا ست زازا ؟

فلم تجب زازا من فورها ، راحت تنقل النظر بيننا حيناً ثم بدأت

تضحك . في جلاباب كرشة رأيت جسمها يترجرج من شدة الضحك

حتى تهالكت على ركبتيها ، ورفعت يديها إلى وجهها لتستر بهما

ضحكها . فلما رفعتها بعد حين كان وجهها مبللاً بالدموع .

— ماهو شوفوا اما اقول لكم ، قالت بصوت متهدج ،

اتفقوا مع بعض وشوفوا لي عريس ا أنا عايزه اتجوز و خلاص ا

وبسرعة نهضت وانطلقت تجري نحو الكوخ ، دخلت و صفت

الباب خلفها .

— جالك كلامي يا باشمهندس ؟ قال لي الحاج طلبة ، البت عايزه

راجل يلها ا

فأحسست فجأة أنني أريد أن أبكي .

— طب والله العظيم مانا عامل لكو المركب ا هتفت بصوت

تخنقه الدموع .

فصوب الحاج إلى نظرة طويلة قاسية .

— طب إيه رأيك انك ح تعملها ؟ قال لي بهدوء .

— لا مش عاملها ا قلت متحدياً .

— لا ح تعملها .

— لا موش عاملها ا

وهنا تدخل كرشة .

— الله انت لمض كده ليه ؟ الحاج قال لك ح طعملها يعني

ح طعملها ، آه ا

وزغد جديد فوجدتني مبروشاً على الأرض . يبدو أنني

سأعملها .



الرسمية . عقد الزواج كتبه الحاج على ظهر شيك سوف تجده بين هذه الأوراق إن هي وصلتك ، وعلى العقد وقع الحاج ووقعت زازا ووقعت أنا ، وكرشة بل إصبعه بريقه وبصم . ثم طوى الحاج عقده وأودعه في جيبه مع السبحة والمسدس ودفتر الشيكات .

— مبروك يا حاج ، قال كرشة ، مبروك يسط ظاظا !

— الله يبارك فيك يا كرشة ، أجابه الحاج ، ومن هنا ورايح موش تايزك تقول ست زازا . هي اسمها الحقيقي إيه ؟

— عطيظة !

— خلاص ، تبق تقول ست عزيزة .

— مبروك ياست عزيزة ، قلت ساخرا .

— يا الله يا عزيزة اجري ع البيت ، قال لها الحاج بلهجة الزوج الذي أصبح فجأة قواما .

فاهتز صدر زازا بضحكة صغيرة ثم نهضت متجهة إلى الكوخ ، لم تفس قبل إقفال الباب أن تلتفت نحوى وتخرج لسانها .

— عقبال البكارى يا حاج ! قال كرشة .

فتجاهل الحاج كلمته .

— إحنا ليه قاعدين من غير شغل ؟ تسأل الحاج طلبة مشيرا إلى جذع الشجرة .

الفصل الثاني عشر



يكتف الحاج طلبة - في الصباح - بأن يتزوج زازا بدلا منى ، وإنما طالبنى بأن أشهد على الزواج مع كرشة .

— سبحان الله ! قلت له في مرارة ، بقى تخطف الولية منى وعايزنى اشهد على جوازكم ؟ فلم يجب الحاج .

— ح طشهض ، أخطرني كرشة ، يعنى ح طشهض ! فشهضت .

وبينما أخذ الحاج يد زازا في يده ليقرأ القاتحة رأيت صدرها يهتز بضحكة مكتومة وقد تورد وجهها حياء . لم يتورد وجهها عندما قبلتها أو عندما قبلها توتو ، فالخجل فيما يبدو لا يصيبها إلا من العقود

— ح نشغل في يوم فرحك يا حاج؟ قال كرشة معترضاً ،
أنا باقول ناخذ النهارده أجازة .

فتفكر الحاج لحظة .

— زى بعضه ياسيدى ، قال متساهلا ، خدوا النهارده أجازة .
وتفكر لحظة أخرى ثم أشار إلى توتو الذى راح يتسكع بعيدا .
— وخلي الجدع ده يصطاد لنا سمكتين .
— وجب يا حاج .

وسكت الحاج طلبة حيناً ثم تئأب وتحنج ، ثم بسط ذراعيه
يتمطمع ، وأخرج السبعة ونهض متثاقلاً ، بدأ يتحرك نحو الكوخ
على مهل . ببطء وتؤدة يسير ، طويلاً عريضاً حافياً يداعب حبات
السبعة المتدلية من يده ، آل يعنى ابن الكلب رايح يسبح !
أنا وكرشة تابعناه وهو يبتعد بنظرات تقطر حسداً ، لأول مرة
تشاركت مع كرشة في شعور واحد . فبينما راقبت الحاج متجهاً
إلى الكوخ ساورنى مع الحسد شعور آخر غريب ، شعور بالراحة
لأننى لست أنا الذى يتجه إلى ذلك الكوخ ! لم يكن فى إمكانى
أن أحتمل على ظهري هذه النظرات الحاسدة ، كأن الحاج كان مصيباً
حين قال أننى لا أستطيع أن أحمى زازا . هو وحده الذى
— بالمسدس وبعضلات كرشة — يستطيع أن يحميها ، إذا صح
أنه من الممكن لزازا — أو من اللازم — أن تحمى .

— هع ! قال كرشة حين دخل الحاج وأقفل الباب ، أما حكاية
يا ولاض !

وبنم منفشوخ بابتسامة كريهة ، وجفون متهدلة على عيون
الغوريلا ، راح يحدق فى الباب الذى أغلق على الحاج وزازا .
وشعور غريب آخر دهمنى فجأة ، أننى لست أكره كرشة كما يجب
أن أكرهه . هو ضربنى وأذلىنى وقد يضربنى ويدلىنى فى أية لحظة ،
ومع ذلك لا أكرهه . بل يخيل إلى أنه كان من الممكن لو تغيرت
الظروف أن أحتمل شيئاً من الميل إليه .

— سلامات ياسطارا ! قال فجأة بلهجة تريقة ، إنت آنصتنا
قوى !

— الله يأنصك ! أجبتة بنفس اللهجة رافعاً يدي إلى جبينى
بالسلام .

— طب والنبي انط راجل طيب ، أضاف كرشة مستهزئاً .

— ده بس من أصلك .

— هع ! تقصع كرشة ، هع !

فرحت أفرج عليه حيناً لى أستوعيه .

— إيه ؟ سألنى ، بتشبه على ؟

— ممكن أسألك سؤال ؟ قلت له بهدوء .

— إصأل ، احنا وراانا حاجة ؟

— إنت ولامؤاخذة مال كش غية فى الدنيا غير ضرب الناس ؟
فلم يجب من فوره ، راح يتفحصنى من تحت جفونه للتهدلة
بنظرة مستريية .

— يعنى إيه بقى ؟ سألنى أخيراً .

— يعنى من يوم ما شرفت هنا ، شرحت له ، ما شفتكش
بتعمل حاجة غير يا تضربنى يا تضرب توتو . إحنا أذيناك فى حاجة ؟
— يعنى إيه ، انتو موش بتظعلوا الحاج ؟ أجابنى بنبرة تحرش .
— زعلناه فى إيه ؟ ؟ سألته ببرود .

— يا سلام ، كل ده وما زعلطوهش ؟

فأصرت على برودى .

— كل ده يبقى إيه ؟

فأخذ كرشة بفكر ، نحوا من دقيقة يبحث عن تهمة
يلصقها بنا .

— ناظرين بوس فى البت قدامه ، هى دى شوية ؟ قال أخيراً .

— طب وهو دخله إيه ؟ هى مراته ولا بنته ؟

— الحاج ما بيعبش المصخرة ، أجابنى ، ولا انا احبها كيان ، آه !

— والجوازة دى موش مسخرة ؟ إشمعنى هو اتجوزها ؟ ؟ ليه
ما اتجوزهاش أنا ؟ .

— عشان ما تعرفش تلمها .

فترينت لحظة .

— طب وانت ؟ سألته ، إنت ما تعرفش تلمها ؟ ليه
ما تتجوزهاش انت ؟
فسكت لحظة مفحما .

— وانا إيش أوصلنى للحاج يا اسطاز ؟ قال بعد حين ، الحاج
ده مريينى من صغرى . جابنى م الشارع وعملنى بنى آدم . أنا لخم
كطافى من خيره يا اسطاز .

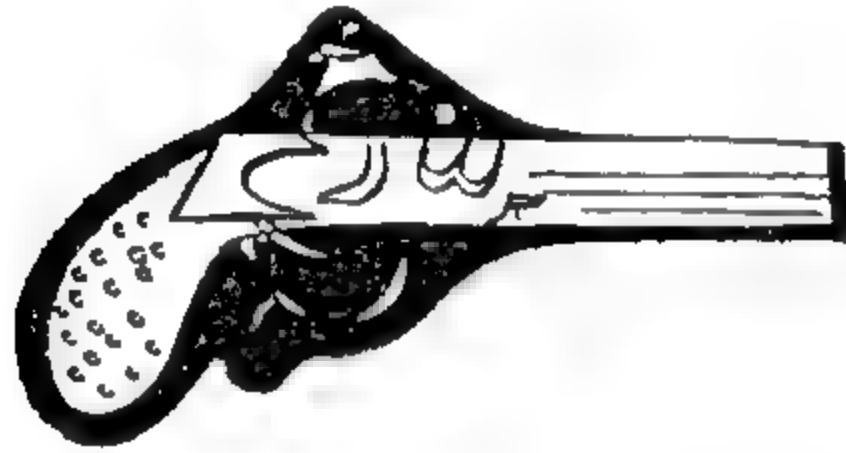
وكانت لهجته قد أصبحت عدائية سافرة بصحتنى بأن أكف ،
لكنتى يجب أن أكل مهمتى .

— لكن هى مستظرفاك انت ، قلت مغامراً ، مرة قالت لى
انها شايمة فيك حاجة جذابة !

فارتفعت جفون كرشة بينما تدلى فكه الأسفل ، وتركزت
عينه على الكوخ وقد طفحت على وجهه ابتسامة حقيرة .

— هع ! قال كرشة أخيراً وهو ينهض ، أما نروح نصطاد الغدا !
وتوكنى واتجه نحو توتو ، من بعيد رأيتته يلقى له بالخنجر
ويشير إلى البحر ، فتناول توتو الخنجر ونزل للصيد بالطاعة التى
اعتاد عليها فى العهد الأخير . وأنا قصدت إلى شجرة التفاح ورسمت
عليها بالمنشار علامة جديدة .

منا شيكا بخمسين جنيتها . غير أنني فقدت فيه ذلك الاهتمام الشديد
بسير العمل في الزورق ، لم يعد يتطلع بشوق بالغ إلى مغادرة الجزيرة .
ولكن يهذب لحيته وشعره وأظافره بالخنجر تسبب في تعطيل العمل
أكثر من ساعة . وكانت اللحية التي يهذبها قد أصبحت نصف بيضاء ،
وأكد أقسم أنه لم تكن في وجهه منذ أيام تلك الغضون
والكراميش .



— إوعوا حد يروح ناحية العشة ، قال لنا مرة ، الست
بتستحمي وراها !

فانجحت عيوننا إلى العشة تريد أن نتخترقها إلى ما وراءها ،
ثم ظهرت زازا في جلاب كرشة وهي تعصر القميص الوردى الذي
غسلته ، ثم ضربت به الهواء ونشرته على غصن من شجرة التفاح
وهي تغنى .

الفصل الثالث عشر



علامات جديدة وأصبح عندنا مشروع زورق حقيقي .
بالخنجر والمنشار أعملنا النحت والكحت في جذع
الشجرة حتى ظهر لنا تجويف عميق يبشر بالخير . أنا وتوتو وكرشة
نعمل والوغد طلبة لابد في الكوخ يلحق المسل ، فإذا خرج من
الكوخ فذلك لكي يستحم في البحر ويصلى ، ثم يعود وهو يحمل
نصيبه ونصيب زازا من السمك الذي صاده توتو . مرة واحدة أقبل
ليلقي نظرة على الزورق ، رأى التجويف الكبير فبدأ عليه السرور .
— بارك الله فيكم ، قال لنا مهنئاً ، شدوا حبلكمو يا جدعان !
ولكن يكافئنا على نشاطنا أخرج دفتر الشيكات وكتب لكل

— إوعى تقول ممنوع الحب ، زقزقت زازا ، إوعى تزعل مالى
يحب . كل شيء ممنوع فى الدنيا إلا الحب ، إلا الحب !

وبينما غنت راحت تهز رأسها الفاتن على إيقاع النغم .

— عزيزة ! ناداها الحاج زاجرا ، بلاش غنا وادخل العشة !

زوج حمش أطاعته زازا وعادت إلى الكوخ . هى فى الكوخ
معظم الوقت ، ليس عند الحاج طلبة نساء يغادرن البيت ويتسرحن
أمام الأغراب بلا لزوم . فلما رأى أنظارنا لا تترك القميص للعلق
إلا لكى تعود إليه ، ذهب فنزعه عن الشجرة واختفى به فى الكوخ .
حتى قميص زازا يعتبره الحاج حراما علينا .

— تازا ! تازا ! تازا !

هكذا راح توتو يردد بغير شعور وهو يعمل الخنجير فى
لحاء الشجرة .

— هو إيه ياخويا اللى تظاظا تظاظا ! قال له كرشة ، ماتشطفل
وانت صاكت !

فسكت توتو . وعلامتان جديدتان على شجرة التفاح وبدأنا
نرتعد من البرد ليلا . فى هذا الجو الجديد لم يعد من السهل علينا
أن ننام عراة فى الخلاء ، النار اللى نشعلها تزودنا بشيء من الدفء
ثم لا تلبث أن تنطفىء فنبرد .

— اتفرج يا سيدى ، قلت لك كرشة متأففاً ، هو نايم دفيان
واحنا بنتكتك .

فلم يجب كرشة من فوره ، كان يفكر .

— عارف اناح اصهل إيه ؟ قال بعد حين ، ح اقول له يرجع لى
جلابيطى .

— طب وانا وتوتو ؟ سألته .

فأجابنى ببصقة على الأرض .

— والست تمشى عريانة ؟ قال الحاج فى غيظ عندما طالب كرشة
بجلبابه فى اليوم التالى .

— يا حاج خليها جوه البيت ، برطم كرشة ، أنا باباط طول
الليل اطقك !

— هو يطكك ، قلت للحاج ، وانا وتوتو نرد عليه .

فسكت الحاج منمحا .

— ممكن ولا مؤاخذه اعرف انت لا بس تحت الجلابة دى
إيه ؟ سألته بعد لحظة .

فوخزنى بنظرة حادة .

— يعنى إيه ؟ سألتى بغيظ .

— يعنى باقول مادام انت نايم جوه دفيان ، تبقى تسلفنى
جلابيتك بالليل !

— والله عال ! قال الحاج وهو يضرب كفا بكف ، واحد
ماور جلابية الست والتاني ماور جلابيتي !

— ما هو انت يا حاج لو تجرب البياط برة كنت تعظرننا ،
قال كرشة .

— وما تنساش يا حاج ، قلت أنا ، إتنا لازم نحافظ على صحتنا .
ذا عيينا مين اللي يعمل المركب ؟

فسكت الحاج لحظة مفكرا ، ثم ابتعد عنا دون أن يجيب .
لكنه بالليل نادى كرشة إلى الكوخ ، ومن خلال الباب للوارب
ناوله الجلابيين .

— ربنا ما يحرمننا منك يا حاج ، قال كرشة داعياً .

هو لبس جلابيه وأنا لبست جلاباب الحاج طلبة .

— والله عال يا كرشة ، قال للذكور ، عشت ولبست بنص كم !
وكان منظره نكتة حقا في ذلك الجلاباب الذي حولته زازا
فستانا ، مثل منظرى أنا في جلاباب الحاج المفضاض الذي يتهدل
حولى على الأرض . لكنه أذفأنى أثناء النوم ، إذ تهت فيه كأنتى
أنام في خيمة . فتذكرت توتو الذى يبيت بالمايوه وراء جذع
الشجرة ورثيت له ، ربما تناوبت معه ارتداء الجلاباب إذا اشتد
البرد عن ذلك . لكن اشتداد البرد صنع بى العكس ، جعلنى أنسى

كل شىء عن توتو . بل إتنى طالبت الحاج ذات صباح بأن يترك
لى جلابيه خلال النهار أيضاً .

— لا يا شيخ ! جأر الحاج فى وجهى ، والنبي صحيح ! ماتاخذ
العائلة وملحقاتها !

— ما هو أصل يا حاج . . .

— لا أصل ولا فصل ، دنا لو مشيت وراكح تقلعنى عريان !
إقلع الجلابية يا باشمهندس !
فخلعتها .

— وعلى فكرة الست ابتدت تبرد بالليل ، قال الحاج لكرشة
منذراً ، يعنى ما نتش واخذ الجلابية الليلة .

— يا نهار اصوض ! جمر كرشة ، دنا اموط م البرض يا حاج .

— إنت راجل وتستحمل لكن هى ست ، قال الحاج بحزم .
وطلب الخنجر لكى يهذب لحيته التى كاد الشيب أن يشملها كلها ،
وسط طائفة جديدة من العضون والتجاعيد . لكننا عملنا فى ذلك
اليوم كما لم نعمل فى أى يوم آخر ، العمل من ناحية إشيع الدفء فى
أجسامنا العارية ، ومن ناحية أخرى يقربنا من يوم الخلاص . كرهنا
الحياة فى هذه الجزيرة اللعينة حيث لا غذاء ولا كساء ولا نساء .
وزازا أيضا تبين أنها كرهت حياتها .

— دى ما بقتش عيشة ! أأنا صياحها من الكوخ المقفل ،
إنت ح تدفننى بالحيا !

فلا ندرى بماذا أجاب الحاج طلبه .

— أنا طهقت خلاص ! طاد صوتها الصارخ ، إعتقنى يا أخى !
فلم ندر برضه بماذا أجابها .

— طب والله ما نا قاعدة لك ! ح اخرج يعنى ح اخرج !

وانفتح باب الكوخ بعنف وخرجت منه زازا ، يد الحاج
حاولت أن تستوقفها ففشلت . خرجت زازا مسرعة والحاج وراءها ،
فلما أوشك على اللحاق بها بدأت تجرى ، والحاج يلهث وراءها
ولا يستطيع أن يمسكها .

— كرشة ! صاح الحاج مناديا ، إمسك البت دى !

فناولنى كرشة الخنجر وانطلق يعدو ، غوريا لقيحة تطارد
الغزال الشارد . ووقعت زازا بين ذراعيه ، خيل إلى أنه احتجزها
هناك لحظة زائدة عن الحاجة . ثم جذبها من يدها وقصد بها إلى
الحاج طلبه الذى أهوى على وجهها بصفعة قوية .

— أنا ما حدش يضربنى ! صرخت زازا بصوت مخنق ، موش
عايزه اقمعد معاك ! زهقت من خلقتك ! طلقنى وريحنى منك !
فناولها الحاج صفقة ثانية وجذبها داخل الكوخ وهى تبكى .

— تازا ! تازا ! زحجر توتو . بغير شعور وهو ينظر إلى
الكوخ بمرارة .

علامة جديدة على جذع الشجرة وخرجت زازا من الكوخ
تصرخ فى فزع .

— إالحقوا الحاج ! إالحقوا الحاج !

فأمرعنا إلى الكوخ لكى نجده ملقى على الأرض وهو يتلوى
من الألم ويزحجر كحيوان جريح .

— ماله يازازا ! سألتها .

— موش عارفة . مرة واحدة بصيت لقيته بيقول يابطنى ، وراح
واقم من طوله .

— مالك يا حاج ؟ قال له كرشة ، صلامتك .

لكن الحاج لم يجبه ، راح يحيل بينه وبينى نظرة زائغة
وهو يتأوه .

— هاتى له يشرب ، قلت لزازا .

فلما سقيناه أخذ يسعل ويسعل ، فاحترنا هل الوجع فى بطنه
أو صدره أو فى الاثنين معا . هناك رقد يلهث ويحيل فى السقف
نظرة تأهة ، ثم ثقلت جفونه وبدأ أنه سينام . وقبل أن ينام رأيت
يده تمتد إلى جيبه لكى تحكم إقفاله على المحتويات الثمينة .

— سخن زی النار ! قالت زازا وهي تتحسس جيبه .

ونزعت قطعة من ذيل قميصها ، بلتها بالماء ووضعتها على جيبه بصفة كعادة . فلما تأكدنا من أنه قد نام فادرنا الكوخ وعدنا إلى العمل .

— لاحول الله يارب ، قال كرشة متوجعا ، صحيح للثؤ من منصاب . فلم أعلق ، رحت أنمت في المركب وأنا أقول لنفسي ماذا لو مات الحاج طلبة ؟ لست أخاف عليه بالطبع — فليمت في ستين داهية — وإنما أخاف من للوقف الذي سيعقب وفاته . المسدس المحشو بالرصاص ، من الذي يرثه من الحاج وكيف يستخدمه ؟ الحق يقال أن الحاج لم يستعمل مسدسه حتى هذه اللحظة إلا في حفظ النظام ، فإذا يحدث إذا وقع السلاح الخطير في يد وحش ككرشة أو مأفون كتوتو ؟

وقطعت زازا خواطري ، إذ خرجت من الكوخ وأتت فوق العمل في صمت .

— سبتيه ليه يا ست ظاظا ؟ قال لها كرشة معاتبا .

— ح اصمل له ايه ؟ آهه نايم .

فسكت كرشة ، ونظرت زازا إلى .

— على الله يموت ! قالت لي بالإنجليزية .

— والله موش متأكد ، أجبتها بنفس اللغة .

وهملت بأن أروي لها خواطري عن المسدس لكن كرشة معني .

— النبي عربي يا أسطاز ! قال وهو يضربني كتفا كاد يوقني .

فسكت صاغرا . لكنه اضطر بعد حين إلى أن يبتعد عنا إلى

ما وراء الكوخ لحاجة عرضت له فوجدت فرصتي للكلام ،

رويت لها خواطري عن المسدس ، تلك الخواطر التي لم يكن من

العسير على امرأة ذكية مثل زازا أن تقتنع بوجاهتها .

— طب والعمل ؟ سألتني حائرة .

— موش طارف ، أجبتها مترددا في مصارحتها بالفكرة

التي تراودني .

— تيجيش اسرق منه المسدس وهو نايم وارميه في البحر ؟

قالت هامسة بعد لحظة .

فتفكرت في الأمر .

— لا ، قلت لها ، المسدس ضروري لحفظ النظام . من غيره

ح ينزلوا ضرب ف بعض بالخنجر .

فسكنت مقتنعة ، وعند ذلك غامرت بإطلاعها على فكرتي .

— ايه رأيك تسرق الرصاص من المسدس ؟

فأسكت عنها .

— أسرق الرصاص ؟ سألتني في دهشة .

— آه ، هو المسدس له قيمة من غير الرصاص ؟

— طبعاً لا .

— الحاج يفتح المسدس يشوفه فاضى ولا مليون ؟

— لا .

— خلاص ، إسرقى الرصاص .

وشرحت لها كيف أن المسدس القاضى سيظل صالحاً لحفظ النظام مثل المسدس الملائم طالما أن أحداً لا يعرف من الأمر شيئاً ، وفى الوقت نفسه لن يستطيع الحاج طلبه أن يستخدمه فى القتل إذا سولت له نفسه ذلك . فإذا ما تمكن كرشة أو توتو من اختطاف المسدس من الحاج — بسبب موته أو اشتداد المرض عليه — فإنما يكون قد اختطف سلاحاً لا قيمة له .

— طب والنبي فكرة ! قالت زازا بسرور ، تعرف امك لثيم قوى ؟

فاكتفيت بابتسامة صغيرة وأنا أسبل جفون التواضع ، واضطررنا إلى قطع الكلام بسبب عودة كرشة .

وبينما انشغل المذكور بالنحت تبادلت وزازا عبر جذع الشجرة نظرة تفاهم عميق ، فى عينيها رأيت نظرة احترام وتقدير أطربتنى .

ثم خفق قلبى وغمرتنى نشوة بالغة ، عندما رأيته تزم شفقتها وتمدها نحوى فى شكل قبلة صامتة ، حبيبتى زازا .

انتهينا من العمل فى المساء فرحنا نعود الحاج طلبه ، وجدناه كما تركناه نائماً يلهث بصوت كالحشرة . كلمته فلم يسمعنى ، وجسست جبينه فوجدته ما زال يلسع ، أسخن حاج جسسته فى حباتى .

— لا حول الله يارب ، قال كرشة وهو يضرب كفا بكف ، صحيح يا عالم المؤمن منصاب .

سمعت منه تلك الكلمة مائة مرة خلال النهار ، ليته كان هو الآخر مؤمناً .

— تاخذ الجلاية دى ؟ سألتنى زازا مشيرة إلى جلاب كرشة الذى ترتديه ، موش معقول نطلع الحاج الليلة .

— طب ماخدهاش انا ليه ؟ نعر كرشة ، هى موش جلابيطى ؟ فراحت زازا تلمسه حيناً بنظراتها ثم ابتسمت فجأة .

— لك حق يا كرشة ، قالت له بظرف غريب ، خد جلابيتك ، إنت أولى بيها يا غلبان !

وخلعت الجلاب عن القميص الوردى ، تلقفه كرشة منها فى فرح .

— ربنا ما يحرمنا منك يا سط ظاظا ، ربنا يشقى لك الحاج يارب .
وبينما اختفى رأسه في الجلباب وهو يلبسه واجهته زازا بأعذب
ابتساماتها ، أسبلت جفونها في دلع وزمت شفيتها ، أهدتني قبلة
صامتة كقبلة الصباح . كأنتى أفقت من تلك القبلة ، كأنها لم تعيش
في دماغى من الصباح إلى المساء . فلما غادرنا الكوخ كنت أرتعد ،
كما ارتعدت طول النهار كلما ذكرت تلك القبلة . لأنها ستكون
المليحة وحدها تقريبا مع ذلك الرجل الغائب عن الوعى ، فهل أسمعك
تقول أنه عمل غير أخلاقى ؟ ربما ، فهل كان عملا أخلاقيا من الحاج
طلبة أن ينتزع زازا منى ويستأثر بها دونى ؟ وإزاء تلك الرعدة
الجامحة التى شملتني ، كيف تتوقع منى حاسة أخلاقية مرهفة ؟ فلما
انفردت بكرشة في الخارج رأيته يرفع صدر الجلباب إلى أنفه
لينهل من رائحة الجسم الذى كان فيه من قبل .

— الله يا ولاض ، الضفا حلوا !

وفرك كرشه كفيه ثم ثئاب وتمطع ، وتمدد على ظهره ليلام .

— موش ح طنام يباشمهنضس ؟

— دنا نمت تقريبا ، قلت وأنا أتصنع التثاؤب .

وطاقدا يدي تحت رأسي حيث تمددت رحت أنظر إلى النجوم
اللامعة في السماء المظلمة ، ترتل لامع على فستان سهرة أسود ، يرتعد

مثل ملايين الخلايا المرتعدة في جسمي أنا . حبيتي أسبلت جفونها
في بداء ، زمت شفيتها وأهدتني قبلتين . زازا تناديني لأنها تريدني ،
زازا الجميلة العزيزة ، زازتى أنا .

وشخير كرشه شق سكون الليل ، رن في أذنى في تلك الليلة
موسيقيا منغما ، كآلة نحاسية في مقطوعة لسترافنسكى . نام الحمار
كالقتيل ولم يشعر بشيء مما يحدث في صدرى ، لم يخطر له أننى قد
أجترى . على اقتحام بيت الحاج المريض . لأنه لم ير القبلتين ولا رأى
كيف أسبلت زازتى جفניה . فليهنأ برائحتها الجميلة في جلبابه ،
ولأنهض أنا إلى الجميلة نفسها .

وكانت الجميلة في انتظارى ، فتحت الباب بعد نقرة واحدة .
في الظلام لم أرها لكننى شممتها ، ومددت يدي لمست يدها .

— أنا سرقت الرصاص ! قالت هامسة .

— والله ؟ همست في فرح ، فبن هو ؟

— رميته في البحر !

— إيه ؟ أنا موش قلت . .

— هس ! قاطعتني بيد وضعتها على شفتى ، بعدين الحاج

يصحى !

فأنصت لحظة إلى أنفاسه الثقيلة المنتظمة ثم نسيت كل شيء

إلا زازا ، ضمنتها إلى صدرى بقوة وقلت لها أحبك . وخزة
في الضمير ما زجت حبي ، لكن ليس للحاج طلبة أن يلوم إلا نفسه ،
انزع منى زازا بعد أن كانت زازنى أنا .

— ضميرك موش بيا نيك ؟ سألتها هامساً .

— حد قال له يتجوزنى ؟ أجابت ببساطة .

وضمتنى إليها وهى تلهث ، غبنا للمرة الأولى فى عناق طويل .

الفصل الرابع عشر

أضع اللاء على يدى طوال اليوم التالى ، حرام أن
تضيع منهما رائحة زازا . واشتغلت فى الثورق
بحماس وأنا أصفر مائة لحن .

— إنط مفرفش قوى النهارده ، قال لى كرشة بحسد .

فأجيبته بأغنية وأنا أترقص .

— إوعى تقول ممنوع الحب ، إوعى تزعل م اللى يحب .

— كل شىء ممنوع فى الدنيا ، اشتريت زازا ، إلا الحب ،

إلا الحب !

— بتغنى يا ست عظيمة والحاج عيان ؟ قال لها كرشة لاأتما .



— الحقيقة مال كيش حق أبدا ياست عزيزة ! عقت على كلامه ساخرآ .

ترى هل أجد الليلة فرصة لمعاودة للغامرة ؟ يكون موقفاً طريفاً حقاً لو حاول الحاج طلبة أن يقتلني بالمسدس الفاضى . ألا ليت الخنجر لم يكن ضرورياً للصيد والنحت ، إذن لتعايلت على سرقته هو الآخر . عند ذلك يمكنى وتوتو — بالهضلات وحدها — أن تصمد أمام طلبة وكلبه كرشة .

— والله خسارة ترمى الرصاص فى البحر ، قلت لزا بالإنجليزية .

— قلنا النبي عربى يا أسطاز ! قال كرشة وضربنى كنتفا .

ولجأة رأيت زازا تحيط صدرها بذراعها وترتعد .

— الدنيا ساقعة ! هتفت متأففة .

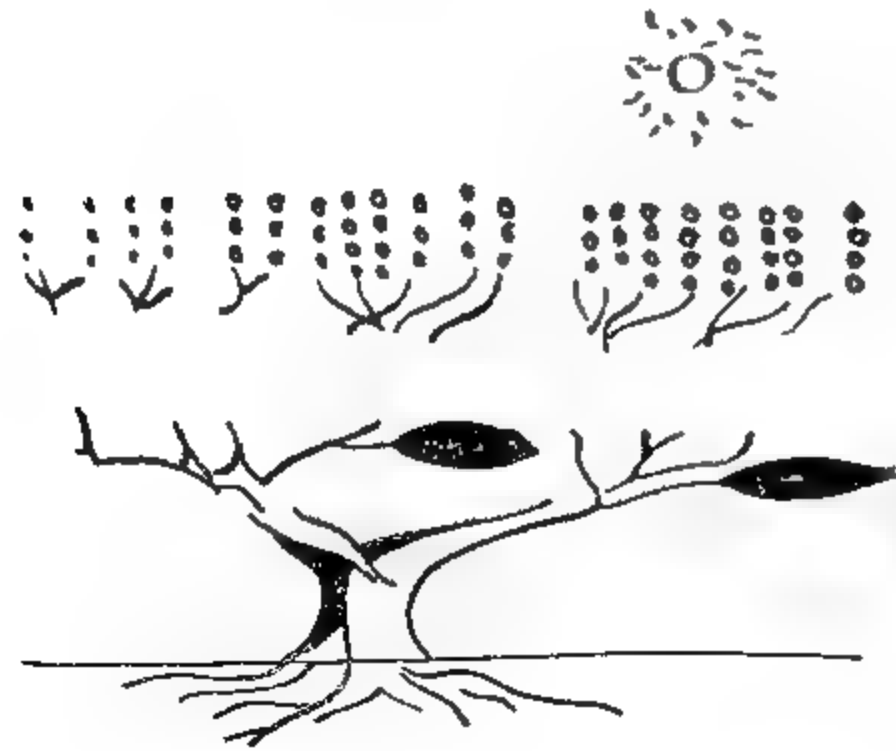
إذ هبت فى تلك اللحظة نسمة باردة نفذت فى عظامى أنا الآخر ، خيل إلى أنها نزوة طابرة من هواء البحر . لكنها لم تكن كذلك ، نسمة أخرى تبعها أسقع منها ثم بدت النسبات تتحول إلى رياح سافرة . رياح شديدة تهاجمنا من كل ناحية ، وفى البحر ظهرت الأمواج لأول مرة ، أمواج تغور وترتفع وتلتوى ثم تنقلب على الشاطئ بقسوة .

— موش معقول أبداً ! هتفت زازا ، مرة واحدة كده ؟

فأجابتها الرياح بهبة شديدة أطارت ذيل قميصها عند رأسها ، مشهد هم كرشة مثلما همنى .

— أحب العواصف ! قلت لزا مداعباً .

فراحت تضحك وتضغط القميص على فخذها كيلا يطير ثانياً . غيوم كثيفة سوداء برزت هناك عند الأفق ، بسرعة تزحف عبر السماء مدفوعة بريح مجنونة ، ما هى إلا دقيقة حتى حجبت الشمس وحجبت الكون فى شبه خيمة قائمة كثيفة . فلما صارت الغيوم فوق رؤوسنا لا أفهم كيف توقفت فجأة كأنها كانت تبحث عنا وما خرجت إلا من أجلنا . وفى لحظة واحدة فتحت السماء أدشاشها ووجدنا أنفسنا تحت سيل غزير من المطر ، أغزر مطر نزل فى أى يوم على دماغى . فسرمان ما كنا نجري نحو الكوخ وقد وضعنا أيدينا فوق رؤوسنا ، نتصايح أثناء الجرى ونضحك كالعيال .



أقفلنا علينا باب الكوخ ووقفنا نرتعد ، نحوآ من خمس دقائق
قبل أن أذكر أمراً خطيراً جعلنى أفتح الباب ثانياً .

— إلتحقوا المركب اصرخت بمجنون .

إذ كان قد حدث لها ما توقعت ، وصلت الأمواج الهاجمة إلى
جذع الشجرة وبدأت تلطمه بعنف ، فأخذ يتقلقل ويتمايل ويوشك
أن ينسحب إلى البحر مع الأمواج العائدة . فانطلقت وتوتو وكرشة
نجرى إليه ، تعاوناً على دفعه ودحرجته بعيداً عن الشاطئ . ولم نتركه
إلا بالقرب من الكوخ نفسه .

— الحمد لله انك افكرته ، قالت زازا .

— لازم واحد فينا يفكر ، أجبته بالأنفة للناسبة .

ودوى الرعد وعصفت الريح واهتز الكوخ اهتزازاً .

— صبحانك يا رب ، قال كرشة ، دى القيامة قامة !

— ده موش بعيد الجزيرة نفسها تغرق زى للركب اقلت زازا .

— وماله ؟ سألتها باسم ، ما تحبش تنقذنى تانى ؟

ساعة بحالها والعاصفة تزجر وتعربد حولنا ، ثم أخذت تهدأ .
شيئاً فشيئاً لانت الريح وبدأ صوت المطر يخف على أخشاب الكوخ

ففتحننا الباب ونظرنا ، رأينا الماء وقد أكل نصف الجزيرة بالراحة ،
مياه تترجرج حولنا من كل ناحية وقد كساها الزبد الأبيض كأنها
تغلى . والغيوم السوداء تبتمد فى السماء مواصلة رحلتها المشثومة
جهة الجنوب . ثم طلعت الشمس علينا ، أحسست كأن زازا تبسمت .
شيئاً فشيئاً تنسحب للمياه إلى موطنها الأصلي ، تترك وراءها
رمالاً مبتلة تبققل . لكن طلوع الشمس لم يخفف من حدة البرد .
وقفنا نرتعد كأننا فى ثلاجة .

— شوفوا الشجرة ! هتفت زازا مشيرة إلى شجرة التفاح .

غسلتها مياه المطر وجعلتها خضراء زاهية ، أخضر وأزهى
شجرة رأيتها فى حياتى . والحمد لله أن العاصفة لم تسقط أكثر من
نصف تفاحها ، وماذا لو أسقطته كله ؟ لعلها أسقطته وطرحت
الشجرة غيره وهو يسقط .

— يانهار اسود ! هتفت زازا ثانية وهى تشير إلى الأفق الشمالى .

فتابعت إشارتها لكى أرى ذلك الفوج من السحب الكثيفة
السوداء ، بسرعة تزحف نحونا على طبول رعد جديد . يبدو
أن الطبيعة لم تفرغ من أمرنا بعد .

— أصطغفر الله العظيم يا رب ، قال كرشة ، إحنا لسه لحقنا

ننشف ؟

بسرعة مذهلة أقبلت الغيوم نحونا ، وكالغيوم السابقة توقفت فوق رؤوسنا . فنظرنا لترى سحابة بيضاء تنفصل عن كتلة الغيوم السوداء ، بخار كثيف أبيض يتلوى ويهبط نحو الأرض . هو البرد كما اكتشفنا بعد لحظات ، ثلوج بيضاء كالقطن المندوف بدأت تتساقط حولنا ، خفيفة أول الأمر ثم غزيرة ، سرعان ما غطت أرض الجزيرة كلها ببساط أبيض . فأمرعنا إلى الكوخ نحتمي به ، ومن خلال الباب الموارب رحت أرقب للمنظر . البرد الذي يتساقط ويتراكم على الجزيرة ، وشجرة التفاح التي أصبحت كرة كبيرة بيضاء .

— ما تقفل الباب ده يا باشمهنضس ، قال كرشة متأففاً .

فأقفلته ووقفت أفرك كفى . ولما فتحناه بعد ساعة لناخذ فسكرة عن الموقف لم نجد الجزيرة التي نعرفها ، وإنما وجدنا بدلا منها كتلة من الثلوج البيضاء .

— طب واحنا بقى ح نباط الليلة دى ازاي ؟ تساهل كرشة .

— نبات هنا طبعا ، أجيبته ببساطة .

— نباط مع الحاج وست ظاظا ؟ قال مستنكرا .

— إمال يعنى تموتوا فى التلج برة ؟ قالت زازا .

وتبادلت وإياها نظرة وابتسامة ، قلبي يحدثني بأنها ليلة تنطوى على كثير من الاحتمالات .

في الظلام تكدسنا جميعاً داخل الكوخ ونحن نرتعد كأطفال صغار خائفين ، ولكي نخفف من البرد القارس أشعلنا ناراً صغيرة في ركن من الكوخ والتفقنا حولها . أصابعنا تتلاقى ونحن نمد أيدينا إلى الشعلة الراقصة ، سعداء بدفئها وحتى بلسعتها .

— اللاه اهتفت زازا ، نار حلوة بشكل !

وراحت تسخن يديها وتمسح بهما خديها وأذنيها وعنقها ، فرحة الأطفال ترقص في عينيها .

— موش ناقصنا غير وقة ابو فروة ، اقترحت أنا .

— قول وقة صمك ! تدخل كرشة .

— تازازا ! قال توتو باسماً .

— الجدع ده ح يققع مرادطى ، قال كرشة .

— حقنا نوطى صوتنا شوية عشان مانقلقش الحاج ، قلت لهم .

فلو أن الحاج طلبية نام نومة الأمس لكان ذلك أحسن ، وليت كرشة تسطله النار فينام هو الآخر نومة الأمس . أما أنا فأسأ كون قطعاً آخر النائمين .

— مصكين يا حاج طلبية ، قال كرشة وهو يتصعب .

— وللصيبة ان ما فيش عندنا ولا قرص اسمرين ، قلت له .

— بس اياك ما يكونش مرض معدى ، قالت زازا .

— هي غالباً نزلة شعبية ، قات لها ، موش سامعة صوت نفسه ؟
وتقلب الحاج طابة وبدرت منه أنة .

— عاوظ حاجة يا حاج ؟ سأله كرشة .
فلم يجبه الحاج إلا بأنة أخرى .

— لكن احناح تنام ازاي بقى ؟ تساءلت زازا فجأة .

فأسرع كرشة بتقديم الإجابة التى يبدو أنه كان قد حضرها .

— حضرطك طبعاً تنامى جنب جوطك ، واحنا نطلقح مطرح

ما حنا قاعدين !

هو يرى فيما يبدو أنه بمرض الحاج طلبه قد أصبح رئيساً بالنيابة
ينظم أمرنا كما يشاء .

— واتفضل حضرطك بقى عشان تنام ، أضاف مشيراً إلى ناحية
الحاج وهو يتثاءب .

فتثاءبت زازا بدورها ونهضت ، لكنه كان تثاؤباً ظاهر
الاصطناع . وقبل أن تفارق النار سحخت يديها ومسحت وجهها ،
ثم انتقلت إلى جوار زوجها .

— هه ، قالت وهى تستلقى ، تصبحوا على خير .

استلقت على جنبها وأولتنا ظهرها ، تكورت على نفسها كقطعة
صغيرة ، فانة شهية حيث تاهت فى جلباب كرشة . كذلك استلقى
توتو على جنبه دون أن يغمض عينيه ، مسنداً رأسه على ساعده

ونظرة فى عينيه ترسم نحو زازا خطأ مستقيماً . أما كرشة فأسند
رأسه إلى الحائط ، وسرحت إلى السقف من خلال جفونه المتهدلة
نظرة بلهاء . بذراعى الغوريلا استند على الأرض حيث اضطجع ،
أنفاس ثقيلة تتردد من صدره المغطى بالشعر والعضلات ، منظر
بشع حقاً .

— ما بطنامش ليه يا باشمهنضس ؟ سألتى فجأة .

— وانت ما بطنامش ليه ؟

— أنا حر يا أسطاز ، أخطر فى .

— ربنا يديم عليك الحرية !

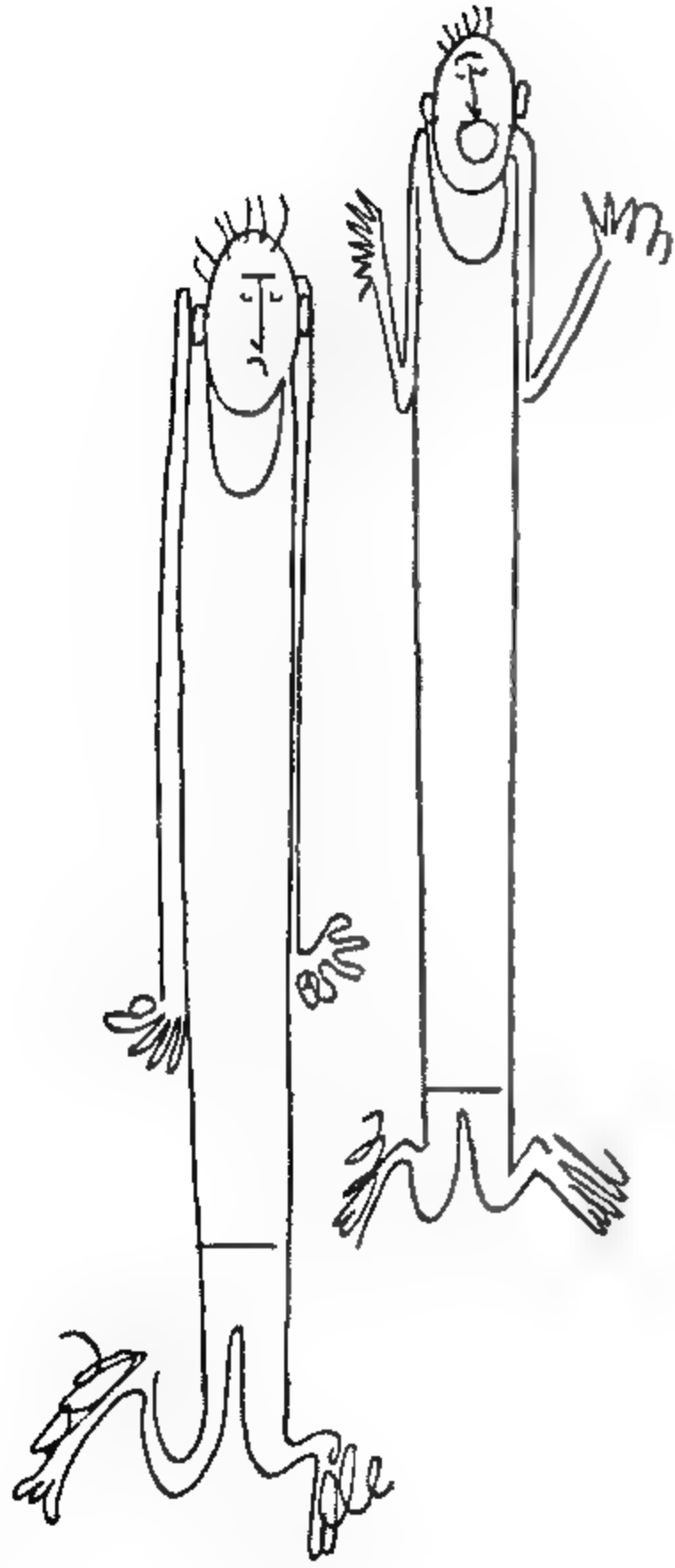
واستلقيت على جنبى وغطيت عيني بساعدى ، تاركا لهما ثغرة
صغيرة أرقب الموقف من خلالها . عين كرشة تركزت على كائما يريد
أن يستوثق من أمرى ، ثم حادت إلى توتو الذى انتظمت أنفاسه
وبدا من أمره أنه نام . ثم تحولت عين كرشة إلى زازا ، بعد أن
مرت بى لتتأكد من أننى لا أراه . نظرة طويلة إلى زازا من خلال
جفونه المتهدلة ، وفك الغوريلا تدلى وكاد يلامس صدره . نظرة
طويلة ثقيلة لرجة حقيرة ، أحقر نظرة رأيته . وأخيراً تهد كرشة
وتصعب ، ومسح وجهه براحتيه وهو يتثاءب بنهم ولا فم سيد قشطة .
ثم نقل بينى وبين توتو نظرة فاحصة ، بعين حمراء متعبه ، عين كلب
الحراسة الذى كبس عليه النوم . ويبدو أنه اطمأن إلى الموقف

فانزلق إلى الأمام ليمتد على ظهره ، ما هي إلا دقيقة حتى ارتفع
 شخير مذكرا إياي بالعاصفة . شخير كرشة وغطيط توتو ، مع خيخ
 الحاج طلبية وحشرجته ، مزيج من الأصوات لو سمعته أحد من الخارج
 لظن أن الكوخ يحتوي على وابلور طحين . فرفعت ساعدي
 عن رأسي بحذر ، ثم رفعت رأسي نفسها ونظرت إلى كرشة ، رأيت
 فيه مفتوحاً تتصاعد منه الأبخرة كفوهة بركان . فاستويت جالسا
 واستندت إلى الحائط ، عيني استقرت حيث يجب أن تستقر عند
 زازا . أقرب ماتكونين إلى ياحبيبتى وأبعد ماتكونين أيضا .
 لن يتاح لليلة أن تكون مثل ليلة الأمس ، تلك الليالي لا تتاح للمرء
 كثيراً . تقلبت زازا كأنما أيقظتها نظرتني ، لكنها لم تكن نائمة .
 رفعت هي الأخرى رأسها وتلفتت ، ثم جلست وواجهتني بابتسامة
 هريضة صاحبة . كانت مثل تلتظر ، فأى شيء ياحبيبتى يمكننا الليلة
 أن ننتظره ؟ وجهها فاتن على ضوء الشعلة الراقصة ، ورفعت إلى شفيتها
 إصبعها رشيق قبلتها ثم لوحت بها نحوى . فذوت حذوها ، أرسلت
 لها على الهواء قبلة مماثلة . هي ما برحت تبسم ، كالشمس بعد
 العاصفة تلك ابتسامة زازا . أجنونة هي لكي توجه إلى تلك النظرة
 المنادية ؟ وسط ثلاثة وحوش تريد مني أن أنهض وأقصد إليها ؟
 فإذا كانت تريد ذلك فلماذا لا تدعوني إليها بإشارة ؟ تريد مني
 أن أثبت رجولتي من تلقاء نفسي ؟ العضلات والشعر الكثيف

ترتفع وتنخفض على صدر الغوريلا ، يجب أن أعبر فوق ساقيه
 الممدودتين لكي أصل إلى المرأة الباممة . صراع عنيف دار في نفسي
 المحمومة ، بين مغناطيس الابتسامة ودواعي الحذر من الغوريلا التي
 قد تصحو في أية لحظة . فوجدتني فجأة أرتعد ، بقوة أرتعد وأمد
 يدي إلى النار أصطليها . لكن علاجى لم يكن لدى النار ، لن أجد
 دفئى إلا عند زازا . وزازاني ما برحت تبسم ، أسبلت جفنيها
 بين الظلال الراقصة على وجهها . فوجدتني أنهض وأنا أرتعد ، ترنحت
 فاستندت على الحائط . ورفعت قدمي اليمنى بحذر شديد لأضعها
 على الأرض عبر الساقين الممدودتين ، رأيت في سروال كرشة ثقباً
 صغيراً . ثم نقلت قدمي اليسرى وصرت في الناحية الأخرى
 من الغوريلا النائمة ، فرحت أسير على أطراف أصابعي نحو زازا ،
 ثلاث خطوات وصرت عندها . جثوت على ركبتى ورحت أنظر
 في عينيها لاهتاً ، نظرة حنان سبحت في بحيرة عينيها . فددت يدي
 إلى كتفها ، أجفل كتفها من برودة يدي .

— إرجع ليسمعونا ، قالت هامسة .

لكننى لم أكن لأرجع ، بردان يبتعد عن النار ؟ فضممتها إلى
 وقبلتها ، للجسور وحده تفتح أبواب السعادة . لحظة من الدفء
 ثم زجيرة مفاجئة خلفي مصحوبة بشتمة بذئنة ، وفي كتنى الأيسر
 من الخلف غاص نصل بارد مسنون .



الفصل الخامس عشر



الرمل في أنفى كرائحة الدماء وإن كنت لا أذكر
أننى شممت أى دماء ، لماذا أنا نائم على بطنى
ووجهى فى الرمل ؟ رمل العجى ناعم جداً وأبيض ، حمام شمست ثم
غدوة سمك فى كازينو المكس . أو فى أبى قير مع زجاجة بيرة
ساقعة . أو فى تافرنا مع كوز رتسينا وطاجن لسان عصفور . لكن
بعض الناس يشربون بوظة ، وفى المسامط يأكلون كرشة . أنقلب
على ظهرى يوجعنى كتنفى ، خلىنى على وجهى ، والجمجمة كانت
مقلوبة فعدلتها زازا . تزاوا ، كانت تلك ليلة خالدة ، وحدنا مع
الرجل المريض . متمدداً على ظهرى هبطت زازا برأسها وقبلتنى .
ثم رفعت رأسها لتنظر إلى ، ثم هبطت فقبلتنى من جديد . كأنتى

ماء وهى طائر يشرب منى . من الطيور ما يمنع صيده مثل أبي قردان ،
لأنه يأكل الدود الذى سوف يأكلنا . يا حبيبي سخن زى النار ،
هل سمعت صوتاً أو أنا مريض أهذى ؟ بعض الناس يهذون
ولا يعرفون أنهم يهذون ، لكننى لست من ذلك النوع . أنا أهذى
وأعرف أتنى أهذى ، أنا أهذى إذن أنا مريض . كرشة طعننى من
الخلف فى كتفى ، الخنجر يصيد السمك لكنه يقتل أيضاً . الصحة
تاج على رؤوس الأصحاء يلمع فى الشمس ويغيب المرضى . والشمس
مؤنثة بعكس القمر . مونلايت سوناتا وكروتزر أيضاً ، وتولستوى
كانت له لحية كثيفة كالحاج طلبة . فتك بفلاحة روسية تحت
شجرة البرتقال وكتب البحث . يرتقال كثير فى روسيا ولكن
ليس بقدر مافى فلسطين . أرض الأنبياء حيث صلب المسيح أو شبه
لهم . من كان منكم بلا خطيئة فليرجها ، لا بد أن كرشة بلا خطيئة .
الزنا كان فاحشة وساء سبيلا ، فلعلك قبلتها أو مانقتها أو فاخذتها .
يا خسارة فانتنى الجنة . لاحور ولا ولدان ولا نهر ببيد ، وكان لسان
العصفور حاداً نوعاً . وسيجارتى أسقط ولعنها فستان سيدة طابرة ،
زغر لى زوجها وكان بشنب . حضرتك تتجوزها وأنا أعمل لك
غفير ؟ فاكرنا إيه يا أستاذ ، قوادين ؟ وقال الرجل النحيف يلزم
خدمة يابيه ؟ وامرأة سمراء خلعت فستانها بسرعة كفلاح يخلع
جلبابه لينزل التربة . وعلى السكة الزراعية حقل ذرة ، من بين

العيدان المتسكاثفة أطلت فوهة موزر . لبت زازا لم تلق الرصاص في البحر ، كأنه كان ينفعني . كان الوغد ساكتاً لأنه يحوش بصقة ، وكان يمكن يومها أن يطعنني لولا الحاج طلبة . ومع ذلك خنته مع زازا ، وقالت زازا حد قال له يتجوزني ؟ في التبت تزوج المرأة عدة رجال ، والتبت هضبة كم هي عالية . وقمة إيفرست كم هي باردة . واقفاً على الثلوج تنزلق قدمي وأهوى من القمة العالية ، أهوى . لكنني لا أرتطم بالأرض ، أتحدرن نحوها برفق حتى أستقر على الرمال . وفي الرمال رائحة الدماء ، دماي أنا . هل سمعت أحداً يقول أن عندي غرغرينة ؟ اسمها جانجرين ولكنهم لا يعلمون . لكن في دمي كرات كثيرة بيضاء سوف تأكلها . لحسابي تأكلها ياترى أو لحسابها ؟ كل الأجسام العضوية تحب الأكل ولذلك قال شوبنهاور أن الحياة شر . لكن هذا لا يهم بالطبع مادام الكون آخذاً في التمدد ، خصوصاً وهو في الوقت نفسه آخذ في الانكماش . فقاعة صابون كبيرة حمراء تطير كالبالون في ضوء الشفق الأحمر . بلون دمي . بلون التفاحة التي تنمو مع كل دورة عقرب . لماذا أجد في فمي طعم التفاح ؟ أمي ماتت فن ذا الذي يسقينني وأنا مريض ؟ وسألها مرة هو الحب حرام يا نينة ؟ قالت كلا إذا كان شريفاً . وأمي كانت فلاحه مثل أبي ، فخلعت جلبابي يوماً ونزلت إلى التربة . فلاحه عجوز مرت على السكة الزراعية

تحمل حطباً كثيراً . وبجانب الزراعية غابة من عيدان الذرة . الذرة العويجة والبنادق الموزر ورائحة الدم في أنفي . لماذا لاتعدلني زازا كما عدلت الجمجمة ؟ إن كان هذا لأن الشمس مؤشدة . . .

* * *

لعلك استنتجت من واقعة كتابتي لهذه السطور أنني لم أمت ، وأن الحمى التي أصابتنى بسبب الطعنة لم تكن من النوع القاتل — القاتل لي أنا على الأقل . كم من الزمن رعدت أهذي ، وماذا حدث في الجزيرة طوال تلك المدة ، كل هذه أشياء عرفتُها فيما بعد من زازا عندما عاودني الوعي . لذلك أكتفي بأن أخلصها لك على عهدة زازا لا عهدتي أنا ، واثقا من أن زازا لم تبذل أي محاولة لنشويه الحقيقة — لماذا تفعل ؟ ما كدت ألتقي طعنة كرشة في ظهري — روت زازا — حتى صرخت بقوة وسقطت على الأرض مغشياً على ، صرختي أيقظت توتو الذي وثب في اللحظة المناسبة لكي يمنع كرشة من توجيه طعنته الثانية إلى ، تلك الطعنة التي تؤكد زازا أنها كانت لا محالة قاضية على . وبينما أنا ملقى على الأرض دارت بين توتو وكرشة معركة عنيفة ، كل منهما يحاول أن يحصل على الخنجر لنفسه . ثم رفعة طائشة من قدم كرشة أصابت الحاج طلبة في جنبه فهب من النوم مذعوراً . فلما تبين ما يدور حوله قام متحاملاً على نفسه ومد يده إلى جيبه ليخرج المسدس ، لكن زازا

أسرعت إليه لتمنعه ، لا يجوز لأحد كما أوصيتها أن يكتشف سر
المسدس الفاضى . فلما رآها تعترض طريقه صفعها صفعة شديدة
ألقت بها أرضاً ، وكاد يخرج المسدس لولا نوبة السعال الشديد التى
اعتريته فجأة . راح يسعل ويسعل وجأة ترنح وانكفاً على وجهه
والزبد يسيل من فمه .

— إلقوا الحاج ! إلقوا يا كرشة ! صرخت زازا .

فالتفت كرشة إلى الحاج الساقط وكف عن العراك ، ولم يعترض
على ذلك توتو الذى لم يطلب العراك أصلاً . فلما خفت نوبة السعال
واستطاع الحاج أن يسترد أنفاسه وقف كرشة يتفحصنى حيث رقدت
فاقد الرشده ، يده تداعب الخنجر المعلق فى حزامه كأنه يفكر فى
ضربى من جديد . ثم غير فكره لا تدرى زازا لماذا ، والتفت
إلى توتو صارخاً فيه إطلع بره يا ابن الكلب ! فلما تردد توتو
فى الخروج لوح له كرشة بالخنجر مهدداً ، ومد يده إلى الباب ففتحه
بقوة ، تلك الحركة التى كانت كلها بركة . إذ أنه ما كاد يفتح الباب حتى
حدث آخر شيء كان يتوقعة ، طن من الثلوج على الأقل تدفق فجأة
من الباب الذى انفتح ، هوى فوق كل من كرشة وتوتو ودفنهما
تحتة . فما برحا يجاهدان حتى خرجا ، وقضيا ساعة يحاولان كسح
ذلك الثلج إلى الخارج . لكنها كانت محاولة عديمة النفع ، كلما دفعوا

إلى الخارج كمية من الثلج دخلت بدلها كمية أكبر . وحتى الخروج
من الكوخ أصبح متعذراً لانسداد الباب بأكداس الثلوج . فكفوا
عن المحاولة ووقفوا يلهثان ، صارت الدنيا برد موت . فأشعلوا نارا
ثانية بجانب الحاج وكانت ليلة . من شدة البرد لم يغمض لها جفن ،
شأنها فى ذلك شأن توتو وكرشة . إذ جلس الرجلان حول النار
يتبادلان نظرات التربص ، كل منهما يصبى وتتدلى رأسه على صدره
فيسارع برفعها فجلاً ، وحشان يتوقع كل منهما أن يروح الآخر
فى النوم فيثب عليه ويبطش به . وهكذا عاشوا يومين كاملين ،
مهدين بالموت برداً وجوعاً فكيف يخرجون من الكوخ للحصول
على التفاح أو السمك ؟ وجأة شعروا بالشمس تشرق فى الخارج ،
وبدأ الثلج يذوب شيئاً فشيئاً . الثلج يتحول إلى ماء يسيل
على أرضى الكوخ ويهدد بالغرق كلا منى ومن الحاج الذى يرقد
على الأرض مثلى . فحمل كرشة سيده وأرقده على السرير الخشبى ،
أما أنا فتولت زازا وتوتو كسح الماء بعيداً عنى . ولما كانت أرض
الكوخ لحسن الحظ منحدرة بمض الشئ إلى الخارج فقد أخذت
المياه تصرف نفسها ، سرعان ما انحسرت عن الكوخ توطئة
لأنحسارها عن الجزيرة كلها . فخرجوا إلى الشمس كالمجانين يلتمسون
الدفء والتفاح والسمك . يومان آخران وبدأ الحاج طلبه يتماثل
للشفاء ويتساءل عن سر ما حدث .

— تصور يا حاج ، قال كرشة ، إني اصحى من النوم الاق ابن الـ ..

ده بيوصها ؟

— والله يا حاج ما حصل ! هتفت زازا بجمرة ، والله ما حصل !

ده كرشة كان بيحلم !

واستخدمت كل ذكائها في تدبير الكذبة المناسبة ، وكل مهارتها التمثيلية في إدخال الكذبة على الحاج . إذ روت له كيف أنه — الحاج طلبة — أخذ فجأة يئن ويتوجع ، لم يسمعه أحد سواي أنا فحقت إليه . جثوت بجانبه أسأله مالك يا حاج ، سلامتك ! فبينما أنا جاث هناك إذ استيقظ كرشة فجأة ، وبسبب كل من صحوه المفاجيء والظلام رأى المسألة بالقلوب ، ظن أنني هناك بسبب زازا لا بسبب زوجها المريض ، فبادر بدون أن يتحقق من الأمر إلى توجيه طعنته الشريرة إلى .

— والله يا حاج شفته بيوصها ! قال كرشة يائساً ، والله

كان بيوصها !

— والله كذاب ! والله ما حصل !

ومن عيون زازا طفرت الدموع ، دموع الزوجة التي يتهمونها

في شرفها زوراً وبهتاناً . والحاج طلبة يستمع إلى الطرفين وهو ينفخ من الغيظ ، ولا يعرف من يصدق منهما .

— ده يتجراً ويقرب منى ف وسط تلت رجالة ؟ ! قالت زازا في ازدياء وهي تشير إلى حيث رقدت فاقد الرشد ، ده جبان يخاف من خياله !

— والله العظيم طلالة شفته بيوصها ! قال كرشة متمسكا .

— إخرس يا مجرم ! أنا بتاعة كده ؟ طاب والله العظيم يا حاج لو صدقته لا انت جوزى ولا اعرفك ! آل بيوسنى آل .

وبصقت على الأرض وانصرفت غاضبة تبرطم .

— مثلت لك الدور ده يا بنى تمثيل ! تحكى لى زازا ، والله العظيم الآخر كنت حاصدق نفسى !

كل هذا وأنا ملقى على الأرض ساخناً كالنار محمواً أهذى . وكانت زازا قد عمدت بعد انقضاء معركة توتو وكرشة إلى تضמיד جرحى لإيقافه الزيف بقطعة من ذيل قميصها الوردى ، وذلك بعد أن كبست الحرح بالشئ الوحيد المتاح لها وهو الثلج . فلما ذابت الثلوج وتمكنوا من مغادرة الكوخ بدأت تحضر للماء لتسكبه في فمى ، وتحايلت على عصر التفاح وإضافته إلى الماء . لم يحاول الحاج منعها من تمريضى لأنه مال في النهاية إلى تصديق قصتها أو هكذا

أظهر ، كما أن إسعاف المريض وإغاثة المنكوب أمر تقضى به الأخلاق ،
والضرب في الميت كما قال مرة حرام .

كذلك حرص الحاج على حياته بسبب المركب ، فمن يصنعها لهم
إذا أمات ؟ فلما طال مرضى رأى الحاج أن يجرب مواهب الهندسية ،
راح يأمر توتو وكرشة وهما يشتغلان .

— إكحت هنا ! إنحت هنا ! لا موش هنا ! نعم هنا شوية .
دوس هنا كان !

وهكذا حتى تم تفريغ جذع الشجرة وبدأ يتحول إلى ما يشبه
المركب ، فراحوا يعملون الأدوات في جوانبها من الخارج لكي
تستريح وتصلح لاعتلاء الماء . ثم نظر الحاج إلى نتيجة عمله ذات
صباح وقال خلاص ، نزلوها يا جدمان ! وبينما تعاون توتو وكرشة
على دفع المركب إلى الماء وقف الحاج يتلو ما حضره من الأدعية
والصلوات المناسبة للمواقف البحرية .

— أما كنت فرجة يا بني ! تحكى لي زازا ضاحكة ، والله
ولا والت ديزنى !

إذ ركب الرجال الثلاثة في المركب وساروا بها خطوتين ، ثم
فوحثوا بها تميل إلى اليمين وتوشك أن تنقلب ، فقالوا جهة اليسار
حتى يعدلونها ، لكنها لم تعتلد ، مالت معهم إلى اليسار حتى كادت

تنقلب ، فقالوا يميناً فمالت يميناً ، ومالوا يساراً فمالت يساراً .
أينما مالوا تمل معهم ، وأخيراً قررت أن تميل جداً ، فإذا بالرجال
الثلاثة في الماء وهي فوقهم .

فقلبوها واعتلوها من جديد ، خمس مرات يعيدون التجربة
ويحفظون بنفس النتيجة . كلما ركبوها قلبتهم في البحر ، ثم يريدون
أن يركبوها وهي تريد أن تركبهم . وزازا واقفة على الشاطئ تتفرج
وتكاد تموت من الضحك ، حتى أنها زعلت عندما يثسوا من
التجربة وأقلعوا عنها .

— كان لازم يعنى تضربه يا بن الكلب !؟ صرخ الحاج في
كرشة وهو يغلى من الغيظ .
— هه ؟ قال كرشة في بلاهة .

— للهندس اللي ح بينى لنا المركب ، شرح له الحاج ، تضربه
ليه ؟ راجل ممعنى بانازع وجاى يطمن على ، تضربه ليه يا بن الكلب !؟
— وشرفك يا حاج كان يببوصها ! وضيئى وأيماني كان . .

— إخرس يا طور ! موش حايز اممع الكلمة دى تانى . جتلك
البلاف غباوتك وزناخة مخك ؟

فانصرف كرشة يضرب أخماساً بأسداس ، ومن تلك اللحظة

صار همهم الوحيد هو انتظار شفاى ، حتى أن الحاج كان يدعو لى
بنفسه بعد كل صلاة .

— توتا توتا فرغت الحدوتة ، قالت زازا فى النهاية باسممة ،
حلوة ولا ملتوتة ؟

فلم أجبها لفورى ، رحت أنظر إليها طويلا ، طويلا جداً رحت
أنظر إليها .

— زازا ، قلت لها أخيراً .

— همهم ؟ سألتنى .

— أحبك ، أجبتها .



الفصل السادس عشر



يُخيل إلى حيث رقدت أنتى سأخرج لأجد كل شىء .
متغيراً ، لكن أبدأ . خرجت فوجدت كل شىء على
حاله ، شجرة التفاح التى تتوسط الجزيرة مثقلة الفصون بالتفاح
الأحمر والأخضر ، وبئر المياه والجرة بجانبها ، والبحر الذى عاد
صامتاً كما كان ، والأفق للمستدير الذى يحصر المياه حولنا من كل
ناحية . لكننى اكتشفت اختفاء الجمجمة والعظام ، جرفتها الأمواج
فى أثناء العاصفة . فلو كنت ممن يهتمون بتلك الأمور لقلت أنه
قال حسن ، لكن شعورى كان عكس ذلك . افتقدت تلك الجمجمة
التي تعلمت أن أحبها .

شىء واحد تغير فى الجزيرة وهو وجوه سكانها ، إذ نظرت

إليهم فكأنما فارقتهم منذ سنوات . الكراميش في وجه الحاج طلبة
أصبحت أخايد ، ومن لحيته وشعره كاد يمتحن كل أثر للشعر
الأسود . في عشرة أيام أصبح الحاج عجوزاً ، وكاد الشيء نفسه
يحدث لتوتو وكرشة . إلا زازا التي يبدو أنها لا تتغير أبداً .

— ألف حمد لله على سلامتكم يا باشمهندس ، قال لي الحاج طلبة
بشوق وهو يقبلني على خدي الأيمن .

في وجهه عليه اللعنة رائحة من زازا .

— والله ما تعرف كنت مخضوض عليك أد إليه ؟ أضاف وهو
يقبلني على خدي الأيسر .

طبعاً تخض على يا وغد ، ألسنت أنا الذي في يده خلاصك ؟

— صدق اللي قال ادي العيش خبازه ، قال وهو يقودني نحو
جذع الشجرة ، الهندسة برضه لها أهلها .

وكانت المركب مقلوبة فتعاونوا على عدلها ، نظرت إليها ورفعت
حاجب السخريّة الأيسر .

— دي ، سألتهم ، مركب ؟

فقالوا آه .

— أنا باحسبها موتوسيكل !

فتضاحك الحاج طلبة ، وابتسم كل من توتو وزازا .

— موتوسيكل ؟ إلا موتوسيكل دي ! قال كرشة .

فتلفت حولي متظاهراً بالبحث عن مصدر الصوت .

— أنا سمعت حد بيتقول حاجة ؟ تساءلت بازدياء .

— إسكت يا كرشة ، قال له الحاج .

فوقفت - أنا للهندس المنتظر - أجيل بينهم نظرات ساخرة
لاسعة حرافة .

— إتنو طبعاً منتظرين اني اصلح لكم الـ الـ المركب دي ،
موش كده برضه ؟

— طبعاً يا باشمهندس ، فيه مين غيرك ؟ قال الحاج في تواضع
لا بأس به .

— عشان اصلحها لي شوية شروط .

فسكتوا في انتباه ، عيونهم تطوفني في لففة .

— أولاً ، قلت ثم سكت لكي أزيد من لففتهم ، لازم البأف
ده ييجي ييوس إيدي ويستسمحني .

وأشرت ناحية كرشة الذي راح يتلفت حوله فلم يجد في الناحية
أي بأف سواه .

— بأف ؟ أنا بأف يا باشمهندس ؟

— تستاهل يا كرشة ، قال له الحاج طلبه ، وزى ما ضربته لازم تستمحه .

— أصطصحه ؟

— وتبوس إيدك زى ما قال ، أضاف الحاج بحزم .

— أنا ابوص إيدك ؟ قال كرشة فى ذهول .

— آه ، موش كنت ح تقتله ؟ موش عارف انه يقدر يوديك

بحكمة الجايات ؟

فراح كرشة يحمق فى وقد انفرفه ، بينما بسطت نحوه ظهر يدي لى يقبلها ، مسبل الجفون أنظر إلى الناحية الأخرى فى كبرياء .

— بوس ا قال الحاج أمراً .

فتصعب كرشة وضرب كفاً بكف .

— اصطفقر الله العظيم يارب ، قال بمرارة ، عشت يا كرشة

وبصت الإيضين !

وتناول يدي فطبع عليها قبلة لوجة مقرزة شائكة كأنها

عضة لا قبلة .

— اسمحوا لى بقى بشوية مية ، قلت للحاج .

— هات له مية يا كرشة .

وبينا أحضر الحرة ظللت باسطاً يدي أبعد ماتكون عن جسمي ، توطئة لأن أسكب عليها من الجرة لأطهرها .

— شوف ابن الـ . . . اصاح كرشة .

— كرشة ا قال الحاج ناهراً .

— ده يفكرنى بالشرط التانى ، قلت للحاج طلبه ، إذا الجدع

ده وجه لى أى كلمة ح ابطل شغل .

— من هنا ورايح مالكش أى دعوة بيه يا كرشة ، قال له الحاج ،

وأى حاجة يقولها لك تعملها على طول ، سامع ؟

— صامع ، قال كرشة فى استسلام .

— يا لله يا باشمهنضس ، قال الحاج ، إحنا ضاع منا وقت كثير .

— أولاً ناولونى الخنجر .

فناولوه لى ، أعملته فى لحيتى وشعرى بالتهذيب ، وفى أظافرى

بالتهذيب ، ثم قصدت إلى شجرة التفاح ورسمت عليها عشر علامات

بعدد الأيام التى يقولون أننى رقدتها ، ثم قطعت تفاحة واتجهت إلى

للمركب وأنا أقرشها .

— موش مصدق أبداً أن دى مركب ، قلت لهم ، ده نعش بس

ناقصه الكسوة !

وبدأنا العمل ، إ كحت هنا وانحت هنا ، نعم هنا دوس هنا ،

أصلح ما أفسدوه بجلافتهم الهندسية . ساعتان وأنا أعطى الأوامر حتى تمت .

— طاوز اتغدى ، أخطرهم .

فصاد توتو السمك وشواه ، كانت ست سمكات أكلت منها ثلاثاً وحدى .

— أنا موش واخدم طمع ، أفهمتهم ، لآ ، بس عشان القوسفور مفيد للتفكير .

وكان الحاج يريد أن أوصل العمل بعد الغداء لكننى اعتذرت . — ما تنساش انى لسه قايم من العيا ، ولازم ادخل اقبل شوية . واتجهت بجلال نحو الكوخ ، دخلته وأقفلته على لأنام . فلما أخذت حتى من الراحة نهضت وقصدت إلى المركب من جديد .

— هاها ، ضحكت وقد وقع بصرى عليها ، طب والله لولا قلتولى إنها مركب كنت افكرتها عربية كارو !

فضحك الحاج طلبة ضحكة صفراء ، وتصعب كرشه فى صمت . — أنجر ! قال توتو فجأة وهو يناولنى الخنجر .

— الله ! هتقت ، ده نطق !

— ح بقعد المدة دى كلها ما يلقطش منا كلمة ؟ تساءل الحاج ، ده لو حيلة كان اتعلم .

— الخنجر أنجر ، قالت زازا شارحة ، والمركب أركب ، والشجرة أجرة !

وضحكت زازا فضحكت وضربتها برفق على ظهرها ، زغرلى الحاج وقال إحم .

بالخنجر والمنشار واصلنا العمل ، خمس علامات جديدة رسمتها على جذع شجرة التفاح ونحن نعمل . كلنا نعمل بما فينا الحاج طلبة ، ولعله كان أشدنا حماسة للعمل ، معذور وهو يحمل فى وجهه كل تلك الغضون والأخايد . بالخنجر والمنشار ننحت ونكحت ، شيئاً فشيئاً بدأ الموتوسيكل يتحول إلى مركب . فوقفت ذات صباح أخمص نتيجة عملنا ثم ابتسمت .

— أفكر يا ولاد ، قلت لهم باسم ، إنها بقت مركب .

فتهلل وجه الحاج طلبة .

— معنى نزل نجر بها ؟ سألنى بلهفة .

— ما فيش مانع ، قلت له بسماحة علمية ، تقدر تنزل .

— يا لله يا جدعان ، صاح وهو يشمر أكمامه ، يا لله !

— بس أنا موش طاوز اتبل ، أفهمتهم .

واعتليت المركب وهى ما تزال على الشاطئ . داعياً زازا إلى مصاحبتي ، بينما راح الرجال الثلاثة يدفعون المركب وينزلونها إلى

البحر . فلما صار الماء عند ركبهم قفزوا ليركبوا ، أخذت بيد
الحاج لأعينه على الصعود . وكنا قد نحتنا ما يشبه مجدافين كبيرين
تناول أحدهما توتو وتناول الآخر كرشة وراحا يجدفان .

— دى مشيت يا جدمان اهتف الحاج بفرحة طفل صغير ،
مشيت والله ماشية !

ورفع يديه إلى السماء وراح يطرها بالحمد والشكر .

— متبياًلى يا حاج ، نهته ، إنى انا استحق كلمة شكر .

— كلمة وبس ؟ دنت تستاهل بوسة !

وهجم على يفرق وجهى بقبلاته كأنه يأكلنى .

— ما كنتش عارف ، قلت له وأنا أصدده عنى ، إن البوسة

منك انت !

فنظر إلى بنحيت ثم التفت إلى زازا .

— كافئيه يا عزيزة ، يستاهلها !

فالت زازا على وقبلتنى ، ولكى أعرب عن شكرى ملت عليها
وقبلتها قبله يبدو أنها تجاوزت حدود الشكر فقال الحاج إحم .

المقاديف تضرب الماء وسفينتى تسير باسم الله مجريها ومرساها .
على الماء تنزلق برشاقة البجعة الحسنة ، يارك الله فى غنى الهندسى القذ .

— بدمتكو صحيح ؟ سألتهم بمد حين .

— صحيح إيه ؟ سألونى .

— كنتو طازين تنزلوا البحر بوابور الزلط ده ؟ !

فضحك الحاج ملء وجهه الذى يموج بالفرحة والأمل . على الماء
تمشى سفينتى ، تنساب وتهادى على إيقاع جميل من خفق الموج
على جنبها .

— من هنا ورايح ، قالت زازا ضاحكة ، حقنا نسميك
أحمد نوح !

— لكى حق والله ، قلت مصداقاً ، ولو ان فيها من كل صنف
واحد بس !

وأشرت إلى ركاب السفينة فضحكت زازا وضربتني على ظهري .

— متبياًلى سرعتنا خفت شوية ؟ تساءل الحاج بعد حين بقلق .

— قول للطور ده يقذف زى الناس ، قلت مشيراً إلى كرشة .

— قذف كويس يا كرشة ؟

— ما انا باقصف ايه ، برطم كرشة ، إمال انا باعمل إيه ؟
لكن سرعتنا كانت قد خفت فعلاً ، حتى بدأ القلق يساورنى
أنا الآخر .

— على كل حال الحق موش ع المركب ، نهت الحاج ، كل ما بندخل
جوه الموج بيتقل .

— كلام معقول ، قال مستعداً لقبول أى تفسير .

ثم بدأت المركب تحيد حية اليمين .

— إعدل المقداف يا أخينا ، قلت لكرشة .

— ماهو معضول آهه .

وكان فعلا معدولا ، وكذلك مجداف توتو ، لكن المركب ظلت تحيد إلى اليمين . كنا نسير والجزيرة خلفنا فأصبحت الآن عن يميننا ، رقعة أرض صغيرة على مسافة تقرب من الكيلو .

كنا نسير مبتعدين عنها والآن نسير بمحاذاتها .

— حاجة غريبة خالص ، قلت فى غيظ ، فاولنى المقداف .

تناولت مجداف كرشة على أمل أن أعدل من سير المركب ، إذ كانت لى خبرة بالتجديف أيام الجامعة . جدفت كما يجب أن يكون التجديف ، وجعلت توتو يحذو حذوى ، لكن هذا لم يغير من الأمر شيئاً . المركب مصرة على أن تسير بمحاذاة الجزيرة بدلا من أن تبتعد عنها ، كأنها تنوى أن تدور حولها . فلو لم تكن تدور حولها فلماذا هى طول الوقت عن يميننا ؟

— عندى فكرة ، قلت .

— إلحقنا بها يا صى نوح ا قال كرشة ساخرآ .

حولت حركة الجدافين بما يجعل المركب تتجه نحو الجزيرة

عمودياً لكى أرى إن كانت تستطيعنا أو تظل تدور حول الجزيرة . فأطاعتنا المركب ، أخذت تقترب من الجزيرة وبسرعة أكبر مما نطلب . فعمكست الوضع ، أدت المركب كما كانت جاعلا الجزيرة خلفنا ورحنا نجدف ، أطاعتنا المركب أيضاً . راحت تبتعد عن الجزيرة كما حدث من قبل ، حتى وصلت إلى نقطة معينة فحادت إلى اليمين وبدأت تسير بمحاذاة الجزيرة . من جديد رفضت المركب أن تبتعد عن الجزيرة وأصرت على أن تدور حولها .

— حاجة موش مفهومة بالمره ، قلت معلنا حيرتى .

— حاجة تجنن ! قال الحاج وهو ينفخ .

— طب والنبي فسحة حلوة ! قالت زازا .

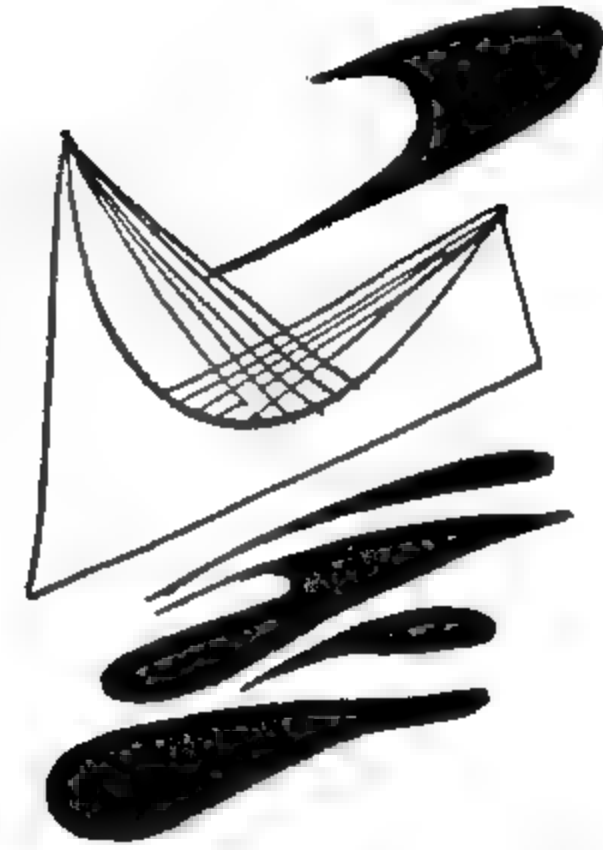
— فصحة ! قال كرشة وبصق فى البحر .

عاودت تجربة العودة إلى الجزيرة فأطاعتنا المركب ، وطاودت تجربة الابتعاد عنها فأطاعتنا ، لكننا ما كدنا نبلغ نقطة معينة حتى عادت تدور حول الجزيرة . وجأة حدث ما هو أغرب من ذلك .

جأة بدأت سرعة المركب تزيد بالرغم من أننا توقعنا عن التجديف ، شيئاً فشيئاً أخذت تزيد حتى أصبحنا نجرى لا نسير ، كأننا فى لنش بخارى حديث .

— ياساتر يارب ! هتف الحاج في فزع ، ياساتر يارب !

بسرعة شديدة تدور المركب حول الجزيرة ، وبالطبع تتقلقل وتمايل وتضطربنا إلى التشبث بمحافتها بكل قوتنا مخافة أن تنخلع منها .
صوت الماء تحتنا أشبه بصوت شلال يتدفق ، والأفق يدور حولنا ويدور حول مركز واحد هو الجزيرة .



— ياساتر ! ياساتر ! ياساتر ! ودد الحاج طلبة .

— دحنا كإتنا ف لونا بارك ! هتفت زازا .

ولاحظت أنا ظاهرة جديدة ، أننا في دوراتنا حول الجزيرة

نقترب منها في الوقت نفسه ، كأن المركب تدور في خطوط حلزونية تدنينا من الجزيرة ولا بد أن تنتهي بنا إليها .

— إحنا بنقرب م الجزيرة ! صاحت زازا مبتهجة .

شيئاً فشيئاً تضيق الدوائر حتى أصبحنا على بعد خطوات من الجزيرة ، درنا حولها دورتين أخيرتين ثم انتهينا إلى الشاطئ .
صدمة عنيفة ومقدمة المركب تنفوس في الرمال فكدنا نندلق منها على الأرض .

— حمد الله ع السلامة ! قالت زازا بضحكة صغيرة .

لكن أحداً لم يجيبها . الحاج طلبة يدمدم بصلوات لم أسمعها ، وتوتو قابض على المجذاف يتفحصه في بلاهة ، وكرشة التفت إلى وراح يتفوس في نحواً من دقيقة كاملة ، لو أن النظرات تقتل لقتلتي نظرتة . وأخيراً نطق .

— اطفوا عليك مهندس ! قال وهو يغمر وجهي ببصقة .



الفصل السابع عشر



مرات في خلال يومين كررنا تلك التجربة اللعينة
 — تجربة الخروج بالركب من الجزيرة ، وفي كل مرة
 تتكرر المأساة نفسها . المركب تدور حول الجزيرة كأنها مشدودة
 إليها بحبل ، ثم تعود إليها في تلك الدوائر الحلزونية الفاجعة . فوق
 كرشة يشويني بنظراته الحاقدة ، ثم بسط ذراعيه كأنه سيرقص .
 راح يتقصع في وقاحة ويقلدني وأنا أسوق إليهم تعليقاتي الهندسية .
 — إكحط هنا ، إنحط هنا إخفف هنا ، طقل هنا إ نعم هنا ،
 خشن هنا . دي موطوسيكل إ دي عربية كارو إ دي وابور زلطا
 آهي بقت مركب يروح امك ، عملنا بيها إيه ؟ ياخي جتك سطين نيلا
 ع اللي علمك الهنضة إ

فدارت في ذهني تعليقات كثيرة ، لكنني احتفظت بها لنفسى
 بالطبع . ورمقه الحاج طلبية في امتعاض .

— وهو ذنبه إيه ياأخي ؟ سأله لأثما ، هي المركب موش مشيت
 بينا ؟ هي موش طامت بينا ؟

— طب وبطرجع طاني هنا ليه ؟ سأله كرشة وهو يضرب
 براحته اليمنى ظهر يده اليسرى .

فتريث الحاج فترة قبل أن يجيب .

— البحر ده فيه حاجة ، قال الحاج طلبية بنبرة خوف ، الجزيرة
 دي كلها فيها حاجة . أنا احلف انها مسكونة ولا معمول لها عمل إ
 فلم أعلق على هذا الكلام أيضاً ، لا أظن أنه يستحق التعليق .
 — أنجبر إ قال توتو مشيراً إلى الخنجر .

فناولناه إياه وقد ظننا أنه سيصيد السمك ، لكنه انطلق
 به إلى المركب وجثا بجانبها ، راح يتأملها حيناً ثم بدأ يحك بالخنجر
 في نقطة راقته من مقدمتها .

— يا سلام يا صيدى ، تصعب كرشة ، قال دي يعنى اللي كط ناقصة إ
 ثم التفت إلى أنا .

— جطكو نيلا مهنضين ؟

— جتك ستين نيلا انت إ أفلتت مني الكلمة .

— احترم نفسك يا أسطاز !

أجابني شافعاً إجابته بزغد .

-- يخلصك كده يا حاج ؟ سألت المذكور من حيث انبرشت
على الأرض .

— ماتحل عنه ياواد يا كرشة ! قال له الحاج زاجرا .

فوقف كرشة يصوب إلى الحاج نظرة طويلة متحدية من خلال
جفونه الثقيلة المتهدلة ، نظرة لا أذكر قط أتى رأيتها يصوب
إليه مثلها .

— أنا حرف نفسي ، نطق كرشة أخيراً ، ما حدش له عنضى حاجة !
فاحمر وجه الحاج حيث جلس متشاغلاً بالتسبيح ، بينما حافظ
كرشة على وقفته المتحدية ونظرته المتعشرشة . هل قرر الكلب خجأة
أن يتمرد على سيده ؟

— إنت بتبوا فى ياواد ؟ زجر الحاج طلبة غاضباً .

لكن كرشة لم يتأثر .

— طب بص ما تقولش واه ! أجابه بنفس اللهجة المتحدية ،
أنا راجل ظيبي ظليك ، آه !

فازداد وجه الحاج احمراراً ، وراح يحملق نحو كرشة فى غضب
شديد تمازجه دهشة أشد ، ولمسة من الخوف تراءت فى عينيه

واضحة . ثم أشاح بوجهه فى صمت وامتدت يده بحركة لا شعورية
تتحسس جيبه ، فما لبث كرشة أن أولانا ظهره وابتعد بعد أن بصق
على الأرض تعبيراً عن شعوره بالموقف كله . نعم هو قرر أن يتمرد
على سيده ، أمر ثبت لنا بوضوح فى اليومين التاليين . فإذا استثنينا
تلكثرة الطارئ فى تنفيذ طلبات الحاج طلبة ، وتجاهله التام لها
فى بعض الأحيان ، فهناك الطريقة الجديدة التى بدأ يتبعها فى التطلع
إلى زازا . كان فيما مضى يغض البصر إذا واجه زوجة سيده ،
أما الآن فهو ينظر إليها بصفاقة ويتسم أيضاً . نظراته الوقحة تكاد
تخترق جليابه المحيط بجسمها ، وريالته تكاد تسيل من فمه . ثم
تجاوزت جراته حدود البهولة ، إذ مرت به زازا يوماً فإذا به يشرع
فى الغناء .

— أتمخبرى يا حلوة يا ظينة ، طرئم كرشة ، ياورضة من جوه
جنينة !

هو طبعاً لا يوجه الأغنية مباشرة إلى زازا ، لكنه كما يقولون
يريد أن يسمعها . ولم يكن الحاج طلبة موجوداً لحسن الحظ ، كما أنه
لم يكن موجوداً فى المرة الثانية ، عندما جاوز كرشة بجراته كل
الحدود . إذ مرت به زازا فى طريقها إلى البئر وكان هو جالسا
على الأرض ، فإذا به يرفع ذراعيه ويشرع فى طرقة أصابعه
وهو يترقص .

— هظ ياوظ ! هظ ياوظ ! هظ ياوظ !

هكذا ظفها — أعنى زفها — حيث سارت أمامه ، لم ترهبه
نظرة الاحتقار التى رجته بها زازا .

— صلاة النبى أحصن ! قال كرشة وهو يلعب حاجبيه ، بأرض
احفظى ما عليكى !

ولم ينس أن يواصل الرفة حين عادت زازا من عند البئر
بالجرة المليئة .

— هظ ياوظ ! قال كرشة وهو يصفق ، هظ ياوظ !

وكانت زازا معذورة فى الضحكة التى أفلتت منها وهى تواصل
رحلتها نحو الكوخ ، تلك الضحكة التى أثرت فى كرشة حتى جعلته
يستلقى على ظهره ، رافعا ساقيه ومحركا إياها فى الهواء كأنه يركب
عجلة بالمقلوب .

— بظمتك ياباشمهنضس موش حرام ؟

— هو إيه الذى حرام ؟ سألته بازدرء .

— الحاج يطمطع بالجمال ده كله واحنا قاعدين نطفرج ؟

وبالرغم من موافقتى له على هذا رأى فلم أصارحه به ،
لا تعجبنى فكرة وقوع الجمال المذكور بين ذراعى الغوريلا . فلما
كان اليوم التالى تبين لى أن الأمر أخطر بكثير مما أتصور ، وذلك
عندما انتهزت زازا فرصة ابتعاد الآخرين وأتت تمحدثنى .

— كرشة ده اتجبن خالص ، أخبرتنى ، تصور انه خلاى ماشية
وقرصنى فى دراعى ؟ !

— يا نهار اسود ! ده لو الحاج عرف كان يضربه بالرصاص .

— اللى رميته فى البحر ؟ سألتنى ساخرة .

— ما كانش حقك ترميه أبداً .

فلم تعاق على هذا رأى ، ووقفت تتأملنى .

— إنما انت إيه حكايك الأيامدى ؟ سألتنى بنظرة جانبية ماكرة .

— حكايى ؟

— آه حكايك . لا بتسأل على ولا بتكلمنى ، ولا كأنك

تعرف واحدة اسمها زازا !

حقاً إتنى أهملتها فى العهد الأخير بصورة وضيمة ، ولكن
للضرورة أحكامها .

— لو حصل لك اللى حصل لى ، صارحتها وأنا أشير إلى كتنى
الأيسر ، كتنى تعرفى إيه حكايى .

— عزيزة ! أتى صوت الحاج طلبه منهيأ حديثنا .

أما كرشة فقد رسم فى مساء اليوم التالى بداية عهد جديد تماماً ،
عندما رأى الحاج طلبه يدخل إلى الكوخ مع زازا فقال لنفسه
هع ، توطئة لأن ينادى الحاج بصوت يقطر استهزاء .

— يا حاج طلبة ، صاح كرشة ، ما يلطمش خضمة ؟

فحمد الحاج طلبة في مكانه ، سمع النداء ولكنه لم يلتفت إلى المنادى . وقف عند باب الكوخ يستوعب ما سمع ثم مد يده إلى جيبه حيث يوجد للسدس . نحواً من دقيقة جمد الحاج على هذا الوضع وهو يفكر ، فالحمد لله أنه انتهى من التفكير إلى تغليب الحكمة ، إذ دخل في صمت وأقفل الباب وراءه . فعند ذلك خطرت لي أنه قد يكون من الواجب على أن أخطره بأمر سدسه الفاضى ، خير له أن يعرف حدود قوته في مواجهة كلبه الذى السمر .

— ههه ! قال كرشة ، ههه هه هه !

فتركته وذهبت لأنام ، وقبيل الفجر صحت مذعوراً . صحت على صوت أذكر أنني صحت على مثله من قبل ، صوت جسمين عاريين يتلاطمان بقسوة وعنف . فنهضت لكي أرى للمنظر القديم نفسه على ضوء القمر الشاحب ، منظر توتو وكرشة وقد التحما في معركة دموية بالبونيات والروسيات ، وبالمخالب والأسنان ، والخنجر ملقى على الأرض بالقرب منهما ، فأسرعت بالتقاطه وإخفائه وراء ظهري . وانفتح باب الكوخ عن الحاج الذى أيقظته الضجة ، وقف يتأمل المنظر حيناً ثم التفت إلى .

— فين عزيزة ؟ سألتني بسرعة .



— زازا ! هتفت في دهشة ، هي موش معاك جوه ؟

وقبل أن يجيب أانا صوت زازا .

— ما نا قدامكو آهه !

وكانت في الحقيقة خلفنا لأمامنا ، فالتفت الحاج إليها في غضب
وعم بأن يقول لها شيئاً ثم عدل والتفت نحو المتعاركين . ظل
يرقبهما حيناً ثم اتجه إليهما وهو يخرج للسدس من جيبه .

— بس منك له ! صرخ فيهما ، بس يا كرشة ! سيبه يا ولة !

فصدع كرشة وترك توتو ليواجه الحاج .

— بدل ما تقل أضبك على ، قال له في غيظ وهو يلهث ،
إصألني باضربه ليه .

وتوقف لحظة ليأخذ نفسه .

— باضربه عشان صيادتك نايم زى الجرضل ، شرح له ، وهو

واخذ مراطك ورا للركب وناطل فيها بوص !

فتدلى فك الحاج في بلاهة ، معذور والله إزاء هذه التشكيلة
من الشتائم والمعلومات .

— كذاب في أصل وشك ! صرخت زازا في كرشة ،

كذاب !

والتفتت إلى الحاج .

— هو اللي خلاقي رايحة اشرب وجه يما كسني ، جه توتو
يحوشه عني مسكوا ف بعض ا

فازداد وجه الحاج طلبه بلاهة ، في حين شرع كرشة يشد شعر
رأسه بكلتا يديه .

— يا عالم ! ياهوه ! يا مصلين ! أنا ما كصتلك يا ولية ! أنا قربت
منك خالص ؟ ما كانش واخذك ورا المركب وناظل فيكي بوص ؟

— بس يا كذاب ! هتفت زازا ، ما خلتنيش ماشية لأول امبارح
وقرصنتي في دراعي ؟

فتردد كرشة لحظة ثم قذف بالاعتراف .

— آه حصل ! لكن احنا في الليلة دي . مين فينا اللي كان
واخذك وناظل فيكي بوص ؟

— بس يا كذاب ! أعادت زازا بصوت تخنقه الدموع ، بس
يا خباص !

وفي عينيها تفرقت دموع المظالم ، بينما راح الحاج طلبه ينقل
النظر بينها وبين كرشة عاجزاً — مثلى — عن تبين الصادق من
الكذاب . وأخيراً ركز بصره على كرشة وأخرج السبحة من جيبه
فقدمها إليه .

— إمسك ! قال له آمراً ، تحلف على السبحة دي ان كلامك
صحيح ؟

فتناول كرشة السبحة وبدأ يحلف .

— وحياط الصبحة دي ! وحياط للمصحف الشريف ! وحياط
الخطمة الشريفة ! وحياط ربنا ! وحياط النبي ! وحياط الصيد !
وحياط الحصين ! أعظم عيني وعافيطي ! أنطس في نظري ! ينقطع
ضراعي ! يفرمني طرماي ! أبقي ابن سطين . . . إن ما كنت شفطه
واخدها ورا المركب وناظل فيها بوص !

وكان كرشة — لفرط حماسه — ياتي بأيمانه دون أن يأخذ
بينها أي نفس ، فلما انتهى منها وقف يلهث وينهج كأنه خرج لتوه
من مباراة في الملاكمة . أما الحاج طلبه فقد احتقن وجهه وبرزت
العروق فيه بدرجة تمكن طالب الطب — لو تصادف وجوده —
من دراسة الدورة الدموية على الطبيعة . نحواً من دقيقتين وقف
جامداً كالتمثال ثم التفت إلى توتو ، صوب إليه نظرة فيها من الحقد
مالوعبيء في مدفع لا تطلعت منه قنبلة ، ثم صوب إليه المدفع الصغير
الذي في يده وتهيأ للضغط على الزناد .

— أنا ف عرضك يا حاج ! صرخت فيه يائساً ، بلاش تضرب !
بلاش يا حاج انت راجل مؤمن !

غير أنه لم يحفل بي إن كان قد بمعنى أصلاً ، بقوة ضغط
على الزناد .

— تك ! قال المسدس .

تكة معدنية باردة أثارت دهشة الحاج فضغط على الزناد
من جديد .

— تك ! قال المسدس ثانياً .

فازدادت دهشة الحاج مع بادرة من الخوف في عينيه ، وضغط
على الزناد ثالثاً .

— تك ! تك ! تك ! تك !

تكات باردة متعاقبة وما من رصاصة تنطلق ، الأمر الذي لم
يكن غريباً معه أن يصبح وجه الحاج صورة مجسمة للدهشة والغضب
والرعب . وتوتو يتلقى تلك الرصاصات الوهمية بمزيج مماثل من
العواطف ، وكرشة يرقب الموقف بأغبي نظرة في أغبي وجه رأيته
في حياتي . وأخيراً فتح الحاج مسدسه وأخرج المشط ليفحصه ،
خيل إلى مدى لحظة أنه — الحاج لا المشط — سوف ينفجر .

— ابن . . مين اللي سرق الرصاص ؟ جأر الحاج بحقد أسود ،

ابن . . مين ؟

وألقي بالمسدس على الأرض وراح يحيل النظر بيننا باحثاً عن
اللص ، ثم استقرت عيناه على زازا .

— ما فيش غيرك يا بنت ال . . . جأر في وجهها .

ورفع يده ليصفعها ولكنها وثبتت خطوة إلى الوراء ووقفت
كنمرة متحفزة ، تدق بقبضتها اليمنى على راحتها اليسرى .

— أيوه انا اللي سرقته ! ورميته في البحر كان ! ومسدسك
قاضي ! ما عندكش رصاص !

وشجعها ذهول الحاج على الاسترسال .

— وأيوه كان يبيوسني ، عاجبك ولا لا ؟ أنا حرة ف نفسي !
مالك ومالي ؟ طلقني ! ما با حبكش ! جتك البلا !

فازداد ذهول الحاج ، راح يلتهمها بنظراته حيناً ثم انقض عليها
كالوحش وأطبق على عنقها . كادت زازا تنهض لولا يد توتو التي
جذبت الحاج من قفاه وطوحت به بعيداً ، وهي اللحظة التي انهزها
كرشة لكي ينقض على توتو من الخلف ويثمل حركة ذراعيه ، في
حين هجم الحاج عليه من الأمام وبدأ في كيل الصفعات والللكات .
كم صغمة ولكمة نالها توتو لا أذكر على وجه التحديد ، ولكنها
كانت كافية لأن تجعله يتراخي بين ذراعي كرشة وينزلق إلى الأرض .
وحتى بعد أن سقط لم يرحمه الرجلان ، واحد منهما يرفسه في جنبه
والآخر في رأسه ، فغطى توتو وجهه بذراعيه وضم ركبتيه إلى
صدره ليتلقى آخر الرفصات وأقواها في ظهره ، فسكنت حركته
ورقد على الأرض كالقتيل .

— قتلته يا مجرم! صرخت زازا بصوت مجنون ، قتلته يادون!
وكرشة قرصنى وساييه . خايف منه ليه يا جبان ١٩

فما كاد الحاج يسمع الكلمة حتى طارت يده — تلقائياً —
إلى صدغ كرشة بصفعة أليمة .

— مرة ثانية ما تعملهاش! صرخ الحاج طلبية فى كرشة .
صفعة شديدة تلقاها كرشة ببساطة وكأنها ذبابة حطت على
وجهه ، ثم رفع يده الغليظة وإذا بها تستقر على صدغ الحاج
بصفعة ممائلة .

— ما تمضش إيدك على!
وصفعة ثانية ألصقت الحاج بجدار الكوخ .
— أنا اقرص على كيني! تعا يا بط!

وجذب زازا من ذراعها وواصل الكلام .
— أقرص على كيني وابوص على كيني كان ، آه!
وتناول رأس زازا بين يديه وألصق بخدها شفتيه ، سمعت قبلة
أشبه بصوت فرملة طويلة حادة لسيارة مسرعة .

— قلط إيه بقى؟ سأله كرشة وهو يترك زازا .
فلم يقل الحاج شيئاً ، بظهره ضغط على جدار الكوخ لكي
يكتسب أكبر قوة ممكنة يندفع بها نحو كرشة . لكن كرشة

هو كرشة ، تلقى الحاج للندفع بيديه ودفعه دفعة ردتة إلى حيث
كان لصق الكوخ ، توطئة لأن ينقض عليه فيطبق على
رقبته باليدين .

— إنط موش أضى يا حاج ، موش أضى! أفضلك؟ أخنقك؟
لكن لا ، أنا برضه عندي إنسانية!

ونزع يديه عن عنق الحاج لكي يصب إلى فكه لكمة
إنسانية شديدة تلقاها الحاج فى استسلام حيث استند إلى الكوخ ،
ثم بدأ ينزلق ببطء حتى جلس على الأرض وقد مال رأسه على كتفه
كرجل نعسان .

وكرشة راح يتلفت حوله كالجنون .

— فين الخنجر ١٩؟ فين الخنجر ١٩!

فشعرت بالمدكور يرتعد فى يدي ، وازدادت الرعدة عندما
رأيت كرشة يركز بصره على كأنما قرأ خواطرى .

— مافيش غيرك انط! صرخ كرشة فى وجهى ، ح طجيبه
ولا اصيح ضمك؟

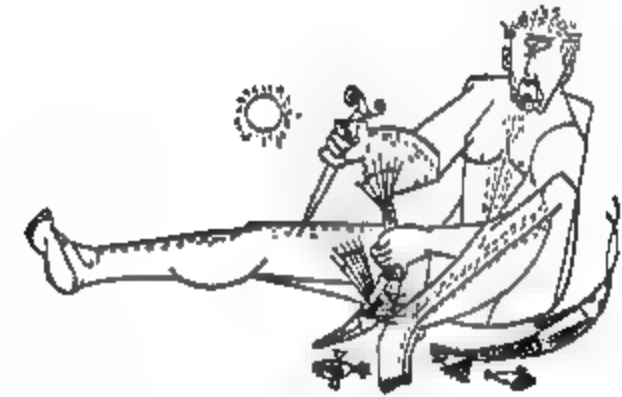
فوجدتنى أبرز الخنجر ببساطة من وراء ظهري .
— آهه!

وقذفت بالخنجر نحو كرشة توطئة لأن أطلق ساقى للريح ،
فلما لم أشعر بصوت يلاحقنى توقفت والتفت إلى الوراء ، رأيت
كرشة وهو يطبق يده على ذراع زازا ويجذبها إلى الكوخ .
— أحمد ! صرخت زازا من بعيد ، أحمد ! إلحقنى يا أحمد !
حوشه عنى يا أحمد ! إلحقنى يا أحمد !
حلو دى — قلت لنفسى — آل الحقها آل .

الفصل الثامن عشر



إلى الكوخ المقفل على زازا وكرشة أحسست بأننى
أريد أن أبكى ، ثم بأننى أريد أن أضحك ، ثم وجدتنى
أفعل الأمرين معاً . وكانت الشمس قد بدأت تشرق ، لا أدرى
كيف سمحت لنفسها بالشروق فى تلك اللحظة . شعاع منها سقط
على الجزيرة وأضاءها كما يضيئها كل يوم ، كأن شيئاً مختلفاً ورهيباً
لا يدور اليوم فى تلك الجزيرة . شعاع سقط على الحاج طلبة حيث
جلس كالنفسان مستنداً إلى جدار الكوخ ، وعلى توتو الذى
ما برح طريقاً على الأرض كالجنة الهامدة . فلو أننى كنت مكان
الشمس لعدت من حيث أتيت ، لكن الشمس فيما يبدو لا تحفل



كثيراً بهذه الأمور ، وأنها أكثر من مرة حتى ألقتها واعتبرتها
من روتين الوجود .

كان الحاج طلبة أول من أفاق ، رفع رأسه وأخذ يبرش حوله
بعينين زائغتين . نظر إلى توتو الدائخ ثم إلى أنا محاولاً أن يتذكر
ما حدث ، فما كاد يتذكر حتى جمعت عيناه كمادته حين يفعل .

— فين عزيزة ؟ سألتني بصوت زادت اللهفة من بحته .

فاكتفيت بإشارة صامتة إلى الكوخ الذي يستند إليه ، لا شك
أن الإشارة أرحم من الكلام .

— وكرشة ؟ سألتني بنبرة خوف .

فأشرت إلى الكوخ من جديد ، شافعا إشارتي بابتسامة
صغيرة رجوت أن تهون الأمر عليه . فما كاد يرى إشارتي حتى نزع
ظهره عن الكوخ بسرعة كأنما لسهه ، وانتفض واقفا كأنه
عفريت العلبة .

— يعنى . . ؟ سألتني عينه المذهورة .

— أيوه ، أجابته عيني المستسلمة .

فراح يتفرس في الكوخ كأنه لا يصدق الأمر ، ثم امتدت
يده إلى جيبه بحركة لا شعورية . لكن للسدس كان ملقى بجانب
قدمه على الأرض ، فصبوب إليه رفصة حاقدة أطارته بعيداً .

ثم التفت إلى الكوخ وتهاياً لإطلاق الصرخة الصادرة من أعماق
أعماق أحشائه المعذبة .

— كرشاه ! دوى صوته كالرعد ، كرشاه !

فرت لحظة قبل أن يجيب كرشة ، تنحنح أولاً ثم أجاب .

— أى خضمة يا حاج ؟ تساءل كرشة بصوت هادئ تشوبه
نبهة سخرية .

— إفتح يا ابن الكلب ! زار الحاج طلبة ، إفتح يا مجرم !
إفتح يا ابن ال . . . !

فرت لحظة جديدة قبل أن يجيب كرشة .

— يا حاج طلبة ، قال المذكور بعد حين .

— إيه ؟

فصكت سمع الحاج شتمة بذئثة أعقبتها همهمة ماجنة ، والهمهمة
تبعها صرخة صغيرة من زازا ، فلا بد أنه ضربها على ظهرها ليلفت
نظرها إلى ضمايته — أعنى دمايته . فما كاد الحاج طلبة يسمع تلك
الصرخة حتى تحول وجهه إلى ما يشبه بالونا منتفخاً أحمر ، وراح
يلتهم الكوخ بنظرة أعجب كيف لم تشعله ناراً . ثم ارتد إلى الورا
خمس خطوات ووقف يستجمع قوته ، فلما استجمعها هجم على الباب

وخبطة خبطة لو أصابت جبلا لهدته . لكنه لم يفتح ، كيف ثبتته
كرشة من الداخل لا أدري .

خمس مرات يهجم على الباب بتلك الصورة وما من نتيجة ،
لا الباب ينكسر ولا كتف الحاج طلبة . فوقف الرجل ينفخ من
الغيظ توطئة لأن يلتفت نحوى فجأة .

— واقف تتفرج على يا طور ؟! صرخ في ، موش تيجي
تزق معايا ؟

وكانت ردالة منى حقا أن أقف هكذا بلا حمل ، فسرطان
ما انضمت إليه ورحنا نجاهد في فتح الباب ، ندفعه بالأيدي
والأكتاف وندق عليه ونرفسه بلا نتيجة .

— بلاش ضوشة منك له ! صاح كرشة من الداخل ،
أنا موش فايق لكو دلو قط ! موش كده يابط ؟!

وصرخة جديدة — أو ضحكة هسترية — صدرت من زازا
فزادت من احتقان البالون الأحمر فوق كتفى الحاج طلبة . ورأيته
يرفع يديه إلى أذنيه ليسدهما ، بينما يهز رأسه يمينا وشمالا وهو
مغمض العينين كأنه في حلقة ذكر .

— يا باشمهنضس ! نادانى كرشة .

— أفندم ، سألته وأنا أتوقع شطمة .

— ما تقول لطوطو يصطاد لنا صمكتين !
فتريثت لحظة قبل أن أجيب .

— الخنجر معاك ، قلت بصوت هادئ ، إحدفه وإحنا نصطاد .

— ههع ! قال كرشة ، لاحدق يا واد ! طول صمرك حدق
بس يا خسارة ، ما لكشرف صنعة للراكب ! ههع ههع ! حلو
دى يابط ؟!

وصرخة ثالثة من زازا فإذا بالحاج طلبة يتهالك فجأة على ركبتيه ،
رفع يديه عن أذنيه ليغطي بهما عينيه ، وأخذ جسمه يهتز بالبكاء
كأنه طفل عاجز صغير . فبينما أنا أنظر إليه شعرت بمزيج غريب من
الرتاء له والشماتة فيه . عسير على الرجل — أى رجل — أن يخوض
تجربة كهذه بخصوص زوجته ، وفي الوقت نفسه — كما قالت زازا
مرة — حدقال له يتجوزها ؟ لو أنه تركنى أتزوجها لكان الآن
يجلس هادئ البال ، ولكنت أنا الذى أهرى بدلا منه وأنكت .

وأخيراً رفع الحاج طلبة يديه عن عينيه ، خيل إلى أننى أنظر
في عيني رجل مجنون . لحظة من التفكير ثم نهض في صمت واتجه
إلى للمنطقة التى كنا نصنع فيها للركب ، أخذ يجمع قطع الأخشاب
الصغيرة مع النشارة المتبقية من عمليات النحت ، كدسها كلها
في حجر جلبابه وأقبل بها نحو الكوخ . في دهشة صامتة رحت

أرقبه وهو ينثر تلك الأخشاب حول جدران الكوخ ، توطئة
لأن يتناول حجرين ويجلس بهما القرفصاء بجانب الأخشاب . فبدأت
أفهم ، وهى والله فكرة لا بأس بها أبداً . لا شك أن حريقاً صغيراً
يمكنه أن يرغم كرشة على الخروج من الكوخ — إذا كان خروجه
أمراً مستحياً .

فإذا يحدث عندما يخرج كرشة والخنجر فى يده ؟ فى أى صدر
كتب لذلك الخنجر أن يفوس من جديد ؟ ما برح الحاج يضرب
حجراً بآخر حتى انقذت الشرارة وأمسكت فى نشارة الخشب ،
لسان نار بدأ يتلوى ويسرى فى سائر الأخشاب . والحاج يهوى
على لسان النار بذيل جلبابه فيصبح اللسان ألسناً كثيرة ، سياج
من النيران بدأ يحيط بالكوخ متمسحاً فى جدرانه . فتلاعبت
على فم الحاج طلبية ابتسامة غريبة وهو يدمدم بقراءات لم أسمعها ،
لا بد أنها صلاة خاصة يحفظها لمناسبات الحريق .

ثم أخذ يتلفت حوله حتى وقع بصره على المركب فاتجه إليها
مسرطاً ، بدأ يجذبها على الأرض عائداً بها إلى الكوخ . فى دهشة
بالغة رحت أرقبه وهو يرفع مقدمة المركب إلى أعلا ، ولا يبرح
يرفعها حتى صارت واقفة على بوزها مستندة إلى باب الكوخ .
سدت المركب الباب وأصبحت بمثابة باب آخر للكوخ ، والحاج

نفسه أسند ظهره إلى المركب غارساً قدميه فى الرمل بقوة ،
يعنى أنه . . .

— يأنهار أبوك أسود !

هكذا صرخت وقد فهمت ما يرمى إليه فسرعان ما انطلقت
نحوه أجرى .

— إنت اتجننت يا حاج ؟ ! صرخت فيه بلهفة ، موش عارف
ان زازا جوه ؟ !

فلم يجبنى إلا بالدمدمة وهو يحمق إلى بعين زائغة لا أظن
أنها تبصرنى أصلاً . والنار قد بدأت تنتقل من أخشاب الوقود
إلى جدران الكوخ نفسه ، أخذت الجدران تطعطق وينبعث
منها دخان كثيف أسود .

— يا حاج اعقل ! زازا جوه يا حاج !
فأصر على تجاهلى وزاد من تثبيت قدميه فى الرمل ، ضاعطاً
بظهره على المركب بقوة . وصرخة مفاجئة من داخل الكوخ .

— حريقة ! صرخ كرشة ، حريقة !
ويبدو أنه فتح الباب فوجد المركب قائمة تسده ، بدليل أنه
بدأ يدق عليها بجنون .

— افطحوالى يا ولاد الكلب ! افطحوالى !

ورأيت المركب تتململ تحت ضغط كرشه عليها لكنه لم ينجح في زحزحتها ، جن الحاج طلبة والمجنون كما يقال في قوة عشرة عقلاء . فددت يدا إلى صدره أريد أن أجذبه من جلبابه ، لكنه سبقني بأن رفع ساقا رفضني بها رفسة أوقعني أرضاً . فنهضت وأعدت التجربة ، ثلاث محاولات بثلاث رفضات كأنتى أواجه بغلا للإنساناً . وصوت سعال شديد من زازا التى توشك أن تحتنق من الدخان الكثيف الأسود .

— أحمد ! أحمد ! صرخت وسط سعالها ، إلحقنى يا أحمد ! أحمد !
لجن جنونى وهجمت على الحاج لكى أحظى بالرفصة الرابعة .
— توتو ! صرخت زازا ، توتو ! أحمد ! توتو ! أحمد ! توتو !
فأسرعت إلى المذكور بالجرة بعد أن ملأتها بالماء ، سكبتها على وجهه حيث رقد على الأرض . ثم جنوت بجانبه ورحت أهزه بعنف وأرقع له أسدافه .

— إصمى ياتوتو ! ، إصمى أبوس إيدك ! توتو ! توتو ! إصمى
يا بن ستين كلب !

صوتى شبه ضائع وسط طقطقة النيران وجمير كرشه وطرقه على الباب ، لكنه نجح آخر الأمر فى تنبيه توتو . فرحة وحشية غمرتني حين رأيته يتقلب ، وحين رفعته لأجلسه فجلس . فتح عينين

ضيقتين وسط وجهه اللئى بالكدمات وراح يتلفت حوله فى بلاهة .

— إلحق ياتوتو ! زازاجوه ! زازاح تتحرق ! إفهم ياتوتو زازا !
— تراتزا ؟ ! سألنى بدهشة .
— أيوه يالوح ، زازا جوه مع كرشه !

فوثب توتو على قدميه ، ونح لحة ثم اعتدل . راح ينظر إلى الكوخ للشتعل وإلى الحاج طلبة الذى يسد الباب بالمركب ، بدأ يفهم الموقف . فلما تم له الفهم وثب كالنمر نحو الحاج الذى رفع ساقه ليرفضه بها كما رفضني ، لكن قيمة الرفصة تتوقف بالطبع على شخص المرفوض . تمادى توتو الرفصة وقبض على قدم الحاج ، جذبه منها فأنجذب وهو يتقاذف على ساق واحدة . وفى الوقت نفسه رأيت المركب تميل إلى الأمام تحت ضغط كرشه من الداخل ، كادت تسقط على دماغ الحاج لولا أن طوحه توتو بعيدا ، فسقطت على الأرض مثيرة حولها عاصفة من الرمال . فما كاد الباب ينفتح حتى رأيت ماهيا لى أتنى فى إسبانيا ، عندما يفتحون باب العرين فيندفع منه الثور المجنون . هكذا اندفع كرشه والخنجر فى يده ، كالثور الهاجم يجرى هنا وهناك بغير هدف واضح وهو يضرب الهواء بالخنجر ، فلو أتنى رأيته يتشم الأرض وينفخ لما دهشت . حظله سىء لأنه لم يولد فى إسبانيا ، كان يمكنه أن يجمع

ثروة هناك . ووراء كرشة خرجت زازا وهي تسعل وتسعل ،
لكن أحد لم يلق إليها بالا . كف كرشة بعد لحظات عن الجرى
هنا وهناك ووقف أمامنا بالخنجر المرفوع ، كل عضلة في جسمه
تصبح أين الدماء .

— ما يظن طحرقنى يا ولاد الكلب؟! زأركرشة بصوت كالرعد .
وراح يقلب النظر بيننا باحثاً عن الرأس المدبر للحريق ،
فيبدو أنه عرفه بدليل أنه اتجه إلى الحاج طلبه . أمامه وقف
متباعد الساقين متحفزاً ، قلت في نفسي أن الحاج طلبه راح .

— ماوظ طحرقنى يابن الـ...؟ زعجر كرشة في غل رهيب .
ونقل كرشة قدمه اليمنى خطوة إلى الأمام ، فنقل الحاج طلبه
قدمه خطوة إلى الوراء .

— ماوظ طحرقنى يابن الـ...؟ كرر كرشة سؤاله مختماً إياه
بشتم جديدة .

ونقل كرشة قدمه اليسرى خطوة إلى الأمام ، فنقل الحاج قدمه
اليمنى خطوة إلى الوراء .

— ماوظ طحرقنى يابن الـ...؟ كرر كرشة سؤاله مختماً إياه
بشتم جديدة .

عشر مرات كرر كرشة سؤاله مختماً إياه بشتمه ، أشهد له

أنه لم يكرر أى الشتام مرتين . هو يتقدم ببطء والحاج يتراجع
ببطء ، عينه طول الوقت مركزة في رعب أليم على النصل اللامع .
يستطيع كرشة أن يقتله في أية لحظة ، لكنه يريد أن يتلذذ
بتعذيبه حيناً .

— ماوظ طحرقنى يابن الـ...؟

وللمرة الأولى كرر كرشة شتمه سابقة ، الأمر الذي يبدو أنه
أقنعه بوجوب إنهاء المهزلة ، فرفع الخنجر إلى أعلى وأهوى به على
الحاج طلبه ، ضربة شديدة تكفى لقتل الرجل لو أنها وصلت إليه
لكنها لم تصل . ذلك أنه بينما كان كرشة يزحف نحو الحاج طلبه ،
كان هناك شخص آخر يتسلل ورائه من حيث لا يشعر . كان ينقل
قدمه اليمنى إلى الأمام فينقل توتو — مثله — قدمه اليمنى إلى الأمام .
وكان ينقل اليسرى فينقل توتو يسراه مثلها ، يتبعمه في كل خطوة
كأنه خياله . فما كاد كرشة يرفع الخنجر ليصوب الطعنة حتى طارت
يد توتو اليمنى وأطبقت على معصمه ، بينما اندفع ساعده الأيسر
وطوق رقبتة من الخلف . بكل قوته حاول كرشة أن يتخلص
من ساعد توتو لكنه كان ساعداً من حديد . أسنان توتو تلعب
بين شفتيه للتخلصتين ، يحجز على أسنانه ليستجمع كل قوته . بقبضته
يلوى معصم كرشة وبساعده يعصر رقبتة ، مالبثت أن رأيت
الخنجر تنفلت من يده ويسقط على الأرض .

فأخلى توتو سبيل كرشة دافعا إياه بعيدا ، وبسرعة البرق انحنى والتقط الخنجر .

وقف كرشة يتحسس عنقه الذي كاد يتحطم ، ناظراً في غباء إلى الخنجر الذي انتقل من يده إلى يد توتو . فلما استوعب الموقف طفح الغل من عينيه وقاض على وجهه ، وبدأ يزحف نحو توتو مثلما كان يزحف نحو الحاج طلبة . ببطء يتقدم نحو توتو مفترسا إياه بنظرائه ، وتوتو ثابت في مكانه كنمر متحفز . فلما صار كرشة على بعد خطوات من توتو وقف ينظر إلى الخنجر ويدرس الموقف . دقيقة مشحونة برائحة الموت المختلطة برائحة الحريق ، ثم وثب كرشة فجأة على توتو . يداه حين وثب كانتا تقصدان يد توتو الممسكة بالخنجر ، لكن يد توتو كانت أسرع . كالبرق الخاطف طار النصل اللامع إلى بطن كرشة وارتد عنها وقد ضمرتها الدماء . لم تكن طعنة ثاقبة وإنما خدشاً طويلاً على السطح ، تحسسه كرشة ثم راح يحمق في ذهول إلى يده الملتطخة بدمه . فلا بد أن منظر الدم أطار ما بقي من عقله ، وإلا فلماذا وثب على توتو من جديد ؟ وثب عليه وهو يقصد هذه المرة عنقه ، لكن الخنجر كان في الطريق . سنه المسنون خاص هذه المرة في بطن كرشة ، اخترق الجلد وخاص في اللحم وخرج منه أحمر دامياً . فعاد كرشة يتحسس مكان الطعنة ، بدا من أمره أنه لا يصدق ما يدور

حوله ، يقول لنفسه إن شيئاً كهذا لا يمكن أن يحدث لكرشة . وكان توتو قد تراجع خطوة إلى الوراء ووقف متحفزاً ، كأنه يقول لكرشة أنه لا يريد أكثر من طعنتين . لكن كرشة فيما يبدو كان يريد الثالثة .

إذ استجمع كل قوته لكي يثب على توتو من جديد ، وصلت يداه إلى رقبة توتو وأطبقتا عليها ككلابتين من حديد . فترنح توتو وكاد يسقط لكنه تماسك ، وبكل قوته غرس الخنجر في بطن كرشة . ولم تكن هذه الطعنة مجرد طعنة ، إذ رأيت الخنجر يدور في بطن كرشة ويمزق لحمه تمزيقاً — يقوره كما قد يقال . فتراخت يداه عن عنق توتو ووقف يترنح ، ومن الحفرة التي من بطنه أطلت كرة حمراء هي في أغلب الظن معدته .

دماء غزيرة تتدفق من بطنه على السروال وتصبغه باللون الأحمر القاني ، وفراخاه تدلنا حوله بينما رفع رأسه إلى السماء وراح يجيل فيها نظرة زائغة . وجأة مال إلى الوراء كما يجيل لوح من الخشب ، سقط على الأرض متراعى الأطراف وسط طائفة من الرمال .

كانت هذه أول مرة أشاهد فيها معدة بشرية ، فليس غريباً أن أشعر بالغثيان وأريد أن أتقيأ . لكنني لم أفعل ، لست فيما يبدو وجودياً إلى درجة التي . والحاج طلبة وقف جامداً كالتمثال يرقب

في التمثال الذي يدعى بالحاج طلبة ، يبطء تحرك نحو زازا التي ركعت
باكياً ، أمامها وقف لحظة صامتاً ثم بدأ يصرخ .

— إتتى طالقة | طالقة | طالقة |

فرفعت زازا بصرها إليه ، مزيج نادر من الاحتقار والسخرية
والبغض تراءى في عينيها الدامعتين .

— ياخي ينعل أبوك ابن كلب | قالت له زازا .

— وبتشتمى كان ؟

وطارت يداه إلى عنقها وشرع يخنقها ، كان ليخنقها لولا اليد
التي امتدت إليه من الخلف فجذبه من قفاه ، يد توتو التي تحولت
إلى قبضة طارت إلى فك الحاج بلكة عنيفة يعني ، ثم لكعة مثلها
يسرى ، ثم ثالثة يعني طرحت على الأرض صريعاً .

ونظرت إلى الكوخ لكي أكتشف أنه لم يعد هناك كوخ ،
انتهزت النار فرصة العراك والتهمة عن آخره ، لم يبق منه سوى
أخشاب قليلة مبعثرة والنار تكل عليها ، ألسن صغيرة حمراء تتلوى ،
مثل ألسن مجموعة من القطط بعد وليمة مشبعة . يكون جيلاً جداً
لو طاد الشتاء وليس في الجزيرة كوخ .



المنظر ، في حين سقطت زازا على ركبتيها مخفية وجهها بيديها وهي
تشهق شهقات هستيرية .

وتوتو وقف يلهث ويطليل النظار إلى الرجل للذبوح ، وجهه
اكتسى بقسوة لم أعرفها فيه قط من قبل . لا يبدو عليه أى شعور
بالإثم بسبب الجريمة التي ارتكبها ، قسوة عجيبة شاعت في وجهه
المليء بالجروح والأورام . ثم أشاح بوجهه وهو يدس الخنجر
في جيبه ، لم يفكر في أن يغسل عنه الدماء . وأخيراً دبّت الحياة

فعمدت عيني بالرغم مني إلى معدة كرشة ، وكانت قد خرجت
نهائياً من بطنه ومعه جزء من مصران ربما كان الاثنى عشر . دماء
غزيرة تتسرب من جوفه ، تسيل على جنبه وتنفرش على الرمال ملونة
إياها باللون الأحمر . فمن ذلك فهمت لماذا يصاب الناس بالأمراض
المعوية ويموتون قبل الأوان ، هذا شيء طبيعي جداً ماداموا
يعتمدون في غذائهم وبقائهم على مثل هذا الجهاز التعس .

الفصل التاسع عشر

الملوث بدماء كرشة نزل توتو إلى البحر ليصيد
السماك ، لأول مرة في المدة الأخيرة نزل للصيد
مختاراً . فنظرت عن يميني إلى كرشة الذي ينام ومعدته فوق بطنه ،
ونظرت عن يساري إلى الحاج طلبة الذي ينام كالقتيل ، ثم مررت
بينهما قاصداً إلى زازا التي ما برحت جالسة تصوب إلى الأرض
نظرة فارغة .



— زازا ، قلت لها بلهجة من يريد أن يبدأ حديثاً .
فرفعت بصرها إلى منتظرة كلامي لكنني لم أجد ما أقول ،
ويدي التي مدتها نحو شعرها رددتها قبل أن تصل إليه .

— معلش يا زازا ، معلش .

هذا كل ما استطعت أن أقوله لها ، فارتعدت زاوية فيها
بابتسامة صغيرة مريرة ولم تقل بدورها شيئاً . وكانت زازا هي زازا
لم يطرأ عليها أى تغيير ، ونحن الذين كنا نظن أنها ستخرج من
الكوخ مشرحة .

— تزازا ! أتى صوت توتو مناديا من بعيد .

فالتفتنا لنراه خارجا من البحر وفي يديه سمكتان تتلعبطان .

— تزازا ! نادى بلهجة أمرة وهو يشير إليها داعياً .

فقصدت زازا إليه ، وأشار إلى الأرض آمراً إياها بالجلوس
فجلست ، ثم بدأ عملية إشعال النار . وسمعت أنا سعة خلني فالتفت
لأرى الحاج طلبة قد أفاق وجلس يتحسس مكان اللسكات في وجهه .
نظر إلى في غيظ كأني أنا الذي ضربته ، ثم نقل بصره إلى زازا
وتوتو حيث جلسا بعيداً . في غل شديد راح ينظر إلى توتو ،
فوقف هذا نافشاً عضلاته كأنه يقول هل من مبارز ؟ لكن الحاج
فيما يبدو قد عرف آخر الأمر قدر نفسه ، إذ اكتفى من المعركة
بزغرة طويلة لتوتو ثم التفت إلى .

— قوم بينا ، قال لي آمرا .

ونفض فنهضت دون أن أعرف ماذا يريد . وبعد حين عرفت ،
عندما وجدتني أحفر بجانبه قبراً للكرشة .

فلما انتهينا من الحفر قصدنا إلى كرشة وحملناه ، الحاج يرفعه
من تحت الإبطين وأنا من ساقيه . ماكدت ألمسه حتى سرت
في بدني رعدة شديدة ، الساقان اللتان دب عليهما منذ حين ليقتل
كلا من الحاج طلبة وتوتو . في الحفرة أودعناه وردمنا عليه ،
ثم وقف الحاج طلبة ليتلو صلاة الميت . فبينما هو يتلوها رأيت
دمعة تترقق في عينيه ، كأن الوغد لم يكن منذ قليل يريد
أن يحرقه حياً .

من بعيد وصلتني رائحة السمك المشوى فالتفت نحوها ، رأيت
توتو يناول زازا سمكة سمينة . فابتلعت ريتي وبدأت أتجه نحوها ،
شابكا يدي خلف ظهري وأنا أسير على مهل كأني أتمشى بغير هدف .
بل إنني بدأت أصفر لحناً زيادة مني في إظهار حسن نيتي ، مختلساً
إلى السمك نظرات خاطفة .

— ماتيجي تا كل ؟ قالت لي زازا وهي تمضغ .

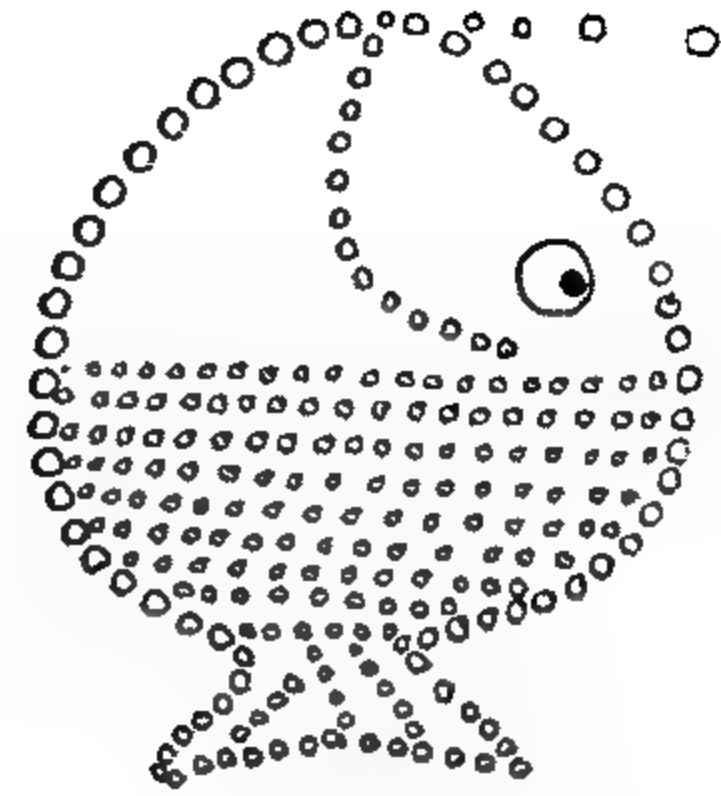
— الله ! قلت بلهجة من فوجيء ، هو الغدا جاهز ؟ !

وفركت كفي في سرور وجلست أمامها ، وهممت أن أمد يدي
إلى السمكة لكي أأفاجأ بشيء غريب نوما . ماكدت ألمس السمكة
حتى امتدت يد توتو فوضعت على وجهي كالسلطانية ، ضاغطة
على أنفي ودافعة إياي إلى الوراء ، فسقطت على ظهري وقد ارتفعت
ساقاي في الهواء . في هذا الوضع ظننت أنه يريد مداعبتى ، لكننى

على يدها ضربة قاسية أسقطت قطعة السمك على الرمل . وبينما
تحسست زازا يدها مكان الضربة رأيت في عينيها نظرة جمعت بين
الدهشة والخوف ، كأنها تتساءل - مثل - أهذا هو نفس توتو القديم؟
— قومي ازمجر توتو ، قومي !

فقمي . وقفت لحظة أصوب إليه نظرة كبرياء ثم أوليته ظهري
وابتمدتي ، قصدت شجرة التفاح ورحت آكل منها حتى ماعت
نفسى . وكذلك فعل الحاج طلبة ، وقف يقرش التفاح وهو يطعن
توتو بنظرات حامية . وخجأة حول بصره إلى أنا في كراهية .
— حاجبك كده يا وسخ ؟! سألتى بشراسة .

فلم أجب من فوري .
— إيه هو اللى عاجبني يادوني ؟ سألته بهدوء .
— كان لازم تفوق الكلب ده قبل ما اخذ الخنجر من كرشه؟
فبينما أنا أستوعب كلامه رأيته يضرب بيده على جبينه فجأة كمن
اكتشف شيئاً .
— طب قسا بالله العظيم مافى حد ضيع الرصاص غيرك ! انت
اللى قلت لها تسرقه ! ما فيش غيرك انت ؟!
وطارت يده إلى صدغي بصفعة مفاجئة .
— انت !



حين اعتدلت ونظرت إلى وجهه أدركت أنني مخطيء جدا . ليس
مازحا صاحب هذا الوجه القاسى الكئيب ، الذى يرفع قبضته
ويلوح بها أمام عيني مهددا .
— قومي ازمجر توتو ، قومي !
وأشار بإصبعه بعيدا ، الأمر الذى فهمت منه أنه يطردنى .
— جرى إيه يانوتو ؟ تساءلت زازا فى دهشة ، ماتسيه يا كل .
فزجر توتو من جديد وهو يشير إلى السمكة ثم إلى البحر .
ثم إلى نفسه ، حكاية صامته إلا أنها بليغة جدا .
— طب ندى له حنة صغيرة ، قالت زازا راجية .
ونزعت قطعة من سمكتها ومدتها نحوى ، فإذا بالوغد يضربها

وصفني ثانياً .

— أنت !

وصفني ثالثاً فاعتظت ، طول صمري أغتاظ بسرعة .

— طب انا آه ! هتفت متحدياً ، أيوه أنا !

وصفني .

— أيوه أنا !

وصفني ثانياً .

— أيوه أنا !

وهمت بالصفحة الثالثة فتعاشاها بذراعه ومد يديه إلى عنقي وشرع يهزني منه بقوة .

— يا أصل البلاوى ياوش الفساد ! يا كافر يا ملحد
يا ابن الكلب !

وباشتداد ضغطه على عنقي تذكرت منظراً رأيته في مشاجرات سابقة ، فرفعت إصبعين من يدي اليمنى دسستهما في عينيه ، بينما رحت ألكه بقبضتي اليسرى في أسفل بطنه . فكأنتي أضرب في حائط ، لا عينه وجعته ولا بطنه ، ويداه تضغطان على عنقي فأكاد أختنق . فلست أدري ماذا كان يحدث لي لولا اليد التي جذبتني فجأة من قفائي وطوحتني بعيداً ، إذ وصل توتو

في اللحظة المناسبة ليفض الخناق . وراح توتو يرطن بكلام غاضب لم نفهم منه شيئاً ، ثم أخرج خنجره ورفعته مهدداً .

— أركب ! قال مشيراً إلى للركب ، أركب !

فلم نفهم شيئاً .

— أركب ! صرخ من جديد وهو يدفعني بقوة نحو للذكورة حتى كدت أنكفيء عليها .

وكذلك فعل بالحاج طلبة ، توطئة لأن يتناول المنشار الصخري فيضعه بين يدي .

— هينا ! قال لي مشيراً إلى نقطة معينة في للركب .

ثم تناول للسدس القاضي وناول له للحاج طلبة .

— هينا ! قال له مشيراً إلى نقطة أخرى .

وبدأ يحرك يده ليصور لنا حركة النحت والكحت ، أي أنه يريد منا أن نعاود العمل في للركب .

فلما رأى ترددنا لوح بالخنجر أمام عيوننا وأشار بيده نحو قبر كرشة ، وكنت ما أزال أذكر معدته .

— هينا ! قال توتو وهو يزغدني .

— هينا ؟ سألته مستوثقا .

— هينا ! أجبني مؤكدا .

فبدأت أحك في النقطة التي حددتها ، في حين وقف الحاج
طلبة مترددا .

— هينا ! قال له توتو بشراسة .

— إشتغل يا حاج ، قلت له ناصحا ، الراجل ده اتجنن .

فتردد لحظة ثم أدنى فوهة المسدس من المركب وراح يحك به
في النقطة التي عينها له توتو . هو عمل لا معنى له ولكن ماذا نفعل ؟

— والله الراجل ده اتجنن ، قلت لزازا بالإنجليزية .

— خدوه على عقله ، أجبتنى بنفس اللغة .

— ما هو ده اللي بنعمله .

وجأة تدخل توتو في الحديث .

— أربى ! شخط في وهو يلكنى في صدرى .

فأردت أن أزعل لكننى وجدتنى أضحك ، واتجه بصرى
إلى قبر كرشة .

— الله يخرب بيتك ، قلت له ، أدى اللي اتعلمه منك !

ثم واصلت العمل صامتا ، وكذلك فعل الحاج ، نحوا من ساعة
حتى رأيت المذكور يتوقف عن العمل فجأة .

— هو إيه يا خويا ! صاح بغیظ مفاجئ وقد طفح به
الكيل ، إحنا علينا ذنب ولا إيه ! ودينى مانا مشغل ! يلعن أبو
اللى يشتغل !

وألقى بالمسدس على الأرض وأولانا ظهره مبتعدا ، لكنه
لم يبتعد كثيرا . إحدى يدي توتو جذبتة من شعره وألقت به
على المركب ، واليد الأخرى وضعت سن الخنجر على عنقه .

— أركب ! صرخ توتو في وجه الحاج ، أركب ! أركب !

شریط دماء صغير سال على عنق الحاج طلبة ، ونظرة رعب
ملأت عينيه . فلما ترك توتو شعره ورفع الخنجر عن عنقه لم يكن
غريبا أن يعكف على العمل بدون كلام .

طول النهار ونحن نكحت وننحت حتى خارت قوانا ، لم يرحنا
توتو إلا عندما غربت الشمس . إذ سحب منا كلامن المنشار والمسدس
واتجه بهما إلى الكوخ الذى فوجئ بأنه غير موجود فارتد
إلى المركب ، أقامها على جنبها ووضع الأدوات وراءها . ثم نزل

إلى البحر فغسل يديه ووجهه ، وقصد إلى شجرة التفاح فأكل
خمس تفاحات .

— تزا تزا ! قال وهو يتكرع .

كانت زازا طول الوقت واقفة تتفرج ، متباعدة الساقين وقد
عقدت يديها خلف ظهرها .

— أفندم ؟ سألته بنبرة ساخرة .

فأشار إلى ما وراء المركب ، ولمّا لم تطع إشارته من فورها
جذبها من ذراعها وسحبها إلى حيث أشار . وبضغطة من يده
على كتفها جلست زازا ، حجبته المركب القائمة عن أنظارنا .

ثم نظر توتو إلينا .

— هينا ! قال لنا مشيرا إلى آخر الجزيرة حيث كان
يقوم الكوخ .

— لا يا شيخ ! زجر الحاج طلبه ، والله ؟

فسكت توتو حيناً وهو يبادلُه نظرة عدااء صامته .

— هينا ! قال مكرراً إشارته .

— ومرآني يا حضرة ؟ جأر الحاج طلبه وهو يشير إلى
ما وراء المركب .

— تزا تزا ! توتو ! قال توتو مشيراً إليها وإلى نفسه .

فلما رأى الحاج لا يتحرك من مكانه أخرج الخنجر وراح يسنه
على راحته ، ثم رده إلى الخلف وطعن به الهواء ، ثم أشار إلى قبر
كرشة ، حكاية أخرى صامته ولكنها بليغة جداً . فواجهت الحاج
طلبه ورحت أطبطب على ظهره .

— يا حاج انت موش طلقته ؟ قالت له ، يا لله بينا من هنا .

الراجل ده اتجنت .

ورحت أجذبه من ذراعه وهو لا يريد أن ينجذب ، واقفاً
يحملق إلى توتو بعين يدهشني أنه لم تنطلق منها رصاصة قاتله .
وأخيراً استجاب ليدى التي تجذبه ، أى أنه لولاي أنا لما فارق مكانه
إلا على أسنة الرماح . قصدنا إلى آخر الجزيرة وجلسنا وراء الكوخ
غير الموجود ، أنا وهو والجمجمة ، نسيت أن أخبرك أن البحر قذفها
إلى الشاطئ من جديد .

في صمت جلسنا ، في عتمة الليل الزاحف ورائحة الشياطين تملأ
أنفي . فخطر لي أن أكلم الحاج طلبه لكن منظر شبعة الجامد
لم يشجعني ، وعلى أي حال ماذا أقول له ؟ أسأله لماذا أحرقت

الكوخ يا حمار ؟ لماذا تزوجت زازا يا لوح ؟ لماذا أطلقت المسدس
الفاضى على توتو يا حاج ؟ وإذا سأله فيماذا يجيب ؟

فتنهدت فى يأس وانطرحت على ظهري أتأمل السماء ، سماء
عريضة مظلمة نثرت فيها ملايين النجوم ، ملايين من الثقوب المصدئة
فى نملية كبيرة سوداء مكفأة علينا .

الفصل العشرون



رايت فى المنام أن خنجراً حامياً يدس بين أضلاعى ،
فهيبت مذعوراً لكى أسمع ضحكة أنثى ، وكانت
ضحكة من خارج الحلم لا من داخله . زازا هى التى ضحكت من منظر
ذعرى ، حيث ركعت بجانبى تهزنى لكى أضحو وتنخزنى بين أضلاعى .
— إصحنى قوام ! هتفت فى حماسة ، إصحنى ! قوم الحق الخناقة !
— خناقة ؟ سألتها وأنا أتساءب .

— آه ، الحاج طلبة سرق الخنجر من توتو !
— الحاج سرق الخنجر من توتو ؟
— آه ، خلاه نايم وسرقه من جيبه !
— خلاه نايم وسرقه من جيبه ؟

— آه ، كان حيموته لولا صحى م النوم !

— كان ح يموته لولا صحى م النوم ؟

— أحمد ! جرى لك إيه ؟

— جرى لى إيه ؟

فتأففت ونهضت وهى تجذبني ، فنهضت وأنا الآخر أتأفف .

— لا حول الله يارب ، هو الواحد ما يعرفش ينام ساعة على

بعضها فى الجزيرة دى ؟ عمرى ما اناام إلا واصحى على خناقة ؟

فلم تجب زازا ، منشغلة بعملية جذبى نحو ميدان المعركة ،

فسرت وراءها مترنحاً أدعك عيني . وعلى ضوء التمجى الذى بدأ

يزغ رأيت الخناقة ، وكانت حتى هذه اللحظة ما برحت فيما يبدو

مشروع خناقة .

كان الحاج طلبة وتوتو يقفان متواجهين ، كل منهما قد باعد

بين ساقيه وانحنى إلى الأمام قليلاً ، وكل منهما قد ركز بصره

على وجه الآخر يتأمله ويتمحصه كأنه يريد أن يعرف ماذا يكون .

الفرق الوحيد بينهما هو أن الحاج طلبة كان يمسك الخنجر فى حين

أن توتو لا يمسك شيئاً .

— ما عندك كيش فكرة ، سألت زازا متثائباً ، بيتخانقوا على إيه ؟

فرمقتنى زازا طابئة .

— ح يكون على إيه يعنى ؟ على انا طبعاً .

— آه صحيج ، لا مؤاخذه .

وفى تلك اللحظة قفز الحاج طلبة قفزة صغيرة إلى الأمام فقفز

توتو قفزة مماثلة إلى الخلف ، ثم جد كل منهما فى مكانه كما كان

من قبل .

— ينفكرونى بالقطط ، قالت زازا .

— أنا شخصياً ينفكرونى بالديوك . شغى خناقة ديوك ؟

— لا .

— ولا انا ، لكن متأكد انهم لما يتخانقوا يبقوا كده .

ومن جديد قفز الحاج طلبة قفزة إلى الأمام ، قلدها توتو

بقفزة مماثلة إلى الخلف ، ثم جدا فى وضعهما الأول يتبادلان النظر .

— حتى شوفى نافشين ازاي ؟

فلم تجب زازا وقد انهمكت فى الفرجة ، هى الأخرى قد توتر

ذراعاها وتقبضت يداها كأنها مشتركة فى المعركة .

— إتنى بتشجى مين فيهم ؟ سألتها مستفسراً .

— ح يكون مين ؟ توتو طبعاً .

— وجوزك ؟

— يلعن أبوه !

— طب عارفة انا باشجع مين ؟

— مين ؟



- الاثنين ! نفسى يدبحوا بعض ويرمحونا .
— مهما كان توتو أحسن م الحاج .
— حتى بعد ما كل السمك لوحده ؟
— هو صحيح اتغير ، لكن ما تنساش انه زمان كان كويس .
— فعلا ، غنى لنا مرة ساعة الغروب .
— وعلى كل حال معذور انه يتغير. هو اللي شافه شوية يا احمد؟
— قولها تانى .
— هى إيه ؟
— أحمد ، حلوة قوى من بقك .
— ياسلام .
— آه والله .
وقفز الحاج فقفز توتو كأنه خياله فى المرأة ثم جدا من جديد ،
كلاهما يلهث بصوت مؤذ للسمع فى ساعة الفجر الهادئة . ومرة رابعة
قفزا ثم جدا ، متحفزين متنمرين متوترة كل عضلة وكل خلية
من خلايا جسميهما .
— يا خسارة الأدرينا لين ، قلت لزا متصعباً .
— يطلع إيه ده ؟
— حاجة كده تفرزها الغدة الكظرية ساعة الخناق .
فلم تعلق زازا حيث إنهمكت فى الفرجة ، وذكرت أنا أمراً .

— يا ترى كل للعدوى بعضها ؟

— معد ؟

— آه ، أصلي صمري ماشفت معدة غير معدة كرشة .

— طب بلاش قرف بقى !

وقفز الرجلان قفزة سادسة وسابعة وثامنة .

— الحكاية بقت عملة قوى ، قلت لزاا متثائباً .

وتركتها وقصدت إلى شجرة التفاح ، قطعت واحدة ووقفت
أقرشها . كنت فى حالة غريبة نوعاً من عدم الاكتراث ، وثمة رغبة
حقيقية فى أن أرى الرجلين صريعين . طفح الكيل كما يقولون
ووجب أن يضع أحدهم للأمر حداً .

ووصلتني شهقة مفاجئة من زاا فالتفت متباطئاً ، رأيت توتو
واقفاً على ظهره — تكعبل فى أغلب الظن — والحاج طلبة ينتهر
الفرصة فيلقى بنفسه عليه . ألقى نفسه فوقه وهو يصوب إليه طعنة
شديدة لم تبلغه للأسف ، إذ تمرغ الوغد بسرعة ليتحاشاها فانكفاً
الحاج عل وجهه ونزلت الطعنة على الرمال . وقبل أن ينهض
من سقطته كان توتو قد انتفض واقفاً كأنه بزمبلك ، وإذا به راكب
على ظهر الحاج طلبة مثلما تركب الحمار . ومن هناك قبض على معصم
اليدين التى تمسك الخنجر وراح يلوى الذراع كله إلى الوراء ، خيل إلى
أننى سمعت صوت طقطقة عظام الحاج . فما هى إلا لحظة حتى رأيت

الخنجر وقد انتقل من يده إلى يد توتو الذى ظل جالساً به على ظهره كأنما أعجبته القعدة . فارتكز الحاج بيديه على الأرض محاولاً أن يرفع نفسه ، لكنه ناء يحمل توتو وسقط كما كان . وتوتو ما برح رافعاً خنجره وهو يلهث ، ناظراً إلى قفا الحاج فى هيئة تفكير . هو فى أغلب الظن يشاور نفسه فيما يصنع بعدوه الذى سقط ، هل يقتله أم أن العفو أحسن عند المقدرة ؟ نحوا من دقيقة راح توتو يفكر ويلهث ، ولجأة رأيت يده ترتفع بالخنجر ثم تهوى به على ظهر الحاج ، فاص النصل فى كتفه محدثاً وخزة أليلة فى كتفى أنا .

— توتو ! هتفت زازا ولكن بعد فوات الأوان .

ورأيت ذراعى الحاج يمتدان إلى الأمام ورأيت أصابعه المشرية تنغرس فى الرمال بقوة ، ثم مالبت أن تراخت عضلاته وسكنت حركته . فنزع توتو الخنجر من كتفه ونهض عن ظهره ، وقف يرقبه حيناً ثم أولاه ظهره وقصد إلى البحر ليغتسل .

وزازا واجهتنى بنظرة ذاهلة ثم أسرع نحو الحاج وركمت بجانبه تفحصه ، تحسست كتفه ثم رفعت يدها ملوثة بالدماء . فوقفت وشمرت ذيل قيصها ، راحت تنزع منه قطعة جديدة على سبيل الضمادة . وهناك عند الأفق كانت الشمس قد بدأت تطل على الكون ، خيل إلى أنها توجه إلى سؤالا .

— الحاج طلبة ، قلت أجيبها .

— إيه ؟ تساءلت زازا .

— لا دنا با كلم الشمس . أصلها سألتنى مين القليل النهارده .

فرمقتنى زازا فى امتعاض وواصلت تضميدها لكتف الحاج .

وتوتو فى البحر قد شرع يضرب بخنجره فى الماء ليصيد سمكة ،

لا شك أن الإنسان يحتاج إلى شيء من التغذية بعد ارتكاب جريمة

متعبة كالقتل .

وانتهت زازا من ربط كتف الحاج ، نظرت أنا إلى قيصها

وغلبنى الضحك .

— فيه حاجه تضحك ؟ سألتنى بغیظ .

— إتنى ! أجبتها ، كان يومين ح تلاقى نفسك لابسة بيبى دول !

قطعة من ذيل القميص صنعت منها ذات يوم كجادة لجبين الحاج

الساخن ، وقطعة ثانية ربطت بها كتفى أنا ، وها هى القطعة الثالثة

على كتف الحاج ، لست أدري ماذا كنا نصنع بغير هذا

القميص النافع .

— تفكرى ح يموت ؟ سألتها .

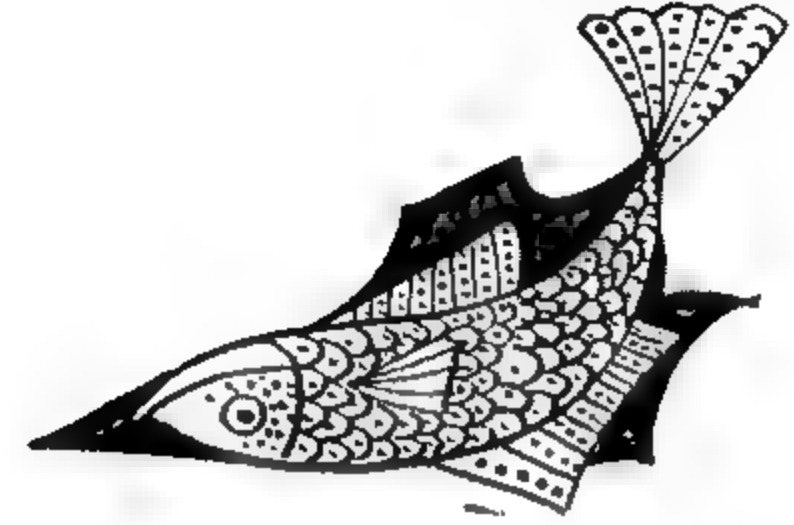
— شيء بارد ! وأنا اعرف منين بقى ؟

— على كل حال توتو ما ضربوش غير ضربة واحدة صغيرة .

كان ذوق معاه فى الحقيقة .

— تَزَا زَا آتَى صَوْتُ تَوْتُو مَنَادِيَا .

فِي يَدِهِ سَمَكَةٌ كَبِيرَةٌ تَتَلَمَّبُطُ ، أَلْقَى بِهَا عَلَى الْأَرْضِ فَرَاخَتْ
تَتَنَطَّطُ ، فِي حِينٍ شَرَعَ هُوَ يَشْعَلُ النَّارَ .



— تَزَا زَا طَاوَدَ تَوْتُو النَّدَاءَ .

— آدَيْنِي جَايَه ، أَجَابْتَهُ زَا زَا فِي مَلَلٍ .

وَقَعَصِدْتُ إِلَيْهِ تَسَاعُدُهُ فِي الطَّهْمَى ، وَأَنَا وَاقِفٌ عَنْ بَعْدِ أَنْتَفَرَجَ
جَارِي الرِّيقِ . فَلَشِدَّ مَا فَرَحْتُ حِينَ رَفَعَ تَوْتُو السَّمَكَةَ عَنْ النَّارِ
وَأَشَارَ إِلَى دَاعِيَا . ظَنَنْتُ أَنَّهُ يَدْعُونِي لِلْمُؤَاكَلَةِ وَلَكِنِّي كُنْتُ
مَمْعَنًا فِي التَّفَاوُلِ ، إِذَا كُنْتُ بِأَنْ قَطَعَ ذَيْلَ السَّمَكَةِ وَأَلْقَاهُ نَحْوِي
عَلَى الرَّمَالِ كَمَا تَلْقَى عِظْمَةُ لِكَلْبٍ . فَأَسْرَعْتُ إِلَى الْغَنِيمَةِ وَأَنَا أَبْصَبُصُ
مِنَ الْفَرَحِ بِذَنْبِ وَهْمِي ، سَرَعَانِ مَا كُنْتُ أَلْتَمُّ ذَيْلَ السَّمَكَةِ بِكُلِّ
مَا فِيهِ مِنْ شَوْكٍ وَرَمَلٍ .

الفصل الحادى والعشرون



تَوْتُو يَنْتَهَى مِنَ الْأَكْلِ حَتَّى نَادَانِي إِلَى الْعَمَلِ ، فَلَمَّاذَا
أَطْعَمَنِي إِلَّا هَذَا ؟ بِالْمُنْشَارِ الصَّخْرَى عَكَفْتُ عَلَى النَّحْتِ
وَالْكَحْتِ ، أَنَا لِلْمُهَنْدِسِ الَّذِي تَحُولُ عَلَى آخِرِ الزَّمَنِ إِلَى نَحَارٍ .
سَاعَتَانِ مِنَ النَّحْتِ وَالْكَحْتِ حَتَّى صَرَخْتُ يَدِي مِنَ الْأَلَمِ ،
وَفِي سَبِيلِ قَضِيَّةٍ أُعْرِفُ جَيِّدًا أَنَّهَا خَاسِرَةٌ . لَا يَسْتَطِيعُ هَذَا الْحِمَارُ
أَنْ يَفْهَمَ أَنَّ الْعَيْبَ فِي الْبَحْرِ لَا فِي مَرْكَبِي .

وَزَا زَا تَقْسِمُ وَقْتُهَا بَيْنَ الْعَنَايَةِ بِالْحَاجِ الْجُرِيحِ وَبَيْنَ الْفَرَجَةِ عَلَيْنَا
وَهِيَ صَامِتَةٌ . كَانَتْ تَتَفَرَّجُ عَلَى تَوْتُو بِوَجْهِ خَاصٍ ، تَطِيلُ النَّظَرَ
إِلَى وَجْهِ الْقَاسِي كَأَنَّهَا تَحَاوُلُ أَنْ تَتَعَرَّفَ فِيهِ عَلَى تَوْتُو الْقَدِيمِ .
لَكِنَّا لَمْ تَحَاوُلْ أَنْ تَكَلِّمَهُ وَلَا حَاوَلَ هُوَ أَنْ يَكَلِّمَهَا ، دِمَاءُ الْحَاجِ

طلبة أقامت حاجزا جديداً بينهما ، بعد الحاجز الذي أقامته
دماء كرشة .

— مش كفاية بقى يا توتو ؟ قلت له ضارما ، شوف إيدى ؟

وبسّطت أمام عينيه كفى المتسلخة فرمقها فى ازدراء وقال
أركب . لم تتوقف عن العمل إلا بعد الظهر إذ تراجع توتو خطوة
إلى الوراء وراح يتأمل المركب ، ثم أخذ يدور حولها ويتفحصها
من كل ناحية .

كانت للمركب هى المركب ، لم يطرأ عليها جديد سوى أنها
صارت أرق نوما . لسبب ما يظن توتو أن خشونة مركبى وثقلها
هما السبب فى عجزها عن اقتحام التيار . نظرة ارتياح تراءت
فى عينيه ثم دس الخنجر فى جيبه وقصد إلى شجرة التفاح ، ظننت
بالطبع أنه سيأكل لكنه لم يفعل . بكّتا يديه راح يقطف التفاح
ويلقى به على الأرض ، ما لبثت أن رأيت تحت الشجرة كوما
هائلا من التفاح .

— الراجل ده اتجنن ولا إيه ؟ سألت زازا فى دهشة .

فبسطت ذراعيها تعرب عن حيرتها ، والوغد توتو يواصل
القطع حتى كادت الشجرة تصبح عارية من التفاح . وبدون كلام
ترك كل هذا التفاح وقصد إلى البحر حيث شرع فى الصيد ، صاد

ممكة وألقاها على الشاطئ ، ثم صاد أخرى وألقاها ، ما هى إلا ساعة
حتى تجمع على الأرض أكثر من عشرين ممكة .

— ده يظهر انه اتجنن صحيح ا قالت زازا .

— إنما جنونه المرة دى كويس ، موش معقول ح يقدر يا كل
السمك ده كله لوحده .

واسترعت أمماعنا أنه مفاجئة من ناحية الحاج طلبة فتلفتنا
إليه ، رأيناه يرفع رأسه عن الأرض وهو يتأوه ، عدة ثوان ثم
سقطت رأسه من جديد . فقصدنا إليه وتحسست جبينه فوجدته
ساخنا كالنار ، وجسست نبضه فوجدته سريعا بمض الشئ إلا أنه
نبض رجل حى . فنزعت زازا قطعة جديدة من قيصها وراحت
تبليها بالماء لتصنع منها كمادة ، فى حين وصلت أننى رائحة شبيهة
للسمك الذى بدأ توتو يشويه .

ساعة كاملة وهو يشوى ويشوى ، صامتا لا يكلمنا ولا نكلمه ،
فلما انتهى من الشئ رأيته يشير إلى بالاقتراب فخنفت إليه فرحا .
من بين العشرين ممكة تناول ثلاث ممكات وقذف بها على الأرض
عند قدمى .

— دول بتوعى أنا ؟ هتفت فى سعادة .

فم يجب توتو بشيء ، ورأيت أنه يشرع في تحويل السمك إلى المركب ، كدسه كله في ركن منها . ثم قصد إلى كومة التفاح وبدأ يصنع بالتفاح ما صنعه بالسمك ، كدسه كله في ركن آخر من المركب .

عند ذلك بدأت أفهم ، إذ أتى طول ممرى سريع الفهم . هو يعتزم القيام برحلة يعتقد أنها طويلة نوما ، وإلا فلأروم كل هذه المأونة ؟ لكنه أعطاني أنا ثلاث ممكات فإذا يقصد من ذلك ؟

— يا نهار أبوك اسود ! هتفت وقد فهمت ماذا يقصد .

هو يقصد القيام برحلة لا مكان لي فيها . سيعاود مغادرة الجزيرة بدوني ، فكرة أفزعني مدى لحظة ثم تذكرت أنه لا داعي للفرع . هو يظن أنه سينجح في مغادرة الجزيرة ولكنه لن ينجح ، أكون حمارا لو أن هذه المركب الرقيقة أمكنها أن تحقق ما هجرت عنه المركب الأولى الخشنة الثقيلة .

وقاطع توتو أفكارى بإشارة إلى زازا يستدعيها ، في حين شرع يجذب المركب حتى أنزلها في البحر .

— تواتزا ! صاح توتو مناديا .

فتركت زازا الحاج طلبية وقصدت إلى توتو الذى أشار إلى المركب آمرا إياها بالصعود .

— على فين يا خويا ؟ تساءلت في دهشة .

فلم يجيبها بشيء بل جذبها من ذراعها وأنزلها في الماء .

— طب ودول ؟ سألته في حيرة وهى تشير إلى أنا والحاج طلبية .

— دول ؟ ردد توتو كلمتها في ازدراء .

— آه دول .

فراح توتو ينظر إلى حينما ثم بصق على الأرض . ودفع زازا إلى المركب فصعدت مرغمة ، وصعد هو وراءها وتناول المجداف .

— ما تخافيش يا زازا ، ناديتها ، كان ساعة وتكونوا هنا تانى !

وشغل توتو مقدافه فبدأت للمركب تتحرك مبتعدة عن الشاطئ .

— باى باى ! صحت في أثرها ملوحا بيدي .

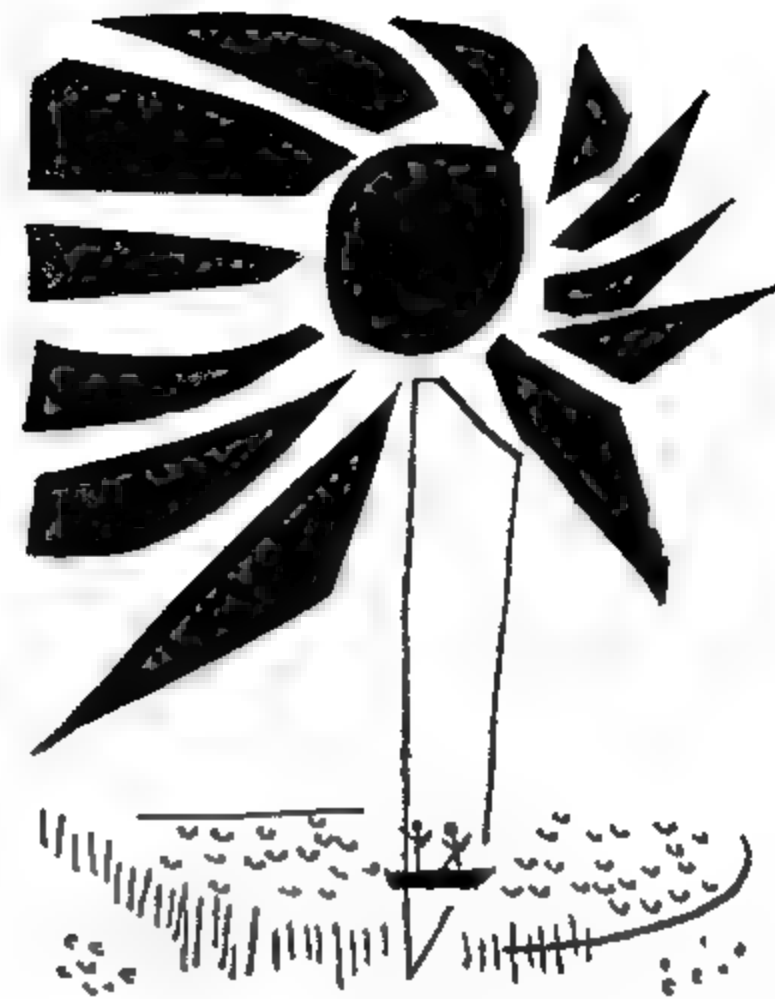
فرايت زازا تلوح لي بيدها من بعيد ، دقائق معدودة وأصبحت للمركب بقعة بعيدة سوداء . عند ذلك سرت في بدنى قشعريرة مفاجئة ، فإذا يكون الحال لو نجح مشروع توتو في الخروج بالمركب من منطقة التيارات ؟ أليس من الممكن أن أكون حمارا وتكون هذه للمركب الجديدة أصلح من مركبى ؟ فإذا يفعل حمار مثلى وهو بمفرده في هذه الجزيرة الموحشة مع حاج نصف عمر ؟

أسمع بأذني دقات قلبي . فأسرعت أجرى إلى حافة الماء وأنا أضيق
عيني قدر استطاعتي وأستعرض الأفق بجنون . زازا ضاعت ، زازا
الجميلة ، زازتي أنا ..

— زازا ! هتفت بصوت تخنقه الدموع ، زازا ! زازا !

وفوجئت بنفسي أبكي بحرقة ، دموعي تنهمر من عيني وتبلل
لحيتي الشعثاء . دقيقة من اليأس الأسود ثم خفق قلبي في فرح
بجنون ، عندما وقع بصري من خلال الدموع على نقطة صغيرة
سوداء عند الأفق .

للكرب ظهرت بعد أن اختفت ، فإل الغرابفة فأن أن أنطط من الفرح ؟
حيث وقتت على حافة الماء رحت أنطط وأصفق أيضاً ، مركزاً بصري
— بعد أن مسحت دموعي — على النقطة السوداء التي تتحرك
ببطء جهة اليمين . تسير أفقياً بعد أن كانت تسير رأسياً — تدور
بالاختصار حول الجزيرة كما فعلت بنا من قبل وأنا فيها . لست حماراً
ولمّا الحمار أنت ياتوتو ، إذ ظننت أنك تستطيع تحقيق ما عجزت
أنا عنه . هي تدور وتدور ما أحلى دورانها ، وأنا أصفق وأتحنجل
وتنطلق منى ضحكات وحشية متلاحقة . وبينما تدور تقترب من الجزيرة
في خطوط حلزونية ، أدور أنا معها فأكاد أصاب بالدوار . النقطة
الصغيرة البعيدة تحولت إلى بقعة صغيرة ثم كبيرة ، ثم تحولت
البقعة إلى مركب ميزت فيها رأسين ، شيئاً فشيئاً تقترب حتى رأيت



قشعريرة ثانية سرت في بدني حيث وقتت وحدي في شمس
الأصيل ، ناظراً إلى المركب التي أصبحت نقطة صغيرة في آخر البحر ،
نقطة صغيرة فيها حمالة بيضاء اسمها زازا . أيمكن أن تخرج زازا
من حياتي هذه الطريقة السافلة ؟

— آه ، تأوه الحاج طلبة حيث رقد على الرمال ، آه .

— جك أوى ! أجبتة من فوق كتنى .

ونظرت إلى البحر فاذا بالمركب قد اختفت عن البصر ، كدت

وجه زازا — حبيبتى زازا — رؤية العين . ورأيت وجه توتو الذى ينطق فى بلاغة شديدة بالغيظ والجنون وخيبة الأمل . ودورة أخيرة ثم حاذت المركب شاطئ الجزيرة وانغrust فيه بقوة ، تشبث الراكبان بحافتها كي لا ينسكبا منها على الأرض .

أردت أن أقهقه لكننى نظرت إلى وجه توتو فأمسكت ، كيف أقامر بالسخرية من صاحب هذا الوجه المجنون حتى الابتسامة التى ارتسمت على شفتى بالرغم منى رفعت يدي فداريتها بها . وزازا نزلت هى الأخرى صامته صارمة الوجه ، لا بد أنها فامرت بالضحك منه فشتها أو ضربها أو أى شئ . أما هو فنزل من المركب ووقف يتفحصها صامتا ، يدور حولها ويفحص كل جزء فيها ليعرف أين يكمن العيب . فيبدو أنه لم يجد فيها أى عيب ، وإلا فلماذا قفز إليها وركبها ، وتناول المجداف وشرع يجدف من جديد ؟

— ده ح يحرب الحكاية تانى ا هتفت أنا وزازا فى نفس واحد .

ونظرت زازا إلى فاذا بنا تنفجر ضاحكين ، وبينما ضحكنا فاض الحب من قلبى ، بسطت ذراعى أبعد ما يكون عنى وإذا بزازا تلتقى نفسها بينهما . قبلتها بشوق دافق وحنان ، الحمامة البيضاء التى خيل إلى منذ حين أتى ساقطها .

وبينما هى فى أحضانى رحنا نرقب المركب التى كانت بقعة فأصبحت نقطة سوداء فى آخر البحر . فلما كدنا نفقدها رأيناها تتحرك جهة اليمين وتشرع فى الدوران حول الجزيرة . فإذا نفعل سوى أن نضحك من جديد ؟ شيئا فشيئا عادت النقطة بقعة ، ثم عادت البقعة مركبا بها رأس ، ثم بدا فى الرأس وجه يقطر غيظا وغلا وخيبة رجاء . ودورة أخيرة وحاذت المركب الشاطئ وانغrust فيه ، بينما صاحب الوجه المجنون يتشبث بحافتها كي لا يندلق منها على الأرض . فأشاحت زازا بوجهها ورفعت أنا يدي أخفى ابتسامتى ، بينما نزل توتو من المركب ووقف يفترسها بنظراته وهو يلث . ولجأة رأيت يهجم عليها ليرفصها رفسة شديدة وقد نسى فيما يبدو أنه حافى القدم . فلم يكن عجيبا أن يصرخ ويرفع قدمه المصابة ويمسكها بكلتا يديه ليخمد الألم ، متفافزا بالطبع على قدمه الأخرى كيلا يقم . فكان منظرا جاوز قدرة زازا على كبح نفسها ، فاذا بها تنفجر بضحك هستيرى وهى تضرب الأرض بقدميها وتطرقع بأصابعها فى الهواء . فنظرت أنا إلى وجه توتو ورأيت أن أحذرهما . — زازا ، قلت لها فاصحأ ، بلاش ضحك ده مجنون .

لكن الأمر كان قد خرج من يدها ، لم يعد فى إمكانها أن تكبح ضحكها المستيرى . فبينما هى تضحك رأيت توتو يصبو إليها نظرة تقطر حقدا ، ثم أنزل قدمه واقترب منها حيث وقفت

تضحك ، وبكل قوته أهوى على خدها بصفعة شديدة ألقت بها على الأرض .

فكفت زازا عن الضحك ، وبعينين واسعتين من الرعب جلست تنظر إلى الرجل الذى ضربها ، والذى فوجئت به يرفع قدمه ويصوب ركلة عنيفة إلى جنبها ثم يتهاى للثانية . فذهلت وجنت ، ولأول مرة فى حياتى فقدت أعصابى . فوجئت بنفسى أندفع نحو توتو من الخلف وأقفر فأتعلق بذراعى فى رقبته ، فإذا به يترنح ويسقط على الأرض . فركبت فوقه كما فعل كرشة بى ذات يوم ورحت أغمر وجهه بلكات صمياء ، لكانت لم يصل إليه منها للأسف إلا لكتان والباقي تلقاه الوغد على ساعديه الحديدين . وزالت عنه المفاجأة فإذا به يخلعنى من فوقه ويلقينى على الأرض ، ثم يجذبنى من شعرى ليوقفنى ، ولكمة عنيفة من قبضته أصابت فكى ورممت حول رأسى عشرات من النجوم المتراقصة . شعرت بلخلخة فى الركب ووجدتنى أترنح ، ولكمة ثانية على فكى الآخر فغبت عن الوجود .



الفصل الثانى والعشرون



يخرج من بئر مظلم عميق بدأت أهود إلى الوعى ، وبصموبة فتحت عينى فوجدت فوقى بدرأ ساطعاً .
— هل هى زازا ؟ كلا هو البدر الآخر يطل على من السماء .
جلست وأخذت أدعك عينى ، وفتحت فى لأثواب فشعرت بالم شديد فى فكى .

صمت عميق يخيم على الجزيرة ولا أثر لإنسان إلا جثة الحاج طلبة لللقاء بالقرب منى . هناك وراء المركب القائمة على جنبها أتخيل زازا نائمة ، كيف طاوعها قلبها على أن تتركنى وحدى ؟ لا بد أن السافل سحبها معه بالقوة وأرغمها على هجرى . هل أقوم الآن وأتسلل إلى حيث ينام لكى أجرب سحب الخنجر من جيبه كما فعلت

ذات يوم ؟ كلا ، لا بد أنه أخفى الخنجر في مكان أمين بعد ما وقع
بالأمس من الحاج طلبة ، وما فائدة الخنجر في يدي على أي حال ؟
— أحمد !

صوت زازا أتى من ورائي فالتفت مذعوراً ، رأيته تقترب
سائرة على أطراف أصابعها . فلما وصلت إلى ركعت على ركبتيها
ومدت يدها تتحسس شعري .

— إيه اللي جابك ؟ سألتها وأنا أنفقت حولي .

— توتو نام جيت اطمئن عليك ، أجابتنى هامة ، فقت يا حبيبي ؟
— المفروض كده .

— مرسى قوى انك دافعت عني ، واصلت همسها .

— العفو يا ستى ده واجب علينا ، أجبتها متحسناً فكى المخلوع .
— أحمد ...

— إيه يا روحى ؟

— أنا خايفة قوى .

— من إيه يا حياتى ؟

— من توتو ، عمره ماضربنى كده أبدا .

— يعنى هو كان ضربنى انا ؟

— وشوف كان عمل إيه في الحاج طلبة .

— فعلا .

— مع إنه زمان كان ابن حلال قوى .

— فعلا .

— أحمد ...

— نعم ؟

— ما عندكش حاجة غير فعلا ؟

— فعلا .

— إنت خايف زى ما انا خايفة ؟

— م م م موش قوى . ولو ان فيه حاجة نفسى اعرفها .

— هي إيه ؟

— متأكدة ان توتو رايح في النوم ؟

— ساعة ما سبته كان بيشخر .

— لكن ممكن يصحى ف أى لحظة ...

— ممكن طبعا .

— طب ما تروحي له يا بنتى أحسن .

— إخص عليك يا احمد ، موش طاوزنى معاك ؟ باقول لك

خايفة قوى .

وألقت بنفسها على تمرغ خدها في صدري .

— خبينى يا احمد ، قالت وهي ترتعد ، خبينى .

— إستخبي يا روحى ، استخبي ، قلت وأنا أكثر رعدة .

وأحطتها بالذراعين لأخبئها ، مع أنتى والله أحوج الناس
إلى الاختباء .

— خائفة قوى يا أحمد .

— حتى بعد ما خبيتك ؟

— آه .

— طب استخبي مكان .

فلاذت بي أكثر من قبل ، قطعة صغيرة ترتعد بين أحضاني ،
لوذى يا حبيبتى لوذى .

— أحمد . .

— قولها تانى .

— بلاش دلع ، عايزة أسألك سؤال .

— واحد بس ؟

— لو كان المسدس محشى كنت تعمل إيه ؟

— أضربه .

— على توتو ؟

— إمال على روحى ؟

— يا خسارة ماهوش محشى .

— أبوه يا خسارة .

— طب خبينى .

— أكثر من كده ؟

ولاذت بصدرى أكثر من قبل ، عطر شعرها نفذ فى صدرى
وأسكرنى .

— قلنى شانىل ؟

— وبعدين معاك ؟ ح اقول لك مية مرة أربيع ؟

— طب استخبي ياروحى ، استخبي .

لحظة من النشوة المرتعدة لم تدم بالطبع طويلا ، بسبب الأنة
التي سمعناها بجانبنا . فالتفتنا إلى الحاج طلبة ورأيناه يتقلب حيث
نام فى ضوء القمر ، توطئة لأن يستوى فجأة جالسا .

فى بلاهة راح يتلفت حوله حيناً ، ثم اتكأ بيديه على الأرض
وشرع فى محاولة للنهوض . ارتفع عن الأرض قليلا ثم سقط ،
ثم ارتفع ثانيا . ببطء يرتفع عن الأرض كأنه لصق إليها بالصمغ ،
لحظات من الكفاح ثم رأيناه واقفا . شبح طويل فى الجلابية
البيضاء يترنح وقد رفع رأسه إلى السماء ، ثم بدأ يسحب شهيقا طويلا
يملاً به رئتيه ، سمعنا الهواء وهو يتسلل إلى صدره بصوت كالفحيح .
فانتظرت أن أسمع صوت الزفير لكننى لم أسمع ، لسبب ما رأى
الحاج أن يحتفظ بالهواء فى صدره حيناً من الزمن . ذلك - كما تبين
بعد لحظات - لأنه كان يزعم الصراخ .

- حي ! صرخ الحاج طلبة بصوت كالرعد احي احي !
أربع صرخات متوالية هزت أركان الجزيرة هذا ، مع كل صرخة
تجفل زازا بين ذراعي وتنتفض .

- حي ! صرخ الحاج من جديد ، حي احي !

ثلاث صرخات جديدة ثم سعل الحاج في وقار ولم الجلباب حول
ساقيه ، توطئة لأن ينخفض إلى الأرض ويجلس . وسعلة ثانية ثم
انطرح على جنبه ونام كما كان من قبل ، أنفاسه ترددت في هدوء
كأنه لم يبدر منه أى شيء غريب .

- أحمد ، هتفت زازا في هلع ، دا باينه اتجنن !

- زازا ، أجبتها وأنا أرتعد من الخوف ، بصى وراكى !

فالتفتت خلفها لكى ترى مارأيت ، توتو الذى يقف على بعد
خطوة منا وقد صحافى الغالب على صراخ الحاج طلبة . فى صمت
يقف ناظرا إلى زازا حيث لاذت بين أحضانى ، بوجه صغرى كوجه
أبى الهول يلمع فى ضوء القمر . ويهدوء منذر بالشر مد يده
إلى جيب المايوه ففتحه واستل منه الخنجر ، ذلك المنظر الذى
ما كادت زازا تراه حتى نهضت على عجل .

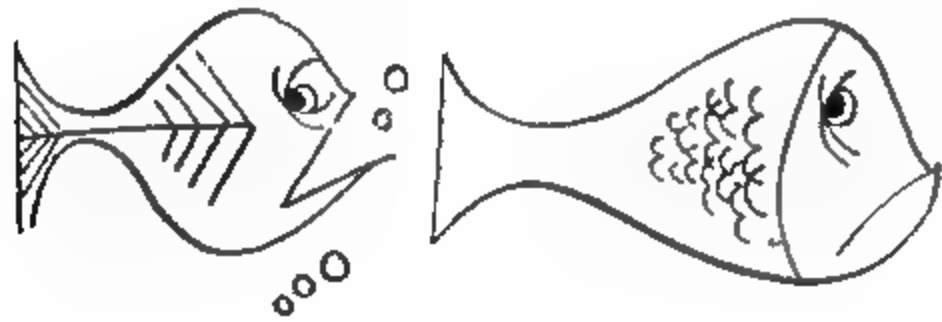
- توتو ! هتفت زازا ، بلاش جنان ! أنا ف عرضك يا توتو !

وهمت بأن تطبطب على صدره فدفعها عنه بقسوة وبدأ يقترب

منى بوجه يقطر حقدًا وشرًا . فلست أدري ماذا أصابنى حتى
جلست جامدًا بهذه الصورة كأننى تمثال الكاتب الجالس القرفصاء ،
لم أتحرك ولا حتى بعد أن رأيت الخنجر يرتفع فى يده إلى أعلا .

- توتو ! صرخت زازا .

وهجمت عليه من الورا تطوق جذعه وتحاول أن تجذبه
فكأنما تجذب جذع شجرة بلوط . بكوعه لكزها فى رأسها
فتركته وهى تغطى يديها وجهها ، ويده اليمنى هوت بالخنجر اللامع
نحوى . فلا بد أنه عفريت لبمنى خجاة - ذلك الذى جعلنى أنطرح
بسرعة البرق على الأرض وأتسقلب لأتفادى الطعنة ، توطئة
لأن أشرع فى الإجراء الوحيد للمتاح لرجل فى موقفى وذلك بالطبع
هو الجرى السريع .



بكل قوتى رحت أجرى وأنا أسمع صوت أقدام تجرى ورائى ،
مطلقاً بين الحين والآخر صرخة عبيطة كلما هم بأن يمسكنى . فخيّل
إلى بأننى انقلبت تلميذا صغيرا يلعب المسافة فى حوش المدرسة ،
خاصة عندما وجدتنى أقصد إلى شجرة التفاح وأحتسى وراها .

أنا في ناحية منها وتوتو في الناحية الأخرى بأسنانه اللامعة مثل
خنجره ، ينط يمينا فأنط شمالا كأننا في لعبة حاوريني بإطيطا . لكن
الشجرة لم تكن لتحميني طويلا ، ولذلك وجدتني أنطلق بآخر
سرعة عندي نحو المركب قافزا في طريقى على الحاج النائم ، احتमित
وراء المركب القائمة على جنبها ومادت المحاورة من جديد . فبينما
نحن كذلك إذ رأيت منظرا خيل إلى أنه غريب نوها ، منظر زازا
التي انحنى على الأرض في آخر الجزيرة وراحت تنبش في الرمال .
لكننى بالطبع لم أكرث بالأمر ولم أحاول متابعة حركتها ، مشغولا
بالأم وهو مراقبة توتو . إذ وثب فجأة عبر المركب فإذا به بجانبى ،
لحسن الحظ أفقيا لأرأسيا ، قدمه اصطدمت أثناء القفز بحافة
المركب فانكفا على وجهه .

— أحمد ! أحمد ! أحمد !

زازا تصرخ وهى مقبلة من آخر الجزيرة تجرى .

— إسقط يا أحمد ! صرخت حين اقتربت منى ، إسقط قوام !
وقذفت إلى شيئا مددت يدي وشقطته دون أن أعرف
ماذا يكون ، جسم صلب فوجئت به بين راحتي ، مسدس الحاج طلبة
يلمع بين يدي فى ضوء القمر ، فما انتفاعى بمسدس لارصاص فيه ؟
— المسدس محشى يا أحمد ! صرخت زازا بوحشية ، أنا كنت
مخبية الرصاص !

فشعرت بالدماء تتدفق إلى رأسى كالنافورة ومعها ألف سؤال ،
ولكن هل هذا وقت الأسئلة ؟ سؤال واحد صامت وجهته
إلى للسدس وأنا أرفعه إلى أعلا وأضغط على الزناد ، فأجبنى صوت
الطلقة المدوية . صوت وقع فى أذنى ولا صوت مدفع الإفطار
فى أذن رجل صائم ، بعكس توتو الذى — وقد قام من سقطته —
جد فى مكانه ووقف يحملق إلى فى ذهول . مسدس محشو بالرصاص
ومصوب إليه ، جدير به أن يخيفه حتى ولو كان فى يدي أنا .

توتو يفكر فى الأمر ويقلب وجوه الرأى ، ثم ابتسامة صفراء
تشيع فى وجهه وهو يتقدم نحوى ببطء باسطا يده . مشهد قديم
ذكره توتو ويريد اليوم أن يكرره معى باليد للمدودة والابتسامة
الصفراء ، يظن الحمار أن أحمد اليوم هو أحمد أمس .

— عندك ياتوتو ! قلت له بابتسامة حاولت أن أجعلها أكثر
من ابتسامته اصفرارا ، عندك ! أنا موش بتاع زمان ، آه ،
أنا واحد تانى !

فلو كنت حقاً واحداً ثانياً فلماذا وجدتني أتقهقر إلى الوراء ،
ولماذا شعرت بذلك العرق البارد يتصبب على جبينى ؟

— إرجع ياتوتو ! إرجع احسن لك !

لكنه لم يرجع ، مابرح يتقدم منى وأنا الذى أرجع .

— ياتوتو ابعده احسن لك ، قلت له بصوت متهدج ، أنا موش
حاز أقتلك ! ابعده عني ياتوتو !

لكنه واصل تقدمه وقد تحولت ابتسامته من صفراء إلى
معسولة ، كأنه يواجه طفلاً صغيراً شقياً . فأدركت أنني قد وصلت
إلى مفترق الطريق ، إلى النقطة التى يجب أن أقرر فيها مصيرى بأجمعه .
إنى أكره العدوان ولكن ما باليد حيلة ، فى بعض الأحيان يجب
على الإنسان أن يتخلى عن إنسانيته .

— إرجع ياتوتو ! أنا بانصحك لآخر مرة !

فواصل توتو الابتسام ، بينما رفعت أنا يدي اليسرى وأسندت
بها اليمنى التى ترتعد بالمسدس . سأضغط على الزناد ولست
مستولاً إذا استقرت الرصاصة فى مكان قاتل ، جدير بتوتو أن يدرك
جهلى بالرمية . بل إنى أضغط عيني حين صدك صمى صوت
الرصاصة ، ومرت لحظة قبل أن أفتح — لكى استكشف
ماحدث — عيناً واحدة . وبها رأيت توتو واقفاً كما كان ولكن
بغير ابتسام ، شفاه تقلصتا بعد الابتسام من الألم . وخطأ إلى
الأمام خطوة عرجاء ثم توقف ، رأيت على فخذه الأيمن شريطاً
طويلاً من الدم الأحمر . فذكرت ماقرأت عن خطورة الحيوان
الجريح وتهايات لإطلاق الرصاصة الثانية .

— أحمد ! هتفت زازا .

لكننى كنت قد تغيرت ، شئ غريب طرأ على روحي وفتح
نفسى للدماء . رصاصة أخرى أقضى بها على توتو ، وربما الثالثة
أقضى بها على الحاج طلبة أيضاً ، لم لا ؟؟ فأغضت عيني من جديد
حين سمعت صوت الرصاصة الثانية ، وفى هذه المرة فتحت العينين
لا واحدة ورأيت توتو يترنح ويسقط على ركبتيه .

— كل عليه ! كل عليه !

صرخة غليظة وصلتني من الحاج طلبة الذى فوجئت به
واقفاً عن قرب ، فأعجبني كلامه واقتربت من الرجل الساقط مصوباً
فوهة المسدس إلى رأسه .

— أكل عليك ؟ صرخت فيه بصوت غريب على أذنى ،
أكل عليك يا كلب ؟ !

فرأيت شفتيه ترتعدان بشدة وسقط على الأرض ممدود الساق
إلى الأمام . بيديه اتكأ على الأرض وراح يتقلقل إلى الوراء زاحفاً
على مؤخرته ، صورة مجسمة للرعب الدليل .

— أكل عليك ياوسخ ؟ قلت له وأنا أتابعه بفوهة المسدس .
ولست أدري لماذا أحسست بأننى يلعب من نفسه فى وجهى
ويتلوى يمناً وشمالاً ، بينما راقبت توتو فى تقهقره الدليل
وهو يرتعد ويلهث .

فاثني لأم بالضغط على الزناد إذ فوجئت بزازا تهجم على وتضمني إليها .

— أحمد ! صرخت زازا في رجاء ، أحمد ! أنت ح تعمل زيهم ؟
فكأنما صبت على دماغى جردل ماء ساقع ، فاضت نفسى بخاة
بالخجل الشديد من نفسى . فوقفت لحظة أصوب إلى توتو نظرة أخيرة
قاسية ثم أوليته ظهري وابتعدت ، نافشا جهد استطاعتي ما أتيج
لى من عضلات . وزيادة في إظهار ثباتى مددت يدي إلى الشجرة
وقطعت تفاحة ، رحلت أقرشها وأنا أتلقت حولي في انتصار .

ومن هناك رأيت توتو يميل إلى الوراء معتمداً على كوعيه ،
ثم ينزع الكوعين ويتمدد على ظهره متغززا . ورأيت زازا تتناول
ذيل قبصها وتنزع منه قطعة جديدة ، تحول القميص فعلا إلى بيبي
دول . وصوت شهيق عميق سمعته يتسلل إلى صدر الحاج طلبة ،
ذلك الشهيق الذى حبسه في صدره كما فعل من قبل متبهاً لصرخته .

— حى ! صرخ الحاج طلبة بجنون ، حى ! حى ! حى !
وترنح بخاة ثم سقط من طوله كالقتيل .



الفصل الثالث والعشرون



توتو بعد أن أتمت زازا تضميمه فخذته ، وبخلو جسمه
من أى جرح آخر فهمنا أن رصاصتى الثانية قد
طاشت . ثم واجهتنى زازا بنظرة غاضبة .

— والله لو عارفة انك كدته ما كنت طلعت الرصاص !

— عارفة انى ايه ؟ سألتها متجاهلا .

— إنك قتال قتلة ! موش كفاية رصاصة واحدة ؟ عاوز

تموت الراجل ؟

— تبنى بايخة فعلا ، مين يصطاد لنا سمك ؟

— باسم !

فبدأت أما اغتاظ .

— كنتى عايزانى اسيبه يدبجنى ؟

— لا ، بس كفاية تخوفه .

— مارضيش يخاف . ماحدث بيخاف منى .

— أنا زهقت قتل وضرب ! وزهقت تنشيف دم وربط جروح !

فنظرت إلى قيصها ورفعت حاجب المجنون الأيسر .

— ولو ان العملية دى لها فوايدها ، قلت لها ، قيصك بقى

احسن م الأول بمراحل !

لكنها لم تكن فى تلك النوبة .

— زهقت خناق ! كررت باشمزاز ، زهقت وقرفت !

— والله وانا زهقت اكر منك .

فأشارت إلى قوتو النائم .

— وموش قادرة افهم ده يتغير كده ازاي ؟ فاكر زمان كان

طيب أد إيه ؟

— فعلا ، وافقتها ، غنى لنا مرة ساعة الغروب .

— م اللى شافه منهم ، قالت بحرقه ، عذبه ولاد الكلب !

فنظرت إلى الحاج طلبة وبدأت أملاً صدرى بشهيق عميق .

— حى ! صرخت أقلده ، حى ! حى !

فراحت زازا ترمقنى حيناً فى غيظ ، ثم اهتز صدرها بضحكة .
وبدأ عقلى يتجه إلى ناحية أخرى ، إذ أننى وإن كنت قد صرت
بالنسبة للقتل أحمد جديداً فازلت بالنسبة لأحب أحمد القديم .

— تسمعنى تعملى ؟

وأجلستها بجلست وأنا بجانبها .

— عارفة ان دمك كان خفيف قوى وانتى خايقة ؟

فلم تجب .

— ما لكيش نفس تستخبي تانى ؟

— أستخبي من إيه بقى ؟ الاتنين نايمين زى الأموات !

— والتالت معدته طالعة لبرة . ياترى اتحمل ولا لسه ؟

— بلاش قرف !

— متأكدة انك موش هايزه تستخبي ؟

— آه .

— طب انا هايزه استخبي ، قلت مداعبا .

— لا يا شيخ ؟

— والنبي لتخبينى ، أصلى خايف قوى .

ومددت يدي نحوها فدفعتها ، لكننى مددتها ثانياً .

— ياسلام يا احمد .

— قولها تانى .

وتناولت وجهها بين راحتي ورحتي أنظر في عينيها ، أغوص
في البحيرتين الزرقاوين الصافيتين . بيدي مسحت على شعرها ،
وبأنفي نهلت من عطرها .

— أربيع من قبل ما تسأل ا قالت بشقاوة .

وفي عينيها رأيت نظرة عرفت منها أنها قد طادت زازتي ،
وكما لاذت بي منذ حين لذت أنا بها ، خبأتني بين أحضانها طويلا .

وأشرقت شمس الصباح على جثتين لا جثة واحدة كالأمس ،
وشعاع دافئ سقط على توتو فتعلمل حيث رقد ثم تحامل على يديه
واستوى جالسا . ممدود الساقين راح يتطلع بخوف إلى فخذه المربوط
وكان منتفخا وارما . ثم نظر إلى فقايلته بوجه رسمت عليه كل ما عندي
من الصرامة ، لكي أفهمه أنني مازلت ذلك السفاح الجديد ،
وفي الوقت نفسه تحسست المسدس الذي كنت قد علقته في أسنك
بنطلون البيجامة . فخفض بصره إلى فخذه وشرع يحل الرباط ،
رأيت جرحا متقيحا وفخذا محتقنا ينذر بالخطر .

— يا عيني ، قالت زازا في هلع ، ده الجرح اتوسخ .

— آرا قال توتو بصوت متهدج .

— آرا ؟ سأله .

— آرا ، أجابني .

وأشار إلى صخرة صغيرة على الأرض وشرع يضرب قبضة
بأخرى ويقول آرا .

— يكوفش قصده نار ؟ تساءلت زازا .

فأوما توتو برأسه عدة مرات مصدقا ، فناولته زازا حجرين
ووضعت أمامه بعض الأعواد الجافة ، سرطان ما كان قد أشعل النار .

— أنجر اصاح يشير إلى الخنجر .

فترددت لحظة ثم قذفت إليه بالمذكور وأنا أتحسس مسدسي ،
فد توتو النصل اللامع فوق النار وشرع يسخنه .

— يا خبر اسود ! هتفت زازا في فزع ، ده باينه ح يعمل
لروحه عملية !

— له حق ، أجبتها ، الرصاصة لازم تطلع .

— لكن ده ح يمور نفسه .

— هو حر ، الجرح جرحه والله خد فخده .

وسحب توتو الخنجر من النار متوهج النصل أحمر ، ومالبت
أن أدناه من فخذه بيد ترمعد . لحظة من التردد ثم دس السن
المتوهج في الجرح ، سمعت النار تطش في لحمه وابعثت منه صرخة
ألم . وصرخة أخرى كادت تنطلق من زازا لولا أنها سدت فيها
بواحتها ، مشيخة بوجهها كي لا ترى المشهد الرهيب . وكذلك

فعلت أنا ، ومن ورأى ممعت زفرات متلاحقة تنبعث من توتو وهو يجرى العملية . زافرات ألنية وشهقات ، وأنا أتخيل المنظر فأرتعد من مجرد الخيال .

— تزا تزا ! قال توتو بعد حين بصوت جريح ، تزا تزا !

فالتفتنا لنرى دماء غزيرة تغطي فخذ توتو ، وفي نفس الوقت رأينا في يده رصاصة صغيرة . فأسرعت زازا بنزع قطعة جديدة من ذيل قميصها ، هذا القميص سيصبح ذات يوم بلوزة . وانحنى فربطت الجرح لتوقف النزيف ، وكان توتو يرتعد من رأسه لقدمه ، أمر طبيعى بالنسبة لرجل أجرى لنفسه عملية جراحية وبدون بنج . فبينما زازا تربط له الجرح رأيته يرتجف بشدة ، وعرق غزير تصبب على وجهه وصدره ، فأصارحك القول بأنه صعب على ، قلت لنفسى هذا الرجل يحتاج إلى لباس يدفئه . فهاهى إلا لحظة حتى كنت قد خلعت فانلتى .

— خد ! قلت له بكراهية مصطنعة ، خد جتك البلا !

وقدفت إليه بالفائلة فتلقفها في فرح ، سرمان ما كان يحشرها بالعافية في صدره العريض . فلما أنهت زازا عملها رأيتها يستلقى على ظهره وهو يلهث ، نحوا من خمس دقائق وهو يتململ ثم سكنت حركته وبدأ أنه استغرق في النوم .

توتو نام والحاج طلبة صحى ، جلس يتلفت حوله فى عباطة ثم حاول أن يحرك ذراعه فتقلص وجهه من الألم . لكنه تماسك وواصل تحريك ذراعه من عند الكتف فى دوائر صغيرة لكى تلين عظامه . وبينما يفعل ذلك يواجهنى بعينين غائمتين فيهما نظرة غريبة ، من خلال وجه مغمض كاد يتوه وسط شعره المتهدل ، ولحيته الكثيفة البيضاء التى طالت وتدلّت وكادت تلامس الأرض . كأن عمره مائة سنة ، أو كأنه واحد من أهل الكهف صحى للتو من نومه الطويل . نفس النظرة الغريبة صوبها إلى توتو النائم ، ثم نقلها إلى زازا ، يتفحصنا طويلا كأنه يريد أن يذكر من نكون . ثم اعتمد بيديه على الأرض وجاهد لكى يقف ، ترنح حيناً ثم اعتدل وبدأ يمشى . كطفل يتعلم المشى سار الحاج طلبة عدت خطوات ، مقوس الظهر يتفحص الأرض قبل كل خطوة ، جلبابه مثل خيمة واسعة حول جسمه الذى ضم . وإلى الجرة قصد فرفعها فوق فمه وراح يشرب ، ثم اتجه إلى شجرة التفاح فقطف واحدة ووقف يقرشها ، مواصلاً تفحصه لنا بتلك النظرة الغريبة الغائمة .

فتنهدت وقصدت إليه .

— ازى كتفك يا حاج ؟ سألته مجاملاً .

فوقف يحملق إلى فى ذهول كأنه لا يعرفنى .

— كتفك طاب يا حاج ؟ أعدت سؤالى .

فواصل حملته إلى ثم سعل .

— الحمد لله ، أجابني أخيرا ، الحمد لله .

حتى صوته ذبل وصار أشبه بالحشرة .

— الحمد لله ، ردد الحاج كلمته بضعف وهو يشيح عنى بوجهه .

ثم أولانى ظهره . وقصد إلى الشاطئ ، جلس يستعرض البحر بنظرة طويلة شاردة . فعدت إلى زازا التى جلست بجانب توتو تتأمله وقد وضعت يدها على خدها .

— صعبان على قوى ، قالت بمرارة ، قوى .

— وعلى انا كان ، بس هو الذى جاب الأذية لنفسه .

— مع إنه كان زمان مافيش اطيب منه .

— فعلا ، غنى لنا مرة ساعة الغروب .

علامتان فيما أذكر رسمتهما على جذع الشجرة قبل أن يزول الورم عن فخذ توتو . ثم أصبح يوما بادی النشاط وراح يشي ساقه المصابة ويفردها ، ومد يده إلى زازا كي تساعد على الوقوف . وقف أول الأمر على ساقه السليمة رافعا الأخرى فى الهواء ، ثم أنزلها برفق ليلس بها الأرض . فما كاد يعتمد عليها حتى بدا الألم على وجهه ، لكنه تماسك وخطا بها إلى الأمام خطوة عرجاء .

من بعيد وقفت أرقبه فى حذر ويدي على المسدس ، إذ خطا

خطوة جديدة عرجاء تلاها بأخرى نصف عرجاء ، ثم بثالثة غير عرجاء ، طادت ساقه إلى ما كانت عليه من قبل رصاصتى . فظلت واضعا يدي على المسدس وأنا أرقب حركته ، إذ أنه كان يقترب منى ببطء . وصل إلى مسافة خطوتين منى ثم وقف يتفكر فى ، لحيته هو الآخر قد طالت وفى شعره المتهدل ظهر كثير من الشعر الأبيض .

فى صمت وقف ينظر إلى بعينين سوداوين براقتين ، وسط وجهه الذى مازال فيه أثر من الكدمات . وخفاة تحركت شفاته وانفرج فم عن ابتسامة لمعت خلالها أسنانه البيضاء ، أول ابتسامة لتوتو منذ زمن طويل . فترددت حينما ثم رددت ابتسامته بابتسامة جانبية صغيرة ، ولم أنس أن أرسم فى عيني معنى التحدى ليعرف أن أحمد الجديد مازال أحمد الجديد . وخفاة رأيت يده يمد يديه إلى فانلتى ليخلمها ، خلمها وقدمها إلى بنظرة امتنان . فتناولتها ولبستها ، كأننى لبست شوالا لا فائلة .

— أنجرا ! قال توتو وهو يمد يده باسما .

فلما رأى ترددي أشار إلى البحر قائلا « أمك » يعنى ممك . وعند ذلك زال ترددي وقد أسالت السيرة لعابى ، فتناولته الخنجر ونزل بصيد السمك . فلما صاده شواه وناديننا الحاج طلبة لكى يشاركنا الطعام . تردد أول الأمر ثم جلس يأكل فى صمت ، شاردا

فأثم العينين عجوزاً ، فتأفيت السمك وأشواكه تعلق بلحيته البيضاء
فلا ينتبه لها . أخرجت له أنا شوكتين ثم زهقت .

— دقنك بعد الأكل ما يزه تنفيض ! قلت له مازحا .

وبالرغم من أنه لم يضحك ، رأيت أن أواصل مداعبته .

— فأكّر زمان يا حاج ؟ كان معنا واحد يحب يأكل السمك
لو حده !

فواجهني حيناً بتلك النظرة الغائمة ، ثم لمعت في عينيه فجأة نظرة
أخرى فيها الكثير من شقاوة الأطفال . ورفع يده النحيلية وقد مد
سبابته نحوي ، ببطء مدها لينخزني بها ما بين الضلوع .

— قول يا باسط ! قال بصوت ماكر ، وابتسامة شاعت وسط
غضونه ولحيته .

— دمه بقى خفيف قوى ، قلت لزا بالإنجليزية .
ثم التفت إلى توتو .

— ولا حاو زنى اتكلم عربى ؟

— أربى ! قال توتو ضاحكا وهو يشير إلى قبر كرشة .

وانتهينا من الأكل فوقفت زازا أمامنا كجنية بيضاء ، وضربت
بيديها على فخذيها في شقاوة .

— تيجوا نلعب مسابقة ؟ هتفت بحماس .



وانطلقت تجري قائلة أن الشاطر من يمسكها ، فلم أكذب خبراً .
أسرعت وراءها وهي تجري هنا وهناك ضاحكة ، فلما أمسكتها كان
من الطبيعي أن أقبلها . وكان هذا دوري لكي أجري أنا وهي
تمسكني ، فلما أمسكتني قبلتني . وبدأ على توتو أنه فهم أصول
اللعبة فانطلق بدوره يجري ويدعونا إلى اللحاق به ، فلاحقناه
وأمسكناه وضحكنا حين أشار إلى خده مطالباً بقبلة .

ثم خطرت لآذا فكرة جديدة .

— تيجوا تنفسح في المركب ؟

— أركب ! قال توتو بسرور .

— يا لله يا احمد .

فرفعت يداً معترضة حازمة .

— لا ياستى ، أنا موش فاضى للفسحة . ورايا شغل .

— شغل إيه ؟

— ح اقمدا كتب .

— إيه ؟

— أكتب ، ماتعرفيش اكتب يعنى إيه ؟

— تكتب إيه يا أخينا ؟

— أكتب قصة .

— قصة ؟ صرخت في استنكار .

— آه قصة ، كثير على اكتب قصة ؟

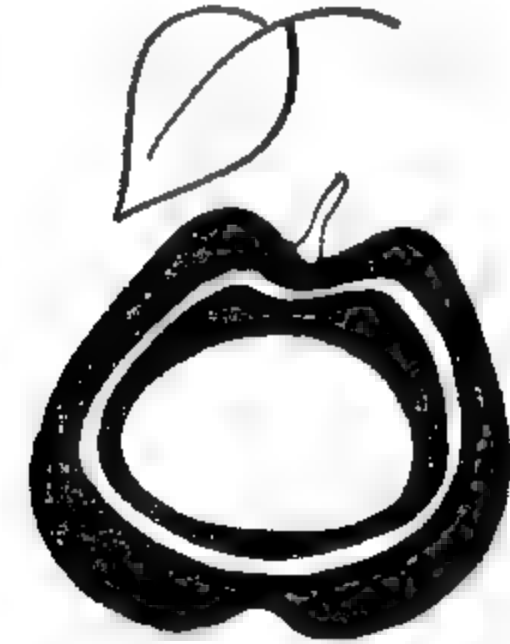
— تكتبها لمن بقي ؟؟ سألتني ساخرة .

— للأجيال القادمة ، أجبتها بكبرياء .

فوقفت حينما تشويني بنظرة استهزاء ثم التفتت إلى توتو .

— يا لله بينا احنا ياتوتو .

وانطلقت تجري كالغزال الشارد ووراءها توتو ، قفزا إلى المركب وانزلقا بها على الماء . وبالنظر إلى أن توتو لا يعرف التنكيت فلست أفهم سر تلك الضحكة العالية التي انبعثت من زازا .



الفصل الرابع والعشرون



أنتى شعرت فجأة بأن الوقت قد حان لكي أشرع في تدوين قصتي ، قصة الأحداث المضحكة والمفاجعة التي وقعت لي في تلك الجزيرة الفذة . نعم يجب أن أكتبها وأن أحمل على وصولها إلى إخوتي من البشر ، لعلهم يتمظنون بها إن هم وجدوا أنفسهم ذات يوم في جزيرة مثلها . فقصدت إلى الحاج طلبة حيث جلس يسبح وجلست قبالة .

— إلاقول لي يا حاج ، سأله باسمي ، يا ترى دفتر الشيكات لسه معاك ؟

فومضت في عينيهِ نظرة حادة وهو يدمدم بالصلوات .

— دفتر الشيكات ؟ سألتني بعد حين بريبة .

— آه ، أجبته وأنا أنزع من لحيته شوكة .

— ليه ؟

— أصلي عايز اكتب عليه .

— تكتب ؟ !

— آه ، أكتب .

— تكتب إيه ؟

— أكتب قصة :

— قصة ؟ !

لست أدري لماذا لا يصدق أحد أنى أستطيع أن أكتب قصة .

— أيوه ياسيدى ، أجبته بملل ، قصة .

— قصة إيه ؟ قال ملحا .

— قصة الأحداث المضحكة والمفاجعة التى وقعت لى فى هذه

الجزيرة القذرة .

فواصل تحديقه فى ثم بدا الغيظ فى عينيه .

— ما عنديش دفا تر ! قال فجأة بجفاء .

فدهشت .

— ليه يا حاج ؟ إنت لسه عايز منه حاجة ؟

— مافيش دفا تر !

فاغتنظت .

— يا حاج اعقل ، قلت وأنا آتخمس للسدس ، إنت موش

عارف انى اقدر آخده منك بالعافية ؟

فلم يجب ، راح يزغر لى بكراهية واضحة .

— هات الدفتر يا حاج ، ما تبقاش رذل !

ومن سكات مددت يدى إلى جيبه أتلس الدفتر ، فديده يريد

أن يمنعنى . لكنه ما لبث أن استسلم ، تركنى أدرس يدى فى جيبه

وأسحب الدفتر .

— والقلم لو سمحت ، أضفت .

فتردد لحظة ثم أخرج القلم وناول له لى .

— مرمى يا حاج ، قلت له بابتسامة صفراء ، وما تخافش

موش ح اكتب شيكات .

وهمت بأن أنهض ثم ذكرت أمرا .

— على فكرة يا حاج ، الشيكات دى لها رصيد بحق وحقيق ؟

— إمال يعنى انا نصاب ؟ ! قال بغضب .

— طب ما تزعلش ، قول يا باسط .

وتركته وقصدت إلى شجرة التفاح ، جلست تحتها أبرى القلم

بالخنجر ، جاعلا سنه أرفع ما يكون لى يساعدى على الكتابة

بأصغر خط عندى . فالشيكات محدودة والقلم نفسه صغير ، أخشى

أن ينفد هذا أو ذاك فأعجز عن مواصلة الكتابة وتنتهى قصتى

بسؤال لا جواب له .

فما كدت أشرع في الكتابة حتى برزت لي مشكلة أخرى
هي ماذا أكتب ؟ إني لم أكتب أية قصة في حياتي ، فكيف
يبدأ كتاب القصص قصصهم ؟ أين لي بالأسلوب الأدبي أنا المهندس
الذي لم يكتب شيئاً سوى التقارير الهندسية ؟ لكنني يجب أن
أحاول ، ويجب أن أتمج .

بدأت بوصف منظر غرق السفينة وكيف أنقذتني زازا ،
ثم منظر تعلقنا بالخشب الطافية والكلام الذي قلناه في ضوء القمر ،
أصارك القول بأنني بدأت أعجب بأسلوبي . ساعة كاملة
وأنا أكتب في نشوة أدبية ممتعة .

— إني لسه بتكتب ؟ فوجئت بصوت زازا التي عادت
من الفسحة .

— آه ، أجبني بإيجاز .

— طب وريني كتبت إيه .

— لا .

لكنها اختطفني الدفتر من يدي قبل أن أستطيع منها
وجلست تقرأ . فراقبتها في خوف من أن تسخر من كتابتي لكنها
لم تفعل ، ما كادت تقرأ الشيك الأول حتى بدا عليها الاهتمام
وابتسمت في سرور . كلما أمنت في القراءة زاد اهتمامها ، شعرها
يتهدل على الشيكات فتزيج بيدها وتواصل القراءة . ومرة رأيت

صدرها يهتز بضحكة مطربة ، سعادة فائقة غمرتني وقد نجحت
في إثارة إعجابها .

— الغريبة انت فاكر كل كلمة قلناها ا قالت ضاحكة .

— ودي يا بنتي حاجات تنسى ؟

— إلا واحنا واقفين عند الشجرة وانت ماسك في المראה .

— وكان قيصك منشور بينشف ، نهتها .

فواصلت القراءة حتى أنهت ما كتبت ثم واجهتني بنظرة
إعجاب صريح .

— تعرف انك شاطر قوي في الكتابة ؟

فأحسست بوجهي يتورد .

— موش قوي ، قلت بتواضع .

— وشك اجر !

— هاها .

ومالت على فقبلتني ، وعندئذ فهمت لماذا يتخصص بعض الناس
في العمل الأدبي . وأسندت زازا رأسها إلى جذع شجرة التماح
وتطلعت إلى الدنيا بابتسامة مشرقة .

— موش طرفة انا سعيدة كده ليه ، سعيدة قوي قوي .

— والله ومن ممحك .

— متيألي اني أسعد من اللازم ، أضافت .

فرفعت حاجب الفلسفة الأيمن .

— الواحد عمره ما يكون أسعد من اللازم ، أتفس من اللازم

معلش .

لكننى كنت أشعر فى داخلى أتنى أنا الآخر أسعد من اللازم ،
فكم من الناس أتيح لهم أن يستمتعوا بهذا للزيج النادر من الحب
والحرية والفلسفة ؟

ثم سمعت زازا تنهد وتنصب ، سرحت ببصرها كالحالمة
إلى الشمس التى تنحدر عند الأفق .

— مالك ؟ سألتها .

— لسه برضه ناقصنى حاجة ، طارف إيه ؟

— إيه ؟

— ولد ؟

— إيه ؟

— ولد .

— ولد ؟

— أيوه ، ولد أو بنت ما فيش مانع . حتى ولد وبنت يبقوا

احسن !

فخطرت لى أفكار كثيرة لكننى احتفظت بها لنفسى مكتفياً
بالنحنة .

— بس محتارة امميه إيه ؟

— الولد ؟

— آه .

خابتسمت ساخراً .

— الأساى كثير ، عندك احمد وطلبة وتوتو وكرشة !

— لا يا شيخ ، والنبي ؟

وسكتت وفردت نظرتها إلى الأفق من جديد .

— أحمد ، خاطبتنى بعد حين .

— قولها تانى .

— بلاش دلح وقول لى ، ما عندكش أى أمل ان المركب تشتغل ؟

— المركب بتشتغل بس البحر ما بيعبس للمراكب .

— أصلى الأيام دى نفسى اطلع من هنا قوى .

— سبحان الله ! بعد الحكاية ما هديت طوزه تطلعي ؟

فتفتحت فيها لتقول شيئاً ثم عدلت .

— كنتى ح تقولى إيه ؟

— ولا حاجة . إنت لازم تفكر شوية يا احمد .

— أفكر ؟

— آه ، فى طريقة نطلع بيها من هنا .



- العبد في التفكير .
- أصل انا جت لي فكرة .
- إيه ؟
- واحنا غرقانين في البحر انا وانت ، موش ممكننا فوقنا صوت طائر ؟
- حصل ، وكاتب عنه في القصة .
- الطائر ده راح فين ؟
- إيش عرفني ؟
- شغفناه في الجزيرة هنا ؟
- لا .
- يبقى لازم راح حتة تانية . يبقى فيه بلاد تانية قريبة من هنا . فسكت أستوعب كلامها .
- ساعات يطلع منك كلام معقول ، اعترفت لها .
- وما دام فيه بلاد قريبة ، استرسلت ، يبقى ممكن نوصل .
- نظريا .
- بصفتك مهندس لازم تشوف لنا طريقة .
- كرشة قال لي اطقو عليك مهندس اثم انا خلاص قررت اسيب الهندسة واتفرغ للأدب !
- فرمقتني لأئمة .

— والنبي تفكر جد يا احمد ، عشان خاطري أنا .

— حاضر يا ستى ، قلت مستسلما ، أفكر .

فابتسمت فى رضاء حيث استندت إلى جذع الشجرة ، عيناها
ما برحت شاردة إلى الأفق الذى اكتسى بحمرة الشفق .

— ما فيش فائدة ، قالت بعد حين ، موش عاجبنى ولا إسم .
فصوبت إليها نظرة ماكرة .

— قبل ما نفصل البدلة ، سألتها ، موش نحضر اللي يلبسها ؟
وابتسمت لها فابتسمت لى ، هناك حيث جلسنا تحت شجرة
التفاح . ظلال المساء الزاحف تلتشر حولنا ، وشبح للعاج وهو
يصلى العشاء ويتهيا للنوم ، وتوتو جالس عند الشاطئ البعيد ينظر
إلى البحر . وقرص قصى بزغ عند الأفق الشرقى ، وإذا بصوت
تينور جميل داعب آذاننا ، صوت توتو وهوينشد أغنية جميلة غامضة .
— تمام زى زمان ! قالت زازا ضاحكة .

— زى زمان واحسن .

— إشمعنى ؟

— المسدس معايا أنا .

— إنت بتحب المسدس ؟

— أكرهه عمى ، لكن ما باليد حيلة .

فشاعت في وجهها ابتسامة ماكرة .

— بتضحكي ليهِ ؟

لكنها لم تجب على سؤالى .

— أحمد ، قالت بركة .

— قولها تانى .

— بتحبينى ؟ سألتنى .

فأجبتها .



الفصل الخامس والعشرون



الشمس تشرق حتى أخرجت الورق والقلم وعكفت
على الكتابة . من الصبح للظهر وأنا أكتب ، رفضت
كل العروض التى حاولت زازا أن تغرينى بها . رفضت أن ألعب
المسافة أو أنزل للسياحة . ورفضت لعب السيجة أو الحجلة
أو كيكاع الواطى مع أتنى شاطر فى الأخيرة جداً . بل إننى رفضت
أن أقوم للغداء قائلاً أننى سأكل وحدى فيما بعد .

— يا أخى قوم كل قبل السمك مايرد ، قالت زازا بإلحاح .

فنظرت إليها فى أنفة .

— ليس بالسمك وحده يحيا الإنسان ، أفهمتها .

وواصلت الكتابة كالمحموم ، لم أتوقف عنها إلا عدة دقائق
لكى آكل سمكتى ، لم يهمنى أنها باردة . بل اتى لم آكلها إلا لما
فى القوسفور من فائدة لخلايا الفلسفة بالمخ .

— طب قوم تنفسح فى المركب ، اقترحت زازا .

— اتفسحوا انتم ، أجبتها بحزم .

— ياساترا انت ركبك عفريت ولا إيه ؟

— تقريباً .

فومضت فى عينها نظرة ماكرة .

— تعال تنفسح فى المركب انا وانت لوحدنا !

فأعجبتنى الفكرة لكننى تماسكت .

— ليس بالنسحة وحدها يحيا الإنسان ، أجبتها بإباء .

— ياسم !

— أصل فيه حاجة مانتش فاهماها . أنا اكتشفت انى موش

بس باكتب قصة ، لأ ، أنا باكتب فلسفة كان .

— فلسفة ؟

— آه ، باتفلسف يعنى ، فهمتى ؟

فوقفت حيناً تلسعنى بنظرة ساخرة .

— طيب ياخويا ، اقعد اتفلسف !

وتركتنى وانطلقت إلى المركب ووراءها توتو ، قفزا فى المركب

وانزلقأها على الماء ، لست أدري ماذا يفعل ذلك الوغد لكى
ينترع منها تلك الضحكة العالية . كالأمس لم أتوقف عن الكتابة
إلا عند حلول الظلام ، ومع شروق الشمس عاودتها .

— دى ما كانتش قصة ! قالت زازا مستنكرة .

— تاخدى تقرأ ؟

— لا ، وسيها شوية لأنى مايزة اكلمك فى حاجة مهمة .

— أمم م القصة دى ؟

ورأيت فى عينها نظرة جادة فنحيت الورق وأنصت . نظرة فرح

غامر لمعت فى عينها وهى تدنو بوجهها من وجهى وتضع فيها

على أذنى .

— أنا ح اولد يا احمد ! همست بفرح كالطفلة ، ح اولد !

فذهرت ، ثم ابتسمت .

— عارفة انا افكرتك قلتى إيه ؟

— إيه ؟

— إنك ح تولدى .

— سبحان الله ، ماهو ده اللى قلته !

— يانهار اسود ! هتفت فى ذعر .

— إسود فى عينك ! دنا فرحانة بشكل ! حاسة انى ح اظير

من كتر الفرح !

— تبقى مجنونة .

— ليه ؟

— دى جزيرة حد يولد فيها ؟ تربي العيال ازاي ؟

— مايمنيش . كفاية انى اولد وخلص !

و بسطت ذراعيها حولها تريد أن تحتضن الوجود .

— ياسلام ، قالت حاملة ، دنا لو جاني عيل كنت اعبيده ! كنت

ابوس الأرض تحت رجله !

فرمقتها بازدراء .

— حاجة موش صحية بالمره ، وبكك يتملى رمل .

فلم تجبني ، فرحتها قد استفرقتها إلى درجة مزعجة جدا .

— ثم انا متيهاً إلى انك ناسية حاجة صغيرة ، أضفت بنجبت .

— هي إيه ؟

— ناسية انك ولا مؤاخذه موش متجوزة ! موش الحاج

طلبة طلقك ؟

— طب ما نا عارفة . إمل انا باقول لك الكلام ده ليه ؟

— ليه ؟

— علشان نصلح الحكاية دى .

فلعب الفأر في عبي .

— نصلحها ازاي ؟ سألتها بريبة .

— ح يكون ازاي ؟ بايكك تتجوزني طبعاً !

— أنا ؟ اهتفت في ذعر .

— طبعاً ، أجابت ببساطة .

فترددت لحظة .

— طب واشمغني انا ؟ قلت أخيراً .

فزغرت لى .

— بتقول إيه ؟

— قصدى يعنى ..

— قصدك إيه ؟ عايز ابني يطلع مالوش أب ! يعيش ازاي

في وسط الناس ؟

فتلفت حولي .

— موش شايف أى ناس حوالينا !

— الناس اللى ح يعيش في وسطهم بعد ما ترجع .

— إتنى خلاص قررتى اتنا ح ترجع ؟

— طبعاً ، إنت موش وعدتني انك تفكر ؟ !

فضحكت .

— أشكرك على الثقة الغالية ! بس لسه ماخذناش موافقة البحر .

— العقل أقوى من البحر ، قالت بكبرياء .

— حلوة دى ، لازم حافظها من حوار فيلم ومقتبس كان !

— موش مايز تتجوزنى قول ! أنا فيه ألف من يتجوزنى ، آه .

وكان فى كلمتها الأخيرة زفرة بكاء ، ورفعت يدها إلى عينها لتمسح

دمعة غير موجودة ، ثم أشاحت عنى بوجهها ملوياً بالبوز .

ففكرت فى كلامها ووجدته صحيحاً ، من الحمار الذى يرفض

الزواج من زازا ؟ وأنا بالذات أأست مديناً لها بحياتى ؟ ألم تنقذنى

زازتى من الموت ثلاث مرات ؟

— حبيبتى زازا ، قلت لها برقة ، عقد جوازك للحاج فين ؟

— وانت مالك ؟ قالت غاضبة .

— مايز اشوف صيفته عشان انقلها .

فالتفت عيناها فرحاً .

— إذا كان ع الصيغة أنا حافظها !

— طب مليهاى .

— صحيح يا احمد ؟ ! صحيح ح تتجوزنى ؟

— أيوه ياستى ، أمرى لله .

— حبيبى أحمد ، قالت وهى تقبلنى ، إنت أنبل راجل شفته

ف حياتى .

— مرسى .

وأخرجت شيكا فكتبت عليه الصيغة بإملاء زازا ، ذلك الشيك

الذى وقعته وأسلمته لها فدمسته فى صدرها . ثم ذهبت كمن تخلص

من حمل ثقيل ، أسندت ظهرها إلى الشجرة وفى عينيها نظرة حاملة .

فرحت أنا أفكر فى الداهية التى حلت بى ، والمصيبة التى تترصدنى

فى جوف زازا . هل كان ينقصنى طفل لعين يقلقنى بصراخه ويستأثر

دونى باهتمام زازا ؟ وكيف ينمو طفل فى هذه الجزيرة المسحورة ؟

هل ينمو ببطء كسائر الأطفال أو يتحول فى أسابيع — على إيقاع

ساماتنا المجنونة — من طفل إلى غلام إلى فتى يافع ؟ فإذا طالب

هذا الفتى اليافع بالأنثى فأين هى ؟ وإذا كنا فى ذلك الوقت قد شغنا

ووهن العظم منا ، كيف لنا أن نلم هذا الفتى الأهوج الذى لا نال

تربية ولا دخل مدرسة ؟ ؟

— زازا ، قلت لها فى لحظة ، إحنا فعلاً لازم نخرج من هنا .

— موش باقول لك ؟

— لكن ازاي ؟

— فكر . وعلى بال ماتفكر اكون خدت لى حمام .

ونهبض فجأة وانطلقت تجرى إلى البحر ، كجنينة بيضاء ألفت

بنفسها بين أحضانها . فرفعت يدي أهرش رأسى فى حيرة وارتيباك ،

أطول أظافر تعبت بأطول شعر لعريس تزوج من دقيقتين .

العينين كقطعة رومية نعلانة . المرأة في يدي أفكر في أن أنظر فيها لكنني أخاف ، إذ أعرف أي منظر سأرى فيها . لكنني ما لبثت أن تجرأت وأدركتها إلى وجهي ، فوالله كدت لا أعرف نفسي في هذا الوجه الرهيب . شعري الذي شاب أكثر من نصفه ، ولحيتي الكثيفة الشمعاء ، وغضون حول العينين لا أذكر أنها كانت هناك قط .

الفصل السادس والعشرون



زازا حمامها فأتت وجلست أمامي تسرح شعرها في المرأة التي أرفعها أمام عينيها ، بنسة شعر تمسكها

بين أسنانها .

— فكرت ؟ سألتني والبنسة تهتز بين شففتيها .

— في إيه ؟

— في طريقة نخرج بيها ؟

— لا والله لسه !

فنزعت البنسة ورشقتها في شعرها ، ثم تمددت على الرمال تأخذ حمام شمس . استلقت على وجهها مودعة خدها على يدها ، مسبلة

— زازا ، سألتها بيبأس ، بذمتك بتحبيني صحيح ؟

ففتحت عينيها وابتسمت .

— طبعاً يا حبيبي ، قالت بخنان .

فهزرت رأسي متعجباً .

— ذوقك غريب جداً !

وأبعدت المرأة عن وجهي وقلت لنفسي أنني قطعاً يجب أن أهرب من هذه الجزيرة . لو بقيت هنا شهراً آخر لوجدتني أقطع من شجرة التفاح غصناً أحوله إلى عكاز ، مقوس الظهر أقبل زازا بنم لا أسنان فيه .

— طارف اذا جالى ولدح اطلعه إيه ؟ قالت زازا بلهجتها الحاملة .

— إيه ؟

— عالم .

— في الأزهر ؟

— لا ، في البيولوجى .

— شمعنى البيولوجى ؟

— إسمها حلو .

— بس كده ؟

— آه وعلى فكرة ، إيه الفرق بين البيولوجى والفسىولوجى ؟

— البيولوجى تعلمنا ليه بنعيش والفسىولوجى تعلمنا

ليه بنموت .

فرمقتنى بنظرة فاحصة .

— موش بطالة الكلمة دى .

— وانتى سمعتى حاجة ؟ دنا عندى كلام كثير ، بس ما حدش

ساب لى فرصة اتكلم .

— فعلا ، طول الوقت وانت بتجربى !

— وانتى بتربطى فى جروح .

— مع إننا كان ممكن نعيش مبسوطين .

فهمت بأن أعلق على كلمتها لولا الشئ الذى فوجئت به يسقط

على دماغى ، تفاحة حمراء طابت واستوت فسقطت من الشجرة

وحدها . فتناولتها وأنا أضحك .

— بتضحك ليه ؟ سألتنى زازا .

— فكرتنى بتفاحة نيوتن .

— يطلع مين نيوتن ده ؟

— واحد عالم ، تفاحة زى دى وقعت على دماغه طلعت منها

بفكرة الجاذبية .

— الجاذبية ؟

— آه .

— الجنسية ؟

— لا ، الأرضية .

— طب قشرها لى .

وبينا شرعت أقشر التفاحة زحفت زازا إلى ظل الشجرة وتمددت

على ظهرها عافدة يديها تحت رأسها .

— وتبقى شاطر اذا قشرتها قشرة طويلة ملولة .

— ملولة ؟

— آه .

— وتدينى إيه ؟

فطت بوزها وطرقمت بقبلة صغيرة .

— إثنين ، قلت مساوماً .

فأومأت برأسها موافقة ، وشرعت أنا أقشر التفاحة وفقاً

للمواصفات ، حيلة قديمة علمتنى إياها أيام الصبا خادمة كانت عندها ،

سمراء فى رقبتها حسنة ورائحتها بصل .

— إتفضل ياستى ، قلت فى انتصار ، ملولة كفاية ؟
وأدليت فوق رأسها قشرة طويلة ملتوية كثعبان أحمر ،
ثم تركتها تسقط فوق صدرها .



— طب والنبي شاطر .
ومدت لى شفيتها فأنحيت وقبلتها قبلتين . فإنتى لأمم الثالثة
إذ سمعنا نمنحة بالقرب منا ، ونظرنا لرى الحاج طلبة واقفاً يزغر لنا .
— على جهنم ! قال لنا بصوت ذابل مبجوح ، على جهنم !
فضحكت زازا .

— لماعومتك يا حاج ، خاطبتة أنا يهدوء ، إحنا خلاص اتجوزنا .
تحب تشوف العقد ؟
ولوحت له بالشيك .

— بنفس الصيغة بتاعتك يا حاج ! أضغت باسمما .
فلم يجب بشىء ، وقف حينما يزغر لنا بعينه الغائمة ثم ابتعد
وهو يدمدم .

— دمه بقى خفيف قوى ، قالت زازا ضاحكة .
وبيدها اليسرى رفعت التفاحة إلى فمها ، فى حين مدت يدها
اليمنى إلى القشرة الحمراء تسويها على صدرها فى خطوط
حلزونية منسقة .

— عارف اذا جيت ولدح امميه إيه ؟
وذكرت اسمما سمعته بنصف أذن ، وبنصف أذن سمعت كل ما قالت
فى الدقيقة التالية ، كأن صوتها يصل إلى من مكان سحيق . ذلك
بسبب الدوامة العنيفة التى اجتاحتني فجأة مذ وقع بصرى على القشرة
الحلزونية الحمراء فوق صدرها . القشرة حلزونية ونحن نعود إلى
الجزيرة كل مرة فى دوائر حلزونية ، فما سبب ذلك ؟؟ لماذا لا نعود
إلى الجزيرة فى خط عامودى كالخط الذى تغادرها فيه ؟ لماذا تصر
تيارات هذا البحر على أن تسير فى تلك الدوائر الحلزونية العجيبة ؟
فلو أننا ...

— أحمد ! أحمد ! أيقظني صوت زازا ، سرحت كده ليه ؟
فلم أجبها ووجدتني أقفز واقفا كالملسوع ، رعدة جامعة
تهزني هزا .

— زازا ! هتفت بصوت متهدج ، وجدتتها !

— هي إيه ؟ سألتني في دهشة .

— وجدتتها يا زازا ، وجدتتها !

— هي إيه يا أخينا ؟ إنت اتجننت ؟

— تفاحة نيوتن نفعت معايا اجت لي فكرة هائلة !

— فكرة إيه ، موش تفهمني ؟

— هائلة والله ، هائلة !

وكالمجنون رحت أقطف التفاح بكلتا يدي كما رأيت توتو يفعل
منذ أيام ، تساقط التفاح كالطر حول زازا فنهضت مذعورة .

— قطمي معايا ، قطمي يابت !

— لا .. إنت مائة الماية جري لعقلك حاجة !

— قطمي يا ولية ماتقفيش ساكنة ! ولا روحى قولى لتوتو

يصطاد سمك كثير ! السمك اللي في البحر كله ! ياسلام .. ده نيوتن
ده سره باتع بشكل !

الفصل السابع والعشرون



من المركب ملئ بالتفاح الذي قطفناه ، وركن آخر
يفتظر السمك الذي جالس توتو يشويه ، فأخذت زازا
على جنب ورحت أشرح لها نظريتي التي لا أعرف بعد ماذا أسميها
على وجه التحديد ، وبالطبع ستدخل في التسمية كلمة الحلزونية —
النظرية الديناميكية للحركات الحلزونية أو شيء من هذا القبيل .
إن التيارات المائية في هذا البحر — شرحت لها — من دأبها أن تتجه
إلى الجزيرة في دوائر حلزونية ، الأمر الذي تحققنا منه مرة بعد مرة
بالمشاهدة والتجربة . إذن فوفقاً لقانون الاحتمالات يكون من شبه
المؤكد أنها تيارات ذات طابع حلزوني ، فماذا يحدث لتلك التيارات
بعد أن تصطدم بأرض الجزيرة ، هل تتلاشى وتختفي كلية ؟ كلا بالطبع

لأبد أنها ترند عن الجزيرة بعد أن تصطدم بها ، من ناحية بفعل
الصدمة ومن ناحية أخرى لتفسح الطريق للتيارات الأخرى التي
لا تبرح تتدفق على الجزيرة . إذن فهناك احتمال كبير في أن تكون
هناك - في الوقت نفسه - تيارات تبتعد عن الجزيرة مثل التيارات
التي تتوافد عليها ، وهي في أغلب الظن تتحرك في دوائر حلزونية
مشابهة . فأين تذهب تلك التيارات ؟ ما المانع نظرياً من أن نفترض
أن هذه التيارات يمكن أن تحملنا معها - إذا نحن وجدناها -
إلى البحر الواسع العريض ؟؟
- فهمتى ؟ سألت زازا مستوثقاً .

فلم تجبني من فورها ، راحت تنفرس في بنظرة تتضارب فيها
معاني الشك مع الرغبة في التصديق .

- طبلية ما عترناش على التيارات دى قبل كده ؟ سألتنى بريبة .
- سؤال وجيه وجوابه سهل ، ما عترناش عليها لأننا كنا
دائماً نطلع من الجزيرة ف خط طامودى ، فهمتى ؟

فسكتت تتفكر في الأمر حيناً .

- ياسلام ، قالت أخيراً .

- آه ، أحببتها .

وكان توتو قد انتهى من شى السمك فنقلناه إلى المركب ،

ودفعنا المركب نفسها إلى الماء ، أنزلناها في النقطة التي اعتاد التيار
أن يرجعنا إليها في كل مرة . وقبل أن نركب أخذت أستعرض للوقوف .
- مليتى القلة ؟ سألت زازا .

- أيوه .

- وجبتى غطاها ؟

- أيوه .

- وكيس النايلون ؟

- إمال ح اشيل المشط والمراية ف إيه ؟

- وانا معايا الخنجر والمسدس ، يالله بينا .

- إستنى شوية .

- إيه ؟

فضحكت زازا لسبب لا أعرفه .

- هو احنا ممكن نطلع ولا نرجعش هنا تانى ؟ سألتنى .

- في الغالب ، ليه ؟

- إمال اما اجيب البتاع ده بقى ؟

- بتاع إيه ؟

لكنها لم تجبني وانطلقت تجرى بعيداً ، انحنيت في آخر الجزيرة
وراحت تنفث في الرمال . فلما عثرت على بغيتهما أقبلت على ومدت
نحوى قبضتها المطبقة على شىء ما .

— إفتح إيدك ، قالت باسمة .

فبسطت راحتي لكي تودع فيها ما عندها ، عيون الجميع تركزت على يدي في اهتمام . إحساس في يدي بأجسام معدنية صغيرة توضع فيها ، ثم رفعت زازا يدها لكي أرى على راحتي ثلاث رصاصات من رصاص للسدس .

— إحشي مسدسك بقي ، قالت زازا ضاحكة .

فرحت أحمق في الرصاص بقدر من البلاهة يبدو وأنه كان أكبر من اللازم ، وإلا فلماذا سخسخت زازا من الضحك ، ولماذا عدى توتو بضحكها فقهقه ، وحتى الحاج طلبة نفسه رأيته يهتز بضحكة مكتومة ؟ تعليقات كثيرة دارت في دماغي لكنني كنتها ووقفت أحشو المسدس في صمت .

— ماليش دعوة ، قالت زازا ، إنت اللي علمتني كده !

— طب معلش ، قلت لها ، هي لك والزمن طويل . يالله بينا . إلى المركب صعدنا وفيها جلسنا وهم ينتظرون تعليماً ، إذ تناول توتو المجذاف وهم باستخدامه فنمته .

— موش نقدف ؟ تساءلت زازا في دهشة .

— نقدف ليه ؟ سألتها باستعلاء على ، إحنا عارفين التيارات المرتدة ماشية ازاي ؟ ما حدش يتحرك خالص .

— لكن . .

— هس اا اكتبوا نفسكم .

صمت عميق خيم علينا حيث جلسنا في المركب ، أربعة صدور تغلي كلها بأمل واحد . دقيقة من الصمت والمركب ثابتة في مكانها لا تتحرك ، أنظار الجميع مركزة على في رجاء تمازجه ريبة ، وتحفز واضح للعين أبي إذا فشلت الخطوة . فتقبضت يداي بقوة على حافة المركب ، أنظر إلى البحر في استعطاف ذليل .

ونجأة تقلقلت للمركب على سطح الماء مع أن أحدا منا لم يتحرك ، بدأت تدور حول نفسها ببطء وتغير من وضعها . تقدمت خطوة نحو الشاطئ كأنها ستغرس فيه ، لكنها ما لبثت أن غيرت فكرها وبدأت تتأرجح مبتعدة عن الشاطئ برفق ، لافي خط عامودي عليه وإنما بمحاذاة كأنها تنوي أن تدور حول الجزيرة .

— دي مشيت ا هتفت زازا في دهشة ، مشيت ا

والحاج طلبة أسرع شفتاه بالدمدمة ، وتوتو لمعت خلال ابتسامته أسنانه البيضاء . والمركب تنزلق على الماء بحذاء الشاطئ مبتعدة عنه رويداً رويداً .

— احنا بنبعد عن الأرض ا هتفت زازا بفرح ، والله بنبعد ا

شيئاً فشيئاً نبتعد عن الجزيرة ، في دقائق قليلة كنا قد درنا
حولها دورة كاملة . ثم دخلنا في الدورة الثانية وشرعنا في الثالثة ،
صارت الجزيرة على مسافة لا تقل عن مائة متر . ومع الدورة الرابعة
تضاعفت المسافة ، وبانتهاء الخامسة والسادسة كانت الجزيرة
قد أصبحت على مدى الشوف .

— حاجة مش معقولة أبدا ، قالت زازا وهي تضرب كفاً
بكف ، دي معجزة !

— طولي بالك ، أنذرتها ، لسه ما تأكدناش .

إذ أننا لا نكون قد نجحنا إلا إذا تجاوزنا تلك المنطقة المشئومة
التي ما برحت تصدنا في كافة المحاولات السابقة ، إذ تصيدنا في دوامة
التيارات العائدة إلى الجزيرة . فسكنت زازا وسكتنا جميعاً ، أنفاسنا
محبوسة ونحن ننظر تارة إلى البحر العريض للنبيسط أمامنا ، وتارة
إلى الجزيرة التي أصبحت مجرد نقطة صغيرة في آخر الدنيا .

— تفكرى صمرنا وصلنا للمسافة دي ؟؟ سألتها مستوثقاً .

— ما أظنش ، قالت بشيء من التردد .

واكتفى الحاج بالدمدمة وهو يجيل حوله نظرات عصبية
زائغة ، وللمركب تسير وتسير مدفوعة برياح غير محسوسة . ما هي
إلا ساعة حتى كانت الجزيرة قد اختفت تماماً عن أبصارنا .

— صمرنا وصلنا للمسافة دي ؟ تساءلت من جديد وفي صوتي
نبرة انتصار .

— أبدا ، هتفت زازا بفرح ، أبداً ! صمرنا ما بعدنا كده أبداً !
— أبداً أبداً ! رددت وتوتو هتافها وهو يتفزز ويضرب على فخديه
بيدي طفل فرحان .

فلأت صدري بشهيق عميق من هواء البحر المنعش ، ولمرة
الأولى أطلقت زفيراً حراً طويلاً مع آهة تجمع بين الراحة والظفر .
ثم وجدتنى أتنحجح في كبرياء وأنا أرفع حاجب العلوم الأيمن .
— باقول ادخل فيها إسمي ، قلت لزازا .

— هي إيه ؟

— النظرية طبعاً . أصلي كنت حاسمها النظرية الديناميكية
للحركات الخزونية لكن غيرت فكرى . حاسمها نظرية الحركة
الأحمدية ، حاجة كده زى الحركة البراونية .

فراحت زازا تحدق في حيننا ثم غمرتنى بابتسامة تسيل حب
وإعجاباً ، بل إنها مالت على فطمت قبلة سريعة على خدي .

— والبي انت ما في منك أبداً ، قالت بلهجة صدق .

— لا ماتبالغيش ، أجبتها بتواضع العلماء ، لارم برضه فيه هـا
ولا هـنا ، هـاها .

وسفينتى تنزلق على للماء كالبحجة الحسناء بغير قلع أو مجداف ،
تشق عباب البحر باسم الله مجريها ومرساها . فبورك في يوم ولدت
ويوم ركب في دماغى هذا الميخ العلى القذ .

— متهياالى سرعتنا قلت ، قالت زازا بعد حين في قلق .

— ده بس متهياالك ، أجبتها بثقة .

— طب والله قلت ، قالت مصرة

فنظرت إلى للماء وأرهفت السمع ، خيل إلى أنا الآخر أنها
نطقت صدقا .

— على كل حال ده شئ طبيعى ، قالت لها مطمئنا ، التيارات
ضرورى تنتهى . لازم نبتدى نقذف . خد ياتوتو .

وناولته المجداف الذى هم باستخدامه ثم توقف بادی الحيرة .

— مالك ؟ سأله .

فأشار بإصبعه إلى الأمام وإلى الوراء ، ثم إلى الشمال واليمين .

— والله له حق ، قالت زازا ، ح يقذف على أى ناحية ؟

وكانت هذه مشكلة حقا ، فألى أين نحن ذاهبون ؟ البحر
عريض فسيح لانهاى أزرق ، شماله كجنوبه كشرقه كغربه ،
وسفينتى غير ذات بوصلة .

— أحسن حاجة نخلى الشمس ورانا ونمشي ، قلت مقترحا .

— إسمعنى ورانا ؟ تساءلت زازا .

— ح يكون ليه ؟ علشان ما تزغلش عنينا ، صعبة دى ؟
فبدأ توتو يحدف بنشاط ، فرحا بالفرصة التى أتاحت له لى
يعمل شيئا .

— تعرفى ان توتو نفعلنا جدا ؟

— فى إيه ؟

فى أنه أكسب للركب هذا القدر من الخفة والنعومة ، لم يكن
مستبعدا أن تعجز التيارات عن حمل السفينة الخشنة الثقيلة السابقة .

— ربنا يبارك لنا فيه ، قالت زازا وهى تربت على ظهره بخنان .
كتفاه عريضان وجانباه ضلعا مثلث ينتهى عند خصره النحيل ،
عضلاته لا تبرح تنقبض وتنبسط فى ظهره البرونزى المتين — لكننى
أنا الذى رسمت الخطه .

— ناولينى ممكة بس تكون كبيرة ، قلت لزازا .

فناولتنى ممكة والحاج طلبة مثلها ، كادت نسبة الأهواك
فى لحيته تطفى على نسبة الشعر . فلما تغديت تناولت المجداف
من توتو ريثما يتغدى بدوره ، وصمعت من زازا ضحكة مطربة .

— حقا انت للمرة دى نوح بحق وحقيق !

— نيوتن من فضلك ، نهبتها .

— بس اياك توصل حته حلوة .

— دى بقى معرفهاش ، أنا موش مغسل وضامن جنة .

— عشان كده انا خلاص نويت على حاجة ، عارف إيه ا
— إيه ا

— خلاص ح اسمي ابني أحمد .

— ده أقل ما يجب عليكى .

— آه ، أسميه أحمد وادله توتو .

فزغر لنا الحاج طلبة ولم يقل شيئاً ، بينما رحت أنا أجدف
وأجدف .

— يظهر انها ح قليل علينا ، قالت زازا بعد حين بقلق .

فالتفت خلفي نحو الشمس ، رأيته قد انحدرت عند الأفق
ملونة إياه بحمرة الشفق . وبحركة لاشمورية نظرت إلى ساعتى
فسرطان ما جدت عيني عليها .

— زازا ! هتفت فى دهشة ، زازا !

— إيه ؟

— بصى ا ؟ ساعتى عقلت ا

وأدريت الساعة من وجهها ، راحت تتفرس فيها حيناً ثم
هزت كتفها .

— آهى زى ماهى ، قالت باستخفاف .

— دى زى ماهى ا دى ا ؟

— آه .

— طب دى موش بس هديت عن الأول ، دى بقت أهدي
من كل الساعات اللى فى الدنيا . بصى كويس ا

فهل كان عقرب الثواني يدور فى سالف الزمن بهذا البطء
الشديد ؟ إنه يتفصح على للبناء أكثر منه يدور ، يتلکأ عند
كل علامة كأنه لا يريد أن يفارقها ، فهل أنا أعمى ؟

— يا زازا بصى ! هتفت فى فرح وحشى ، بصى ا

— والنبي بلاش عباطة وقدف .

— إتنى عارفة الحكاية دى معناها إيه ؟

— معناها انك مجنون ا يا تقدف يا تدى توتو يقدف .

— قدف ا قال توتو باسما .

فناولته المجداف وأخرجت أوراقى بأنامل مرتعدة ، سجلت
عليها هذه الملاحظة عن الساعة .

— يا خسارة ، قلت بحسرة ، الورق قرب يخلص ولسه فيه
كلام كتير .

جريت الساعة حين تجرى بسرعة ، وخبرت الشعر حين يتهدل
ويشيب بين عشية وضحاها ، فماذا يكون الأمر لو حدث العكس ؟

— ما فيش قاعدة ، قالت زازا بمرارة ، ما فيش ريحة أرض
حوالينا . ضرورى ح نبات فى البحر .

نعم يبدو أننا سنفعل ، حمرة الشفق ذابت فى لون البحر الرمادى ،

وعتمة للساء أخذت تنتشر حولنا . واليلة ليست مقمرة ، نجمة
واحدة لمعت جهة الشرق وربما كانت الزهرة .

— ما كفاية تقديف يا توتو ، قالت زازا ، الدنيا ضلت .
فأطاعها وترك المجدف ، ثم انخفض في قاع للركب وهويلهت .
والحاج طلبة كف عن المهمة حيث تكس في ركن للركب .
— تتعشوا قبل ما تناموا ؟ سألتنا زازا .

فطرقمت شفاهنا بالننى ، من الذى تروح نفسه للأكل
في هذه الظروف ؟ البحر الداكن المريض ، الصامت كالقبر مع أنه
يعج بالحياة . رحلة إلى المجهول في الظلام الذى لا يبرح يتكاثف
حولنا . صامتين جميعاً نلوك أفكاراً واحدة ، لا صوت حولنا
إلا خفق الماء على جنبات المركب . وزازا أراحت خدها على حافة
المركب وأدلت يدها في الماء ، شاردة تفكر . شيئاً فشيئاً يتكاثف
الظلام ويحول الجميع إلى أشباح ، حتى ظهر زازا العاجى في قبصها
للمزق كاد يتوه في الظلام . وبعد قليل تاه فعلاً ، غاب الجميع
عن بصرى .

وصوت أنفاس منتظمة لتوتو والحاج طلبة تدل على أنهما
قد ناما ، فدهمنى فجأة شعور منفزع بالوحدة والعزلة ، خيل إلى
أنه ليس في العالم كله إنسان غيرى . برودة مروت في بدنى ورعدة ،
وتسارعت كل من أنفاسى ودقات قلبى .

فددت يداً مرتعشة أنلّس بها كتف زازا .

— زازا ، همست بوجل ، نمتى ؟

فسمعت طرقمة شفيتها ، وأحسست بها تستدير نحوى .

— خائفة يا زازا ؟

— إنت خائف ؟

— قوى ، شوفى إيدى باردة ازاي ؟

— يا حبيبى ، دانت بتترعش .

وتناولت يدى بين يديها وكاتنا دافئتين ، ثم وجدتها تجذبني
نحوها في حنان وتميلني لى أنام ، أراحت رأسى على حجرها كأننى
طفل صغير .

— خائف من إيه يا حبيبى ؟ سألتنى برقة وهى تمسح بيدها
شمرى .

— البحر كبير قوى ، قلت بصوت متهدج .

— ما هو طول عمره كبير .

— والنجوم كثير قوى .

— بوضه طول عمرها كثير .

— موش للدرجة دى .

ملايين ملايين النجوم تبعثر في القبة السوداء ، بعضها نجوم
وحيدة ترتعد مثلى ، وبعضها أكاداس من نجوم نحاسية صدئة

أنظر إليها فيخيل إلى أنها قد تنهاوى فجأة فوقى ، أو أتى قد آخذ شهيقاً قويا فتسرب مثل ذرات التراب إلى صدرى .

— ما تخافش يا حبيبي ، أنا معاك .

بيدها الحنون مشت على جيبى ، شيئاً فشيئاً سرى دفئها فى جسمى وأخذ يطرد الرعدة عني . تسارعت أنفاسى حيناً ثم هدأت ، بدأت أسترده سكينتى . بل ونشوة غريبة جرفتني فجأة ، وشعور طارىء بالخفة وبالاستخفاف بكل ما كان يفزعنى ، فوجدتنى أقهقه .

— مالك ؟ سألتنى زازا .

— حاجة غريبة قوى ، عمرى ماخفت بالشكل ده .

— أصلك مجنون .

— هاها .

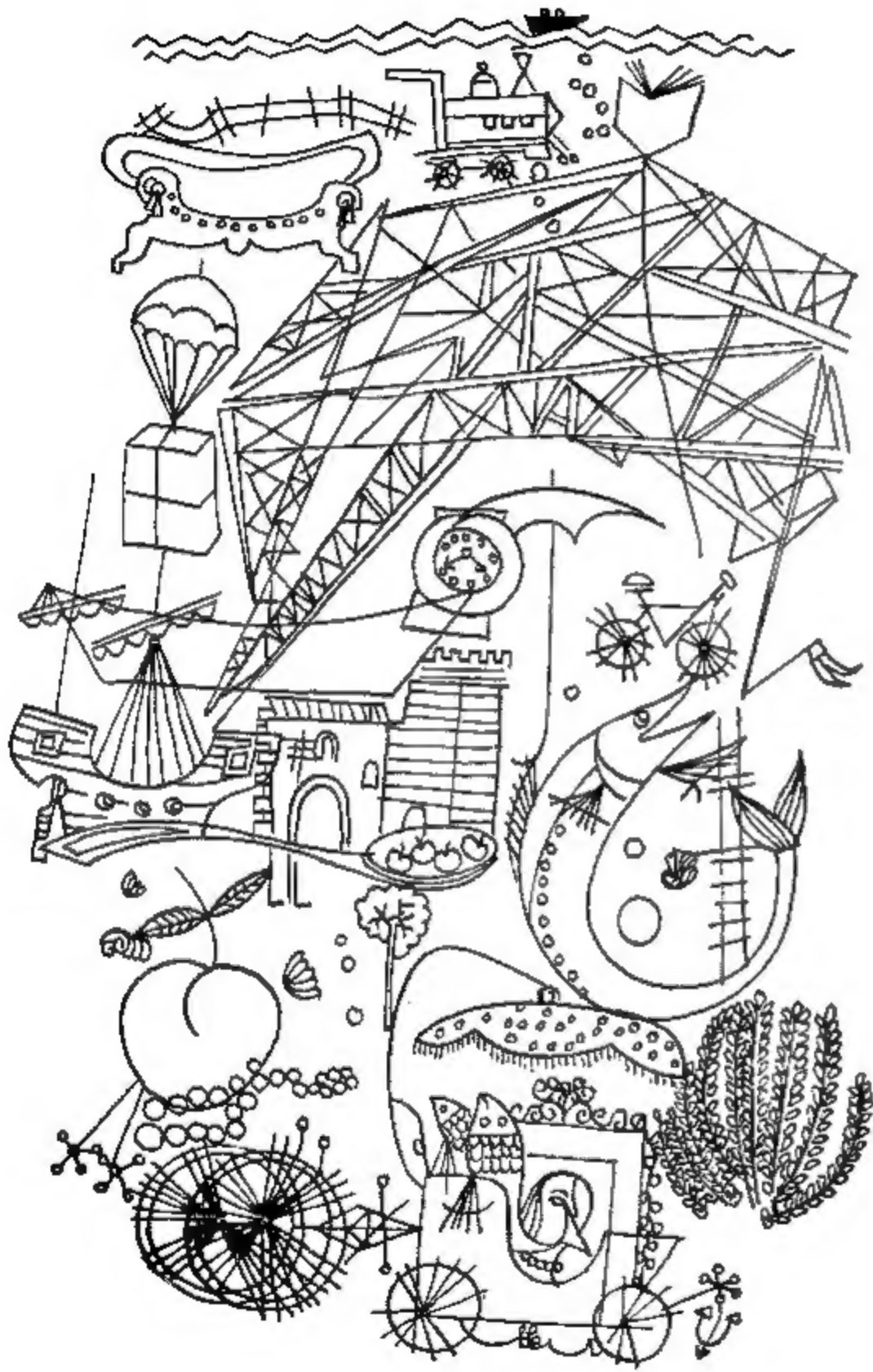
فماذا يمكن أن يحدث لنا ؟ تنقلب المركب ويأكلنا السمك ؟ أكلناه كثيراً فلماذا لا يأكلنا مرة من نفسه ؟ وماذا لو تحولت من آكل للبروتين إلى جزىء بروتين فى خلية ممحكة ؟ ما الفرق فى النهاية بين أن أعيش فى خلية أو فى الغلاف الجوى لكوكب ؟

— فكّرني بكرة اكتب الحكاية دى .

— إنت لسه ح تكتب ؟

نعم وبأصغر خط عندى ، وبدون أن أترك فى الوريقات المتبقية ملليمتر واحد أبيض ، كأنتى خطاط يستعرض مهارته فى تدوين كتابه المقدس على بيضة . إلا قول لى — قالت زازا — تزعل لو ما سميتش الواد أحمد ؟ وليه ما تسميهش أحمد ؟ نفسى ف اسم جديد . إتنى حرة . طب اسكت وفكر معايا ف اسم . ما أعجب ذلك الخوف الذى دهمنى ، وما أعجب النشوة التى تعتربنى الآن ، هناك حيث رقدت وسط التفاح . أنا الآخر لا يعجبني اسم النظرية الأحمدية ، تزن فى معنى كأنها إحدى الطرق الصوفية ، افكرت اسم . إيه هو ؟ إيه رأيك فى حلزونية أحمد ، حاجة كده زى ثابت بلانك ؟ طب بلاش عباطة وخلينا فى الواد . جنين فى جوفها بجانب رأسى ، لو أن معنى أقوى لسمعت دقات قلبه . عجينة تختمر فى ظلام الرحم وتتشكل ، ضفدعة تتأوى فى قرية ماء ، عفريت مقلوب على رأسه لا يرى ولا يسمع ولا يتنفس لكنه يعيش وينمو . على دقات ساعتى ينمو ، وكم تطربنى تلك الدقات الجديدة المتباطئة ، إلا قول لى . إيه ؟ تعمل إيه لو الواد نزل براسين ؟ إن شاء الله انت يارب ! ليه ، يبقى بمخين . هاها ، طب والنبي فكرة . بس يضطر يخلق دقنين . طب لوجبت بنت نسميها إيه ؟ عندى فكرة . إيه ؟ إذا جت بنت مميها تفاحة ، وإذا جت واد مميها جمجمة ! باسم كده ! على فكرة تعرفى إن الجمجمة صعبانة على ؟

ليه ؟ وحدها كده فى الجزيرة . وبين قال انها فى الجزيرة . يعنى إيه ؟
يعنى جنبها معايا ا إيه ؟ طبعا جنبها ، ح اسبها مسكينة وحدها
هناك ؟ أما انتى بقى . أحمد ، بلاش دوشة خلىنى افكر . كانت
دأما أنتى لامعقولة ، وكنا نظن أنها ستخرج من الكوخ مشرحة .
جئت على ركبتيها دامعة العين من الضحك وقالت شوفوا لى أى
عريس — أحمد . قولها تانى . تفكر ح نوصل ؟ ؟ قولى يا باسط .
إلاهم ! الحاج بيحلم . ده دليل على إنه لسه ما ماتش . والنبي بقى
دمه خفيف . إتنى عندك حد دمه ثقيل ؟ يا خسارة . إيه ؟ كان ممكن
نميش سعدا . كان . ضيعوا الوقت فى الخناق . بهدلونا ولاد
الكلب . هاها ، دانت يابنى جريت جرى ا من يضحك أخيرا ،
أحدهما فى القبر والآخر غصت لحيته بأشواك السمك . إلا الشيك
أبو ألف جنبه لسه معاك ؟ مكتوب عليه فصل من الرواية . ياترى
يرضوا يصرفوه لك بالشكل ده ؟ بس الأول يكون له رصيد . وبس
نوصل . موش شايفة حاجة فى البحر ؟ غير الضلعة مافيش . وحتت
تانية طالعة فيها الشمس . تيجى اسمى بنتى شمس ؟ موش سخنة
شوية ؟ البنت شمس والواد تعرف إيه ؟ إيه ؟ أسميه بحر . إشمعنى بحر ؟
موش اتقابلت معاك فى البحر ؟ حصل . وموش هو اتخلق فى جزيرة ؟
فعلا . وكان مركبنا غرقت فى البحر ؟ معقول . هاها . بتضحكى ليه ؟
تصور ان قاع البحر دلوقت فيه كل الحاجات اللى كانت فى المركب ؟



كرامى مذهب وترايزات . أى والله . ودواليب مبلولة وتسريحات .
ممكة ف درج التسمية . وقرموط فى الشيفونير . وابو جلمبو
لابس بيجامة . وأخطبوط لابس فستان . وعلب روج وقزائز
بارفان . قلتي شانيلى ؟ آربيج ، وكتب بايشة ودوسيمات .
وبانيوهات وسيفونات . الله يقرئك ، وغوايش وبروشات .
ولا تلسكوب القبطان . وإيه كان ؟ تماميم ذهب وصلبان . وعقود
لولى ومرجان . وسبح كهرمان ، وزراير جبة وقفطان . إحناح لشعر
ولا إيه ؟ إيه لآ ، ولا مخلفات الحرب . بوارج وغواصات .
وطرادات ونسافات . وليه نسيت الطيارات ؟ والقاذفات والنفاثات .
ولا حروب زمان . خوذلميع نحاس . وسهام واقواس . ورماح
ودروع . وسيوف وبتوع ، والنبي لعبة حلوة ! وخنجر بتاع راجل
قرصان . وإيه كان ؟ مفاتيح واقفال ، وترايبس أشكال . موش لاقية
حاجة تتقال . وحزام عفة من عصر الفرساني . هاها ، والنبي لاسميه
بحر . وخزن حديد فيها وثائق سرية . طب قول رسائل غرامية .
وإيه الفرق ؟ على رأيك . وتاج ذهب كان فوق دماغ سلطان .
طب انت عارف انا نفسي ف إيه ؟ إيه ؟ نفسي القى خاتم سليمان .
لو لقيتيه تطلبي إيه ؟ أطلب أطلب أطلب حزر أطلب إيه ؟ إيه ؟ أطلب
العفريت واقول له عارف إيه ؟ هيه ؟ أقول له يسحرنى ويعملنى
عارف إيه ؟ ؟ إيه ؟ يعملنى نسمة هوا . بالآلف ولا إيه ؟ مانفسكش

تبقى نسمة ؟ ما عنديش مانع ، حد يكره الطيران ؟ أنا وانت وتوتو
 نسمة واحدة . دى تبقى زوبعة . نظير لفوق فى العلالى ، لفوق .
 أى والله ، ندوى فوق فوهة بركان . ولما نزهق م العلالى ؟ نزل
 نصفر فى الوديان . ولا الجنائن والقيطان . من غيط قمح أصفر لبستان .
 نلاعب السنابل . ونشم زهر البرتقان . يرقص علينا الفراش ،
 وترفرف المصافير . ويا الحدادى والغربان . نميل فروع الشجر .
 ونردد صدى الألحان . فردى وباخ وموزار . ولية نسيق شوبان ؟
 ننفخ قلوب المراكب . ونزغزغ الربان . تيجى نغرق مركب ؟
 إذا كانت مركب قرصان . ونروح فى كل مكان . لاسور يحوشنا
 ولا قضبان . وإيه كان ؟ نلعب ضرورى ف شعر البنات . ونظير
 الباروكات والله فكرة ، ونظير ديل الفستان . ونطرى ع الحران .
 ونفوق السكران . والتعبان . والهيان . والثقلان . والزهقان .
 والخرمان . والعدمان . والصدمان . هاها ، بس يا احمد احسن دخت .
 أحب الدوخان . أحمد . قولها تانى . أحمد ، رق صوتها وما أحلاه
 حين يرق ، أحمد . إيه ياروحى ؟ بتحبني أد ماياحبك ؟ ياسلام يا زازا ،
 موش عارفة انك روحى ؟ صحيح ؟ طبعاً ، اللهم تكونى اتى
 بتحبينى . وانت عندك شك يا عنية ؟ جد بتحبينى ؟ قوى والنبي .
 الحمد لله انك موش فرسة النبي . ليه ؟ كنتى كلتنى . هى فرسة
 النبي بتا كل جوزها ؟ بعد ما يستنقد أغراضه . موش معقول !

قصدي أغراضها . طب انا فرسة . وشعر زازا تهدل على وجهي
 وهى تتظاهر بأنها تأكلنى فى حين أنها — كما تلاحظ — تقبلنى .
 زازا فى الحلوة تقبلنى ، هناك حيث رقدت وسط التفاح . ثم رفعت
 رأسها عن شهاب سرى فى السماء بسرعة ، توهج لحظة ثم خبا . ياترى
 الشهاب ده معاه ساعة ؟ شهاب ؟ آه ، لومعاه ساعة كان قال انه عاش
 مليون سنة . أحمد ، ده وقت تخريف ؟ وانحنى من جديد فقبلتنى ،
 ونشوة عجيبة غمرتني ، هناك حيث رقدت وسط التفاح . للمركب
 تمايل فكأنتى فى أرجوحة ، ووشوشة للماء حول أغنية من أغانى
 المهد . الماضى والحاضر والمستقبل فى لحظة ، كاللحظة التى عاشها ذلك
 الشهاب ، فلو أن — أحمد . إيه ياروحى ؟ أحمد ! إيه يا زازا ؟ إلحق
 يا احمد ! إلحق إيه ؟ أنا يظهر ح اولد ! إيه ؟ ح اولد يا احمد ، ح اولد !
 يا نهار اسود ! اسود فى عينك ، ح اولد ! مش معقول ! والنبي
 ح اولد ا زازا ! أحمد ا زازا ، إعتلى يا بنتى ، ده وقت حد يولد فيه ؟



هذا الكتاب

- هذه أول رواية فكاهية طويلة للمؤلف الذي تخصص في كتابة المقال الفكاهي منذ سنوات .
- وهي أول رواية فكاهية كاملة تكتب باللغة العربية .
- انها فكاهية ولكنها لا تستهدف مجرد الاضحاك ، بل تحاول تطويع الفكاهة لنقل فكرة جادة .
- يلعب فيها الخيال دورا كبيرا ، لكنه لا يرمى بدوره الى التسلية أو التهويل وانما الى خدمة الفكرة .
- لغتها عربية فصحي ، وحوارها بالعامية المصرية ، وأسلوبها عموما هو ذلك الأسلوب الجذاب الذي ينفرد به المؤلف ويعرفه به قراؤه .

دار القلم

